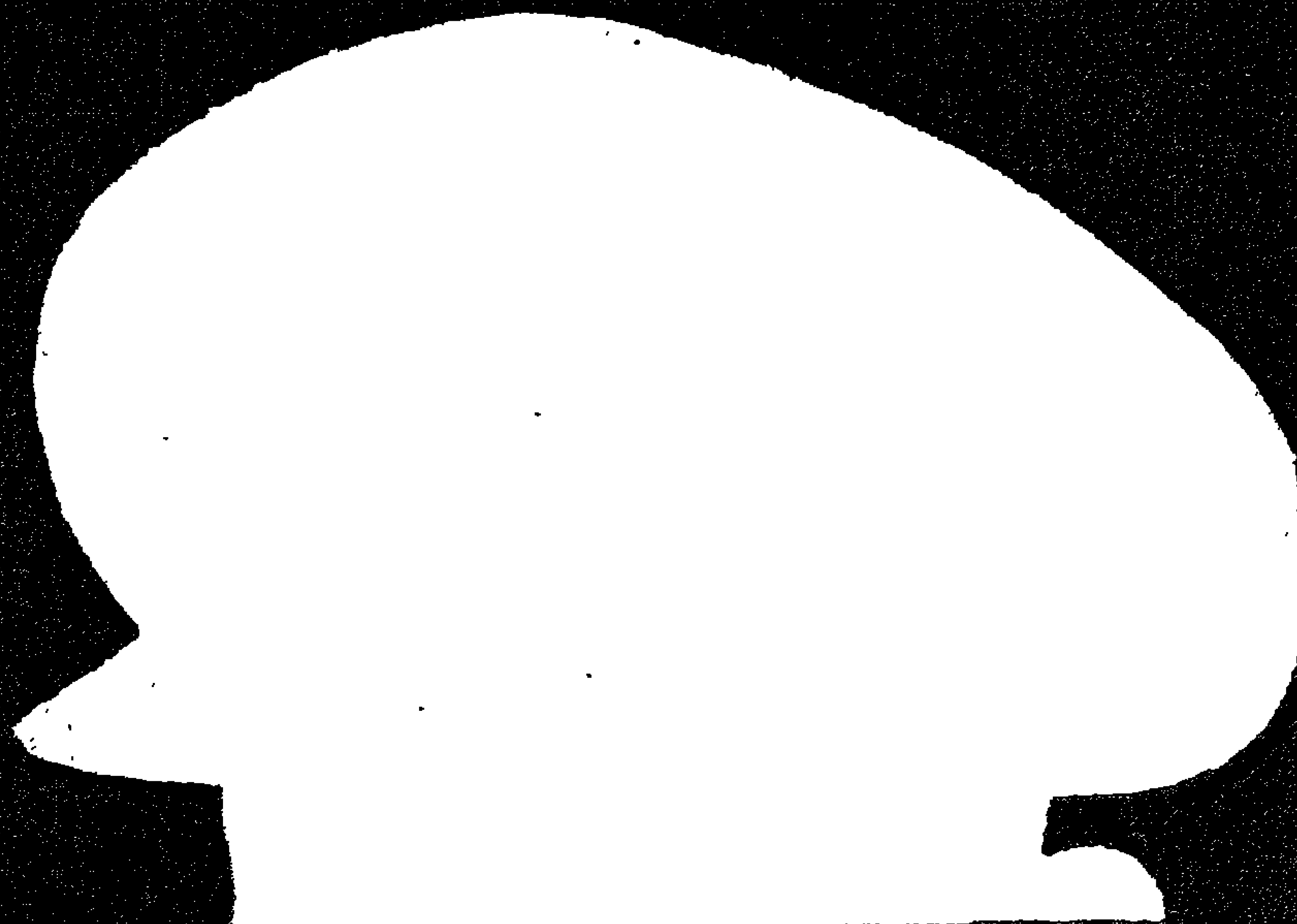
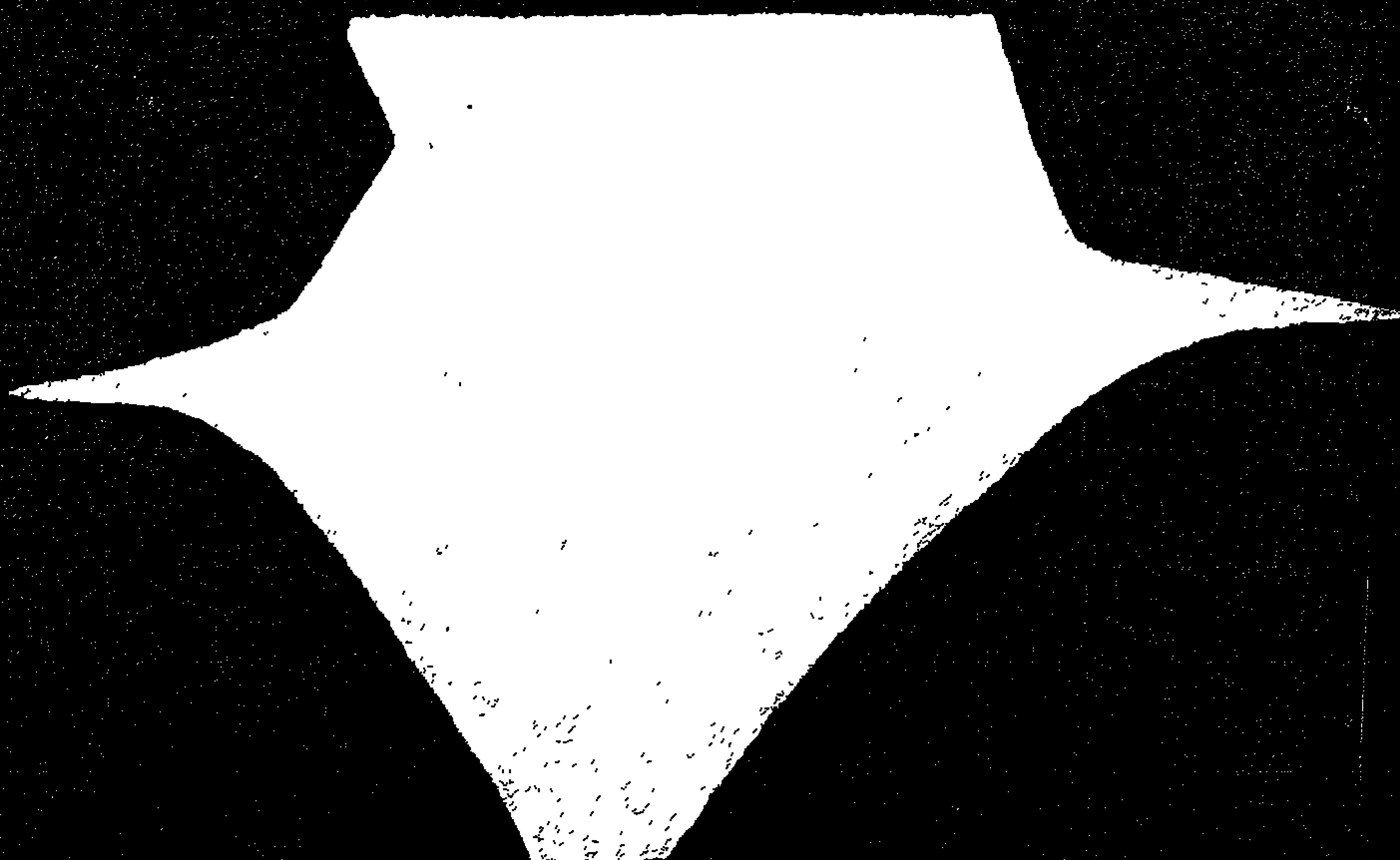




إهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/القطب محمد القطب طبلية

القاهرة

تحت ظلال العدو

تأليف

ا. ج. أدلمان



SOUS LE MASQUE ENNEMI

by:

E. G. EDLMAN



١٩٦٤

المــؤلف

أ . ج ادلمـان

ولد فى فلورنسا Florence فى سنة ١٨٩٣ وقام بدراساته فى انجلترا ، وهو يتحدث الانجليزية والايطالية والألمانية بطلاقة . وفى خلال الحرب العالمية الأولى اشتغل فى الحملة بفرنسا وأصيب بالغازات السامة فى سنة ١٩١٧ ثم أعيد الى الجيش العامل فى سنة ١٩٣٩ ..

كانت المخابرات البريطانية ولا شك أفضل خدمة للتجسس خلال الحرب وهذا باعتراف كبار القادة العسكريين وقتها علنا ، واذا كانت المخابرات الألمانية تتصف بقوة التأثير والنشاط الا أنها متعجلة وظالمة ، أما المخابرات الايطالية فهى مرتشية وغير جديرة بالثقة .

والمؤلف فى هذا الكتاب يبين هذه الاعتبارات ويركز على تجربته الشخصية التى اكتسبها خلال اقامته فى ألمانيا وايطاليا بوصفه ضابط مخابرات بريطانية . وهو لا يسرد علينا قصصا مثيرة فحسب بل ويضيف عليها كذلك قدرا من التفصيلات غير المعروفة عن هذه « المهنة » التى يعرفها جيدا . وفى رأيه أن عدم التجربة وسوء الحظ هما المسئولان عن معظم الخسائر ..

ويرمى الكتاب الى تبيان أن نجاح عمليات التجسس تقوم على تجاوب مثمر وتعاون بين التجربة والحظ والثقة فى النفس .

وكم من مرة تحولت فيها الهزيمة الى نصر بفضل معرفة الأحداث المريبة وتقوية الحاسة السادسة . واذا كان نجاح أية عملية يستلزم اعداد خطط محددة فان الباقى يكون بين يدى العميل ويتوقف على طباعه الشخصية .

وكون المؤلف لا يزال على قيد الحياة يثبت بالدليل الساطع الطريقة التى عرف هو نفسه كيف يستغل بها التجربة والحظ .

مقـــــدمة

أنا لا أذكر أية مبررات لقـاء تسطير هذا الـكتاب بل فى نظرى أننى أنا الذى ينبغى أن ألقى هذه المبررات على عاتق أولئـك الذين أحاطوا بى وما زالوا يلحون حتى توصلوا الى أن حصلوا على موافقتى وأنا الذى كنت أحجم مرارا عنالكتابة ولا أبغى شيئا سوى العيش فى سلام ..

والشىء الوحيد الذى قد يغفر لى هو قيـامى بسرد بضع تجارب عشتها أو عاشتها نفسىخلال المنهاج الذى رسمه القدر فى حياتى العسكرية وشبه العسكرية التى استغرقت حربين عالميتين . وكان أن ثابت نفسى الى الاقتناع بأنه أولى بها أن تكتب من أن تؤخذ بجريرة عصيان واجبات المواطن الصـالح ورضـيت مع شىء من الأسف أن أسعى الى تصـوير بعض المراحل التى قد تكون لهـا أهمية فاذا أسفرت محاولتى عن اثارة الشعور بالضيق فان اللوم يقع قبل شىء علىهؤلاء الذين شاءوا أن يحرضوننى على القيام بمثل هذه المغامرة ..

وعليهم وحدهم يقع اللوم ولكن كيف يتسنى لهم التوصل الى اسكاتى ! لقد كانتعائلتى من هؤلاء الذين قاموا بتحريضى ومع ذلك فكلى أمل فى أن تقبل رغم مسئوليتها اهداء هـــذا الكتاب ..

ولقد قمت عن عمد ولأسباب واضحة بتغيير أسماء بعض الشخصيات ولكن الوقائع فى غاية الصحة ..

الباب الأول

كانت أهم ما تتميز به فترة دراساتى ، الرغبة الجامحة فى تعلم اللغات الحية وخاصة اللغة الألمانية ٠

وكانت هذه الرغبة هى سبب ما وقع بعد ذلك ٠

وبلغت معرفتى باللغة الألمانية فى غضون السنة الأخيرة من دراستى القوة التى دعت أستاذى × House masetr وهو ضليع فى اللغة أن يعرض على فى رقة درسا اضافيا كل يوم فيوجه اهتمامى الى دراسة المؤلفين الألمان كما يجعل تركيزى منصبا على المحادثة والمناقشة فى هذه اللغة ٠

وكان هذا الأستاذ ـ وأقولها عرضا ـ هو الوحيد الذى قابلته ويتكلم الفرنسية والألمانية بنفس الطلاقة التى يتحدث بها الانجليزية لغة بلاده . ولما كانت عندى موهبة التقليد فسرعان ما اكتسبت لهجة تجعلنى كأحد أبناء ألمانيا ولو فى خضم الحياة الجارية على الاقل ولذا ما كان أسهل على من مواصلة هذه الدراسة خلال السنوات الثلاث التى انقضت قبل حرب سنة ١٩١٤ ..

وفى هذه الاثناء كنت فى فترة تمرين لدى احد البيوتات المالية فى لندن وكانت تتعامل مع الهند وكنت أتوقع نقلى الى هذا البلد وكان مقدار أجرى هو مبلغ تسعين جنيها استرلينيا وربما كانت هذه السنوات الثلاث التى قضيتها فى العمل شاقة مضنية لو لم أنتهز بعد ظهر كل يوم سبت لالعب لعبة الراجبى Rugby لصالح نادى ريشموند Richmond وبرحمة من السماء جاءت الحرب لتنتشلنى من الحى المالى فى لندن وبعد تخبط ذات اليمين وذات الشمال نجحت فى أن التحق بالوحدة العسكرية Artists Rifles وهى وحدة ذات تدريب وتكوين شاق أقمت بها ستة أشهر ثم عينت بعدها ضابطا فى آلاى لينكولن شاير Lincolnshire «Lincolnshire Regiment»

× أستاذ مكلف بادارة أحد البيوت الملحقة بالمدرسة العامة حيث يسكن التلاميذ ٠

وفى سنة ١٩١٥ عينت لكى أنضم فى أول كتيبة وكانت وقتها فى مصر على شواطىء قنال السويس وما أن وصلت الى مكان الكتيبة حتى صدر الامر بارسالها الى فرنسا حيث كان عليها أن ترابط فى قمة فيمى

وصادفتنا هناك ظروف عصيبة فلم يكف المطر والثلج عن الانهمار . وكان الالمان قد تخلوا عن القطاع بعد أن بثوا الألغام بحيث بلغت الخسائر رقما مرتفعا باطراد ومضى شهران ويالهما من شهرين !

وفى نهاية مارس تقريبا فى سنة ١٩١٦ انتقلنا الى قطاع يبعد أكثر شمالا ويوجد به على الأقل بضع مسالك تتيح التجول فى وضح النهار بين الجبهة والخطوط الخلفية رغم ما يتفرق فيها من جثث الفرنسيين وللالمان فيذهب عنها كثير من الروعة والجمال ٠

وذات صباح مشرق ظهر فى مخبئنا بالخطوط الامامية اثنان من ضباط المدفعية برتبة لفتنانت ولقد نسيت اسميهما فلنطلق على أحدهما اسم جرين Green والآخر براون Brown وكنا قد أوشكنا على الانتهاء من تناول طعام ليس بالدسم عندما تقدم الينا الصاحبان ولم نجد فى أنفسنا ما يساعدنا على تحيتهما بحرارة وهذا على خلاف حالهما اذ كانا فى غاية المرح والغبطة وكانت القيادة العامة للواء المدفعية Q. G. de la brigade قد أرسلتهما للكشف عن موقع خنادقنا فى الخط الاولى وحظى هذا الاجراء من جانب اللواء تقديرنا لان رجال مدفعيتنا كانوا يلقون على هذه الخطوط الامامية منذ عدة أسابيع القنابل القليلة المتبقية فى أيديهم وكان لابد من تصحيح هذا الوضع فى أقل وقت ممكن ولهذا رحبنا بالاثنين وأعطيناهما القهوة الساخنة وهى من تراث الفرنسيين الذين حللنا مكانهم . وأخذناهما فى جولة لنريهما المواقع ٠ ومكث الاثنان معنا ثلاثة أيام يقتسمان طعامنا ويشاركاننا المأوى ويبعثان فى نفوسنا الكثير من الاغتباط ٠

وكان يبدو أنه لم يمض وقت طويل على عودتهما من أجازة بتصريح فقد ذكرا أنهما ترددا كثيرا على وست اند West End وعن أفضل المناظر التى يمكن مشاهدتها فى هذا المكان (على افتراض أننا نستطيع مثلهما الحصول على تصريح بأجازة) وعن الاشياء التى يمكن تلافيها ٠

ومعرفتهما عن حانات الليل كانت من الدقة بحيث ملكت علينا أنفسنا وبعثت فينا الضحك على القصص التى أخذا يسردانها ٠

وفى هذه الاثناء كانا يقومان بتفقد كافة الخطوط الامامية وانتهيا من رسم أفضل وأدق خريطة لخطوطنا ولم تترك صغيرة وتركوا صورة لنـــا تعبيرا لتقديرهم ايانا وتركونا مع آخر زجاجة من الشمبانيـا والقـلوب مفعمة بالاسى لمفارقتهما ٠

وكان من المقرر أن يذهب ضابط كل ثلاثة أو أربعة أيام الى القيـادة العامة للواء Brigade فى مهمة تستغرق نصف يوم كان يتخلى فيها عن عيشة الخنادق التى تميت النفوس وتتيح له أن يتنسم الهواء ملء رئتيه ويمتع العين بالخضرة ويرنو ببصره الى ما هو أبعد مدى ٠

وفى هذا الصباح وكان أول يوم فى الربيع ذهبت الى الموقع الرئيسى للكتيبة مع جرين وبراون وهناك قابلنا قائد اللواء الجنرال كيمب Kemp الذى كان يقوم بجولته التفتيشية الصباحية قبل أن يعود الى قيادته العامة لتناول الطعام يسبقه ظله الذى لا يتخلى عنه لحظة وكنا نتقدم فى « الطريق الدولى » فى خطوات منتظمة عندما التفت الى الجنرال وهو يقول :

ـ قل لى يا بنى من هما هذان الضابطان اللذان يتبعانك فأنا لا أظن أننى أعرفهما فاسألهما عن أسمائهما والمكان الذى يقصدانه ٠

ـ سمعا وطاعة يا سيدى الجنرال ٠

فتمهلت فى مشيتى حتى قاربت براون وقلت له :

ـ يريد العجوز أن يعرف من أنتما والى أين تذهبان ؟

ـ قل له اننا نتبع لواء المدفعية ١٣٩ وأننا سنلحق بوحدتنا بعـد أن نتفقد الجبهة لمدة ثلاثة أيام ٠

ونقلت الرد الى الجنرال الذى قال :

ـ لقد حان وقت الافطار فقل لهما أنه يسعدنى أن ألقاهما فى القيادة العامة ٠

ووصلنا الى القيادة ودخلنا المقصف واختفى الجنرال كيمب وعاد على الفور ومعه أربعة رجال مدججين بالسلاح قاموا بالقبض على جرين وبراون

بوصفهما جاسوسين الامر الذى جعل الدهشة تعلو وجوه جميع الحاضرين : رئيس هيئة أركان الحرب وضابط الاشارة وأنا فضلا عن القسيس غير الملتزمت الذى كان يؤدى « واجباته كما ينبغى » كل يوم وهو يشرب ويسكى الجنرال ٠

وأخذ كيمب يستجوب براون وجرين فى غاية الصرامة والحدة أساءت الى مشاعرنا لاننا كنا نعتبرهما أصدقاء أرقاء وكم كانت دهشتنا بالغة عندما وجدنا أنهما لا يحاولان حتى الانكار أمام هذه التهمة غير المتوقعة ٠ ووقف جرين وقفة عسكرية بينما اكتفى براون بقوله :

ـ حسنا يا سيدى ٠

وفى غداة اليوم التالى شكل مجلس عسكرى ونفذ حكم الاعدام فى جرين وبراون رميا بالرصاص دون أن يصدر منهما أى احتجاج بل وبدون تأخير وسئلا قبل تنفيذ حكم الاعدام فيهما عما اذا كانا يريدان أن يكشفا عن أسمائهما الحقيقية وعنوانهما أو على الاقل لواءهما حتى يمكن اخطار المسئولين بمصيرهما بالطرق المحايدة فرفضا ذلك رفضا باتا وقال جرين :

ـ اننى ضابط بروسى وأريد أن أدفن كذلك وهتف براون :

× Es lebe Deutschland ! — Hoch der Kaiser

وهكذا مات رجلان فى غاية البراعة وفى غاية البسالة كذلك ٠

فكيف تسنى للجنرال كيمب أن يكشف عنهما القناع ؟ ولطالما تساءلت عن ذلك وسألته اياه ورد بقوله :

ـ شىء بسيط جدا فأنا أصر دائما على أن أعرف جميع ضباطى فى اللواء سواء المشاة أم بالمدفعية أم المطافىء ورأيت جرين وبراون ولم يكن قد سبق لى رؤيتهما قبل ذلك ثم كشفا عن أنفسهما عندما زعما أنهما يتبعان لواء المدفعية ١٣٩ لأن هذه الوحدة لسوء حظهما انتقلت منذ يومين الى مكان يبعد خمسة كيلو مترات بحيث لا يمكن تفسير تواجدهما فى هذا القطاع ٠

× عاشت المانيا ! عاش الامبراطور ! ٠

ولم نستطع أبدا أن نتوصل الى الكشف عن اسم جرين وبراون الحقيقى ولا اللواء اللذان يتبعانه وكانا يرتديان الزى العسكرى الانجليزى الحقيقى حتى فى أقل تفاصيله وربما أخذاه من ضبــاط انجليز قتلوا أو أسروا وقد عثر في جيوبهما على خطابات مصدرة من انجلترا وربما كانت واردة من أقارب أصحاب الزى العســكرى الذى يرتديانه ولا شك أنهمــا قاما بدورهما خير قيام لولا زلة من الحظ كانت فيها الهلاك ٠

وان دل هذا على شيء فانما يدل على مدى الحرص الذى يتطلبه مثــل هذا النوع من العمليات حتى يكون هناك شيء من الحظ يتيح النجــاح ٠ فكل شيء ينبغى أن يدرس أولا ٠ كما ينبغى توقع كل الاحتمالات مهمــا قلت ، وهذا هو ما يحصل اليوم من الناحية العملية أما فى تلك الحقبة من الحرب العالمية الاولى فان الوسيلة والمبادءة كانا يلعبان دورا كبيرا ٠ وهذا بديهى لأن جميع الافراد كانوا متطوعين ٠ ومن أجــل هــذا فقد الكثــر أرواحهم التى كان يمكن انقاذها لو أتيح التنظيم الذى توفر بعد ذلك فى غضون الحرب العالمية الثانية ٠

وتلك هى أولى المصادفات التى اعترضتنى وعرفت بهــا « نشــــاط الاستعلامات » وكم كان وقعها شديدا ارتجت له أرجاء نفسى ووقتها كنت فى أتم صحة وكنت أناهز الثانية والعشرين وراودتنى رغبة فى أن أتخلص من كل ألوان الضغط حتى أستطيع القيام بشيء ذى طابع شخصى وما كنت لأرضى حياة الخنادق المضنية التى تسير على وتيرة واحدة « بغض النظر عما تكتنفه من أخطار » وكان من غباء الروتين اليومى يبعث الضيق فى نفسى وغالبا ما كان عبثا وبدون مبرر غير أنه كان مقدرا على أن أتحمله طيلــة وقت طويل أو على الاقل المدة التى كان على أن أقضيها خلال تلك الفترة حيث كانت تقدر حياة الضابط المساعد فى الجبهة الغربية بثلاث أســابيع على أكثر تقدير ٠٠ اذا ساعده الحظ ٠

وفى خلال خمسة عشر شهرا قانت الكتيبة بالخدمة فى مختلف قطاعات الجبهة وساهمت فى بداية معركة لاسوم La somme فى أول يوليو سنة ١٩١٦ فى جوم كور Gomme court ثم انتقلت الى ايبر Ypres ولو Loos وآمنتبير Armentières وفى اقليم المناجم لينز Lens وفى هــذا المكان تركت الكتيبة ٠

وبعد ثلاثة أيام من الهجوم على الجانب رقم ٦٥ قرب لينز التى انتهينا بالاستيلاء عليها ثم أرسلونا الى الاحتياطى بمعدات قليلة جدا ونحن فى

غاية الانهاك • وفي نفس الليلة سقطت قنابل الغازات على لبيفان Liévin القرية التى كنا نرابط فيها وهناك تلوثت رئتاى ونقلت الى كاليه Calais ثم الى لندن حيث قضيت وقتا طويلا فى المستشفى •

ومضت أربعة أو خمسة شهور ثم قررت احدى اللجان أننى ما زلت أصلح للخدمة بشرط عدم تحملى أى عبء وأن يحدد مدى سيرى على الاقدام وكان لابد من تخصيص بعض الوظائف المستقرة كي أشغلها فبدأت أثور وأنفعل من أجل الافلات منها ودخلت عدة امتحانات لمعرفة معلوماتى العامة وفى اللغة وأخيرا قبلت المخابرات خدمتى •

وتلقيت دراساتى فى معسكر هورس جاروز Horse Guards فى ديسمبر سنة ١٩١٧ تحت توجيه كولونيل يبعث على الاستياء الكثير ولكنه ضليع في عمله وكانت كلمته المأثورة هى أننا نكون عصـــابة من الاغبياء الذين أطبق عليهم الجهل تماما • وكانت محاضرات هذا الكولونيل ترمى الى تكوين استعلامات فى الفرقة أو فى سلاح الجيش ومع ذلك فعند انتهاء التدريس سئل ستة منا ما اذا كنا نقبل فى الميعاد المعلوم أن نقوم بمهمات خاصة مع بيان أننا أحرار تماما فى قبـول ذلك أو رفضـه وأن منهاج حياتنا لن يمس فى حالة الرفض بل وذكر أحد الذين استجوبونا بأنه لو كان مكاننا لما تردد فى الرفض ولكن الذى دفعنى الى القبول هو فكرة قضاء بقية فترة الحرب فى مكاتب هيئة أركان الحرب فى نظام عسكرى صارم وأداء عمل يدعو الى الملل •

الفصل الثانى

وعند عودتى الى فرنسا التحقت بالفرقة الكنـدية الثانية ولكنى لم استقر بها البته بسبب استدعائى عى الدوام الى القيادة العامة للجيش · ولم يسألنى أحد عن سبب غيابى المتكرر ففهمت من ذلك أن الجنرال على علم بصددها ·

وفى خلال المدد التى كنت أتغيب فيها كنت منهمكا فى العمـــل الى الاذقان لانه يتعلق بتحديد لعالم وحدات الجيش الالمانى لاول وهلة ليس بالنسبة الى المشـاة فحسب بل وبالنسبة الى المـدفعيـة والمهنـــدسين والاخصائيين من كل نوع وكذلك تحديد التشكيلات التى يتبعونها وهو ما لم يكن سهلا رغم كثرة الوثائق الموجودة تحت أيدينا ·

وبديهى كان لابد من الحصول على معرفة أكثر عمقا عن كل مهمة حسب القطاع الذى تجرى فيه وكان علينا أن نعرف تاريخ وأعمال الآلايات وتاريخ اشتباكاتها المختلفة وأسماء قوادها الحاليين والسابقين بل وأسماء جميع الضباط مع أرقام السرايا أو الاقسام التى يقودونها · وكان من المحتسب معرفة بعض الصولات والجنود ابتغاء تبديد أية شكوك عند الحاجة ·

وكان علينا أن نتعلم كذلك كيف نسلك سلوك الضباط من بروسيا أى بطريقة جافة أقرب الى الوحشية وعندما نتكلم نضغط على مقاطع الكلمات وكان لذلك فوائد جمة · وكان علينا التعود على لهجات الخنادق والاحاطة بالكلمات الجديدة التى تكاد تظهر يوميا سواء من الناحيـــة المدنيـــة أم العسكرية ·

ثم كان لزاما التخلى عن الجنسية تماما والعمل بل والتفـكير بعقليـــة الرجل الالمـانى وما كان يـكفى الظهور بمظهـر الشخص المـراد التقنع بشخصيته وانما كان لا بد من تقمص الشخصية وأن تكون هذا الرجـل حقا بحيث يكون أقرباؤه هم أقاربك وأصدقاؤه هم أصـــدقاءك وترتدى ما يرتديه من ملابس وجملة القول أن تنبذ بعيدا شخصيتك الاولى لتصبح

شخصية أخرى • وبعد تدريب شديد على القيام بالدور الجديد سـئلت لآخر مرة ما اذا كنت أرغب فى التنحى عن هذا العمل والالتحاق باحدى مكاتب أركان الحرب ولكننى عقدت العزم على مواصلة العمل •

وقضيت فترة تدريب لمدة أسبوع فى وحدة من الخدمة السرية أصبحت خلالها جندى المانى من الآى المشاة الاحتياطى ١٦٣ •

وصرت أحفظ عن ظهر قلب تاريخ هذا الآلاى ولم يكن تاريخه مجيدا وصرت احفظه كما احفظ الحروف الهجائية وكنت أستطيع أن أذكر اسم كل ضابط وصف ضابط وزودونى بكافة أوراق تحقيق الشـخصية • بطاقة الجندى والمراسلات الشخصية • الخ وغيرها من الاوراق الخاصـة بجندى من الطبقة الاولى شالتز Schuitz الذى أصبح من الآن معتقلا فى أحد سجون صاحبة الجلالة • ولم يثر من جانبى أى اعتراض ازاء تغيـير شخصيتى ومع ذلك فعندما حملت على أن أرتدى ملابسه ظهرت معـالم الاستياء على وجهه لانه يبدو أن الجندى شـالتز لم يكن يحترم أبسـط قواعد الصحة وكم شـعرت باضطراب فى بشرة جلدى من جراء ذلك • ذلك أن المرء يأنف دائما أن يرتدى الملابس المتسخة التى كان يرتديهـا آخر حتى ولو لم تكن ملابس الشخص نفسه نظيفة •

ولست أرى ما يدعو الى وصف مدة التدريب التى قضيتها لانها اذا كانت ذات أهمية بالنسبة للمتخصص فهى ليست كذلك بالنسبة للقارىء العادى • فمثلا الشفرات والكودات مهما كان من براعتهـا ولزومها فهى لا تثير أى حماس ثم انى قد نسيت تماما جميع ما فعلته منهـا واذا كان الحبر السرى وغيره من الوسائل التى تستعمل فى نقل المعلومات بصـفة سرية بلغت شأوا كبيرا من البراعة وأحيانا لم يسبق لها مثيل فان قيمتها الحقيقية تقوم أساسا على سرعة النقل لان المعلومات التى تصل بعد فوات الاوان لا قيمة لها •

ومثل هذه لوسائل التى تستخدم فى نقل المعلومات قد يتبعها عملاء يقيمون على الدوام فى أرض العدو ومع ذلك فان جمع المعلومات وكتابتها بالشفرة شىء ثم توصيلها الى معسكر العميل شىء آخر اذ لابد أن تمر فى أيدى عديدة ويكفى أن تنفك حلقة فى كل هذه السلسلة بأكملهـا ما لم

يستخدمها العدو وهذا أدهى وأمر • ثم ينبغي الى جانب عامل الزمن (السرعة) ترك دور كبير لكى تلعب به الصدفة Hasard حتى يمكن اشاعة الارتياح الحقيقى •

أما فى حالتى الخاصة فقد كنت دائما أنا الذى أقوم بتوصيل رسائلى بنفسى ومن أجل هذا يتعذر على أن أستفيض فى تفسير وسائل لا أعرفها حق المعرفة •

وهكذا أصبحت الجندى شالتز من الطبقة الاولى وكنت أنتظر اللحظة المناسبة لكى أخوض فى المجهول وكنا وقتها فى فبراير سنة ١٩١٨ وكانت القيادة العامة تظن أن الالمان سوف يستقرون على رأى فى القريب العاجل وأنه يلزم جمع معلومات عن عدد وانتشار القوات المعادية •

وتحدد بالاتفاق معى قطاع نشاطى وهذا يتمشى مع المنطق كثيرا وكان القطاع يمتد من لينز Lens فى الشمال الى ضواحى أراس Arras فى الجنوب وهو اقليم أعرفه جيدا ويشمل جميع قمة فيمى Vimy وكان هذا يتفق مع المنطق كذلك بيد أن اختيار الرتبة التى كان على أن أظهر بها (جندى من الطبقة الاولى) كان خطأ لا يمكن أن يغتفر اذ كان على السلطات البريطانية أن تعلم أن الجندى البسيط فى الجيش الالمانى ليس سوى آلة متحركة يذهب حيث يراد منه أن يذهب ولا شىء غير ذلك فهو لا يملك أية حرية فى التحرك وهو سرعان ما تبينته •

ولم يكن من السهل جمع معلومات لتحديد الوحدات التى تنتمى الى مختلف الجيوش فى جبهة تمتد حوالى خمسة وعشرين كيلو مترا دون أن ألفت الانظار وخاصة اذا كان هناك ميعاد محدد لنشاطك ، وكان الافضل التستر وراء رتبة تسمح لصاحبها اذا ما نجح التمويه فى أن يصدر أوامر دون مناقشة •

والتمويه هو دائما الورقة الرابحة التى يرمى بها ضد الالمان الذين تعودوا على النظام الصارم ومعظمهم فقد ملكة الفكاهة والتقدير النسبى فلا يخطر فى بال أحدهم أبدا أن يخامره الشك فى أمر صدر من سلطة وبتحديد • وعند استغلال نقطة الضعف هذه فى العسكرية الوطنية يصبح

كل شيء سهل بعد ذلك أما الابتعاد عن هذا المسلك البروسي التقليدي سواء في القول أم الفعل فسرعان ما يثير الوساوس والشكوك التي يكاد يكون من المستحيل بعد ذلك تبديدها ٠

ذلك أن الجاسوسية المضادة الالمانية في غاية الدقة رغم خلوها من المقدرة على التصور والتخيل بينما يسير العمل فيها حسب قواعد غاية في الصرامة بحيث لا تدع ثمة مجالا للنشاط والمبادءة الفردية التي ينظر اليها بعين السخط ٠

وعلى خلاف ذلك جهازنا البريطاني الذي لا يصل الى مرتبة الدقة الالمانية ولكنه يستند على قدرة الافراد على التصور والبراعة ومع ذلك فقد أحرز الجهاز البريطاني نتائج باهرة ٠

وما كان يبدو من عدم وجود خدمات مضادة للجاسوسية في بريطانيا أوجد لدى الالمان شعور مزيف بالامن وهو بوجه عام نقص في الاحتياط وهذا أكبر الكبائر ٠ وفوق هذا وذلك يوجد الحياء وعدم الثقة في النفس لدى الالمان ثم ان الحقيقة تقبع في البيئة والوسط المحيط ولكن ليس من السهل العثور عليها بل هي تأتي بالتجربة وحدها ٠

من أجل هذا كانت طريقة ارسال عملاء الى أرض العدو وهي شائعة جدا طريقة في غاية البدائية وينظر اليها الجندي الحديث اليوم نظرة بكثير من النفور ومع ذلك لا ينبغي أن ننسى أن الطائرات كانت وقتها في عهد طفولتها عددها قليل وبالتالي ثمينة ولم يكن الهبوط بالمظلات على أية حال قد بلغ من الاهمية التي تستلزم اعتباره عملية تحتاج الى تنظيم ورقابة ٠

وعندما كان يقع الاختيار على قطاع خاص من الجبهة لكي يرسل اليه أحد العمال كانت القيادة تدبر القيام بهجوم تقوم به سرية مثلا في ليلة معينة ويتواجد العميل على أطراف العملية ليختار اللحظة المواتية التي يستطيع أن ينتهز خلالها الفوضى والارتباك ثم ينساب متوغلا في خطوط العدو الخلفية وبعدها لا يعتمد ألا على نفسه وكان كل ذلك يكلف خسارة في الارواح ولم يكن الذين يدبرون العملية يأبهون بهذه الخسارة كما وأن الذين يشتركون في العملية كانوا يجهلون السبب الذي يدفع بهم الى التضحية على هذا الوجه وهو ما يعتبر أفضل ٠ وفي تلك الايام لم تكن حياة الانسان ذات قيمة كبيرة وعندما وصلني أمر التنفيذ قادني ضابط

عظيم الى الموقع الرئيسى للكتيبة فى سيارة وقدمونى الى القائد ومساعده وقائد السرية التى ستقوم بالعملية التى سأتواجد على أطرافها وتقابلت مع هؤلاء جميعا لكى أتباحث فى آخر التفاصيل ٠

وكان الموعد المحدد لبدء الهجوم الواحدة صباحا ورحلنا الى الجبهة أنا ورفاقى أما رفاقى فلكى يشاهدوا ما يرون وأما أنا فلكى أخوض فى المجهول ٠ ولم يكن ثمة شعور بالابتهاج يراودنى اذ أن الانطباع الذى سيطر على ذهنى هو ما سأتواجد فيه من عزلة تامة ، وربما كنت أتخلى عن المهمة لولا الخوف من السخرية والانتقاد بل ولربما كنت أفعل ذلك لو لم يوضع مسرح العملية التى كانت على وشك أن تبدأ ٠

وسرت فى أعقاب الرجال الذين كانوا فى الصفوف الامامية وكنت عن يسارهم أمام المكان الذى كنا نعلم أن هناك أحد المسالك التى تتيح لى أن أبتعد بسرعة عن المعركة ولحسن الحظ لم تكن الاسلاك الشائكة كثيرة ولم يكن الحراس على قدر كبير من اليقظة بحيث تقدمت جماعة الهجوم دون ضرب المدفعية وتمكنت من احتلال الموقع المؤقت قبل أن يحاط العدو علما تماما بالغارة وهو ما كان عملا رائعا كما علمت ذلك فيما بعد ولم أمكث أى وقت لابدى اعجابى بل اندفعت فى المسلك الذى سرعان ما تركته خشية أن أصادف ما يصل من تعزيزات يبعث بها العدو وواصلت المسير على أرض مكشوفة تتخللها ثغرات على هيئة أقماع لم يكن من السهل على الانسان فيها أن يضل السبيل ٠

وكان هدفى العاجل هو بلوغ قرية روفرى Rouvroy وتقع على بعد عشرة كيلو مترات فى الخطوط الخلفية ٠ وكان هناك نهاية خط سكة حديد ينزل عندها الجنود الذين يحصلون على تراخيص بالاجازة والعائدين من المستشفيات وبعض جنود التعزيزات وكان القطار اليومى يصل عادة فى الرابعة صباحا وهو دليل على أن الالمان لا يأبهون مثلنا براحة قواتهم وكانت هذه الساعة تلائم كثيرا مآربى وهى اللحاق بهؤلاء الجنود لمحاولة معرفة آلاياتهم والجهات التى يقصدونها ٠

وجاء هذا القطار بعد نصف ساعة بالتمام من وصولى الى قرية روفرى وهى نصف ساعة قضيتها فى مستودع فحم لانه كان لابد من اخفاء تواجدى لتفادى اثارة الردود على أسئلة محرجة ٠

ونزل من القطار كثير من الجنود وتكونت خارج المحطة مجموعات من القوات العاملة المختلفة ٠ وكان الظلام تاما اللهم الا من بضع مصابيح يحملها رجال السكة الحديد وبعض الصولات بحيث سهل على أن اقترب من خلف كل مجموعة جنود أسأل رجالها عن الوحدات التى ينتمون اليها لاننى أبحث عن فصيلتى التى افتقدتها وأحاول العثور عليها وهنا استفدت بالفرق بين الجندى الالمانى والجندى البريطانى ذلك أن الجندى الالمانى يفخر بتحديد الآلاى الذى ينتمى اليه وهو يهتم بكافة الوحدات التى يتصل بها ولديه فكرة واضحة عن أمر المعركة لفرقته ويكفى أن تثير قليلا من الشك حول صحة الامر حتى يدخل الجندى الالمانى وأصدقاؤه فى مناقشة طويلة وأحيانا حامية عن الآلايات الموجودة وقواتها العاملة وتسميتها ٠٠ الخ وهذا على نقيض الجندى البريطانى الذى يعرف كتيبته حق المعرفة ولكنه يجهل أولئك الذين يتكون منهم اللواء الذى تتبعه كتيبته وهو أجهل من ذلك بالوحدات المجاورة على خط الجبهة ٠

وعندما تحققت من شخصية اثنى عشر وحدة مختلفة على الاقل ووجهتها المقصودة ، لم يبق أمامى سوى أن أقتفىأثر مجموعة منالمجموعات وأنتظر الاحداث ٠

وثمة اختلاف آخر بين الاساليب العسكرية البريطانية ومثيلتها الالمانية فالجندى البريطانى عندما يعود الى وحدته يقدم نفسه الى مكتب الانتقال Bureau de l'étape الذى يرشده الى السبيل الذى يسلكه وكيفية ذلك ثم يترك كل شىء الى الجندى الذى يتجه وحده حسب ما يفهمه من البيانات التى غالبا ما تكون خاطئة وبذلك يستطيع الجندى المذكور أن يقضى وهو مطمئن بضعة أيام سعيدة يتجول من مكان الى آخر وهو على جهل تام أو مقصود بالمكان الذى ترابط فيه وحدته وعندما يصل اليها فان تأخيره هو ومن شابهه من زملائه ينسب الى المعلومات الخاطئة التى زوده بها المكتب وليس الامر كذلك لدى الالمان ٠

فمنذ اللحظة التى غادرنا فيها المحطة مكثنا تحت المراقبة الى أن حان وقت الانتقال الى معسكر الانتقال وكان يقع على بعد ثلاثة كيلو مترات وهناك أخذت أسماؤنا وأعطينا وجبة صغيرة تتكون من : عيش اسود ونزع من المربى وقهوة شنيعة ثم اختير كل جماعة منا حسب موقع آلاياتنا ٠

وفحصت بطاقتى التى تثبت أننى جندىوكذلك الترخيص ثم وضعونى أنا وعشرين آخرين فى احدى سيارات اللورى التى كان من المقرر أن ترحل فى المساء لتوزيعنا بين مختلف مواقع القيادة • وكان الآلاى المزعوم الذى أنتمى اليه هو الخامس فى القائمة ونظرا لمعرفتى التامة بالاقليم فكان من السهل على أن أكون فكرة واضحة عن القطاعات التى ترابط فيها هذه الآلايات حسب نظام المعركة فى ذلك الوقت •

ومن خلال الاحاديث والاسئلة الحريصة فى خلال الرحلة تمكنت من تقدير القوات العاملة • وكان الجميع على علم بأن الهجوم القادم وشيك الوقوع ولكننى لم أصل الى أية دلائل تشير الى أن هذا الهجوم سيحصل فى هذا الجزء من الجبهة ، وفى الواقع كان الجنود الالمان يسعدهم ألا يخوضوا المعركة ولم يكونوا يكترثون بأن يعبروا عن مشاعرهم عاليا •

كذلك لم يكن ثمة تشابه بين الالمان وبيننا فى الخطوط الخلفية فكانت القطارات تسير كالعادة ولم تنشأ مستشفيات اضافية ولم تزد عدد البطاريات ومستودعات الذخيرة • وكانت كافة القرائن تدل على أنالقطاع هادىء وسيظل كذلك • وبديهى أن هذه المعلومات كنت أستقيها من الجنود البسطاء ولكنهم كانوا ذوى ملاحظة دقيقة ويهتمون كثيرا بالحالة وما كان يمكن أن يغيب عنهم ما يجرى خلالها من تحركات غير عادية أو حشود • وكان الهجوم الكبير من المقرر كما نعرف أن يحصل بعد خمسة عشر يوما على أكثر تقدير واستطعت أن أستخلص أنه لن يحصل فى هذا المكان وسمعت من جهة أخرى تلميحا متسترا عن اختراق Durchbruch فى الجنوب رغم أن أحدا لا يعرف بالضبط أين سيكون •

ونزلت عندما جاء دورى مع ثلاثة جنود آخرين ولكن لم يكن لدى أية نية بتاتا على أن أقدم نفسى الى الآلاى ١٦٣ وهو آلاى احتياطى وتركت أصحابى يواصلون السير واتجهت أنا نحو الجنوب لأتعرف على الوحدات الموجودة هناك وهذا قادنى الى زيارة مواقع رئيسية مختلفة للكتائب أو الآلايات بحجة السؤال عن الطريق وفى كل مكان كنت أصادف تجهما ظاهرا وتعليقات قاسية على كرامتى بسبب غباوتى • وكان أى صول يتعطف بالرد على يصرح برأيه الذى لا يمتدح فيه اطلاقا أخلاق أمى ويؤكد حالفا أننى لن أجد مستقبلا وفى الحقيقة بدأت الشكوك تراودنى بصدد هذا المستقبل !

ومع ذلك فبعد سيل الاهانات كانت تعطى الى معلومات للعثور على الآلاى الذى اتبعه (فى الشمال) وبعد أن أزجى الشكر فى ذلة أواصل طريقى الى الجنوب · وقد توصلت بقية الليل وفى نهار اليوم التالى الى التعرف على الوحدات الاخرى فى القطاع الذى كلفت بتفقده والذى كان يتواجد فيه عدد كبير من القوات المساعدة رغم عدم تمكنى من تحديد قواتها العاملة بسبب قلة رتبتى لان المعلومات التى يحصل عليها جندى بسيط لا بد أن تكون محدودة وقد فحصت أوراقى فى مناسبات عديدة ولكن كل شىء مر بسلام وكانت صورة خطيبة الجندى شالتز تثير التعليقات بطريقة آلية تارة فيها تقريظ وثناء وتارة فاحشة ولكنها أبعدت الانظار عنى ·

وعندما وصلت الى أقصى الجنوب فى قطاعى راودتنى فكرة الصعود ثانية الى الشمال فى طريق يوازى طريقى أول مرة ولكن أقرب الى المؤخرة بحيث أستطيع استكشاف مواقع بطاريات المدفعية ومحاولة الكشف عن وصول قوات جديدة ولم يكن الامر سهلا فلا يوجد فى المؤخرة جنود مشاة الا مع وحدتهم وكانت وحدتى فى الجبهة كما وأن رجال البوليس الحربى يرتعون كالنمل ولما كان ميعاد الترخيص الذى أحمله قد فات منذ وقت طويل فكان من الافضل أن لا أبرزه الى هؤلاء السادة والا كان يؤدى الى ارسالى فى حراسة الى الآلاى الامر الذى يجعل وصول أحد جنود الاحتياطى الى مكان الآلاى وعلى غير انتظار من الامور التى تبعث الارتياب والخطورة · وكان لا يزال معى كمية كبيرة من الاطعمة المحفوظة وكنت أحصل على المياه من القرى وعلى هذا كنت أستطيع أن أعيش بوسائلى الخاصة ·

وكان أمامى يوم ونصف لكى أصل الى القطاع المنشود واختيار مكان مناسب انطلق منه الى خطوطنا البريطانية ولكن فى نفس المساء عندما دخلت احدى الكفور أحسست بقشعريرة عندما قرأت اعلانا ملصقا بأحد جدران المنازل يعطى وصفا دقيقا لجندى يدعى شالتز يتبع آلاى المشاة ١٦٣ والمظنون أنه هارب من الجندية ومطلوب القبض عليه بمجرد مقابلته ومن المرجح أن معسكر الانتقال بعث بقائمة تحتوى على أسماء الذين أرسلهم الى مختلف الوحدات وأن الاسماء التى بعث بها الى الآلاى ١٦٣ تضم اسم جندى ممتاز !

من أجل هذا كان على أن أغير خططى رأسا على عقب لانه كان يستحيل أن أسير وعلى كتفى شارة الآلاى ١٦٣ 163 R. I. R والا تعرضت لافدح

الاخطار فكان على ألا أتحرك الا في جنح الظلام وأن أتخفى فى وضح النهار وكان الليل لحسن الحظ طويلا وجاء الطقس نفس يساعدنى ولو أن الرذاذ كان شديدا ٠

وسرت فى بطء بقية الليل حتى تنفس الفجر ووجدت نفسى على مسافة حوالى ستة كيلو مترات خلف الجبهة التى يحتلها الآلاى ١٦٣ حسب تقديرى ٠ وقبعت وراء أكمة من الاشجار خلال تسع ساعات لم ينقطع فيها المطر طيلة النهار وفى الظلام أخذت فى المسير بحرص لانه لم تكن لدى أية نية فى أن يقبض على عند آخر عقبة وكان أمامى ليل طويل ٠

ولحسن الحظ ساء الطقس مرة أخرى فهطل المطر مدرارا بحيث ضاعت الرؤية وانخمدت الضوضاء ٠ وحوالى منتصف الليل كنت وراء خندق الخط الاول وكان كله مغطى بالوحل ومشبع بالمياه وغالبا ما أويت الى حفرات مليئة بالمياه وعلى ضوء المصابيح الكاشفة لمحت مكانا تقل فيه كثافة الاسلاك الشائكة كما استطعت تحديد مواقع القناصة وكانت المسافة بين كل موقع وآخر أربعين مترا الى اليمين والى اليسار ولابد أن الآلاى ١٦٣ كان يفتقد الى الرجال لوجود مثل هذا العدد الصغير من مواقع القناصة وخاصة بعد شن العملية المباغتة أخيرا للحصول على معلومات ٠

وفى مثل هذا الوقت كان من السهل القفز من فوق الحاجز الذى كان يحتمى خلفه الجنود عند اطلاق النار والانتقال الى المعسكر الآخر دون اثارة أى انتباه ثم الزحف خلال الاسلاك الشائكة حينما تأتى الفترات التى تفصل ما بين تسليط أنوار الكاشفات وهكذا اجتزت المائة متر التى تفصل ما بين الخطوط وعندما وصلت الى شبكتنا وجهت نداء فى حرص ولكن بلغ الغباء بأحد حراسنا درجة جعلته يطلق على الرصاصة التى جعلتنى أوجه اليه سبابا وشتائم لا تتفق مع حسن تربيتى غير أنها بعثت الاطمئنان فى قلب الرجل وتمكنت من الوصول الى خطوطنا دون عائق فى ذات الوقت الذى أثار فيه حضورى الكثير من الاستفهام وحب الاستطلاع وكان من حسن الطالع ما علمه أحد الضباط المساعدين قبل ذلك عن احتمال مجيئى ولهذا قادنى الى الموقع الرئيسى للكتيبة واستقبلنى القائد وأركان حربه بكثير من الترحاب مما أثار استغراب خدم الميز وغيرهم لم يتوقعوا أن يروا قائدهم يخاطب سجين ألمانى بـ « يا صديقى العجوز ! » وأكدت له أن لا يخشى شن الهجوم على جبهته وهو ما زاد فى انبساط أساريره واتصل تليفونيا بالقيادة العامة للفرقة لكى يخطرها بحضورى

وفي خلال فترة انتظارى السيارة التى كانت ستقلنى الى القيادة أخـذت ورقة أدون فيها المعلومات التى كنت أحتفظ بها حتى الآن فى ذاكرتى ٠

وبعد ساعتين كنت فى وحدتى الخـاصة أنزع عنى الزى العسـكرى الالمانى وأستحم ثم ارتديت ملابسى الخـاصة واستعدت شخصيتى وكان قائدى كما يبدو يشعر بارتياح كبير لما كان يسميه عملية كللت بالنجاح وسارع بنقل المعلومات التى أوردتها الى ذوى الشأن ولكن للأسف صرف صاحب الشأن النظر عن معظم هذه المعلومات مثل غيرها الواردة من مصادر مختلفة بحيث كان الجزاء الوحيد الذى لم تتخذ فيه احتياطات كافية عندما بدأ الهجوم الألمانى فى ٢١ مارس كان هو الجزء الذى اختارته قيادة العدو من الجبهة ٠

ولم أتردد أنا شخصيا عن الافصاح بما أعتقده وذلك أننى لن أقبل بعد الآن أن أرحل ثانية تحت ستار الشخص الذى يجب عليه أن يطيع أوامر ونزوات الصولات وصف الضباط لان حريتى فى الانتقال والحركة لا تتحدد فحسب بل أضيع وقتا كبيرا فى اعطاء ايضاحات واطاعة كافة الاوامر التى تفرض على جندى بسيط وما كان أسرع من الحصـــول على نتائج أفضل لو كنت أعمل فى ظل رتبة تتيح لى طلب معلومات بوصفهـا حق لى وعلانية دون الاكتراث بالصولات وصف الضباط والبوليس ٠

وكان اعتقادى يرتكز على حادث وقع لى خلال اقامتى فى مكان أرنست رايفلز Artists Rifles حيث نجح التمويه Bluff فيمـا كانت تخفق فيه وسائل أخرى أقل جسارة ففى ذلك الحين كان من المعتـاد أن يجد الرجل العسكرى نفسه وقد كلف فى مساء يوم شاق قضى نهاره فى تعب وجهد بأن يقوم بأحد أعمال السخرة التى لا تعفى صاحبها من أن يصحو مبكرا ليباشر التكاليف البدنية منذ السادسة صباحا فكان لابد من أن يتفتق ذهن الرجل العسكرى وقتها عن حيلة يفلت بها من هذه الاعمال وفعلا أخذت أفكر فى هذه المشكلة ٠

ولما كان لابد من أعمال السخرة الحتمية فان الافضل أن يختـار المرء بنفسه واحدة منها لا يترتب عليها أى اجهاد معنوى أو بدنى فشاورت أحد الرفاق من ذوى قرابتى والمشهود لهم بالفراسة فى التفكير ووضعنا الخطة التى علقنا عليها الامل فى أن نصبح بفضلها سادة مصيرنا ٠٠ والسخرة وبديهى كان علينا أن نعمل أمام أعين الناس لان الاستخفـاء أو الانزواء سوف يترتب عليه تحريات وتوقيع جزاءات غير مرغوب فيها ٠

وذات صباح باكر ذى غسق أخطرنا قائد شرذمتنا أن ليس عليه أن يعتمد علينا طيلة بضع من الوقت فيما يخصصه من أعمال السخرة لان علينا أن نقوم ببعضها فى جوار حى الضباط ولم نجد اعتراضا على قولنا وأصبح الطريق أمامنا خاليا وذهبنا نجر عربة صغيرة وفى يد كل منا معول الى الموقع الرئيسى للكتيبة حيث كان على امتداد الموقع جدار يوشك أن ينهار وأخذنا نعمل فيه على طريقة العامل الانجليزى حينما يبدأ يوم عمله وكان موقع الجدار لحسن حظنا يقع قريبا من المقصف الذى كنا نرتاده بين آونة وأخرى فى لحظات نستعيد خلالها قوانا بما نأكله وبكل عناية أخذنا فى هدم الجدار ثم أعدنا بناءه بطريقة مخالفة قليلا وهكذا عدة مرات ولكن نجاحنا نفسه كان فيه خسارنا لان بعض الزملاء من ذوى البصيرة الى تتفق قليلا مع الروح العسكرية فطنوا الى خطتنا وانضموا الينا بوصفهم البنائين الذين يضعون الطوب وترتب على غيابهم عن أعمالهم الاصلية واشتراكهم معنا قيام السرية باجراء تحقيق ٠

وعوقب زميلى الذى وضع الخطة ووقعت جزاءات مناسبة ولكن كان هذا الحادث أبلغ دليل على أن الوسائل العلنية المكشوفة تثير شكوكا أقل وأدنى من الطرق المتخفية اللولبية ٠

الباب الثالث

وتقرر أن تكون منطقة نشاطى فى اقليم الجبهة وليس فى المؤخرة وذلك بسبب معرفتى بالارض وبسبب حفظى لتاريخ كثير من آلايات العدو فى الخط ٠

ورؤى أنه من الافضل أن أظل فى الاحتياطى الى أن يحين موعد تحديد القطاع الذى يشن فيه هجومنا المضاد وعندئذ يكون تركيز نشاطى على أن أقوم بدراسة تفصيلية لمختلف الوحدات التى تواجها ٠

وليس من السهل أن أستعيد الآن فى ذاكرتى :

الآلايات ٠

وتفصيلات هذه الآلايات وتشكيلاتها ٠

وأسماء الضباط والصولات وتحركاتها منذ سنة ١٩١٤ وروحها المعنوية وآلاف التفصيلات ومع ذلك استوعبت فى منتصف يوليو سنة ١٩١٨ المعلومات المتوفرة بقدر المستطاع والتى اتضح صحتها بدرجة كبيرة ٠

وكان على أن أعمل فى القطاع الذى يمتد من فيلليه بريتونو Villers Bretonneux شرق أميان d'Amiens حتى مسافة ثمانية كيلومترات فى الجنوب لاكتشاف موقع المدافع الرشاشة والمورتر فى الخنادق ومراكز المقاومة وبالطبع اظهار معالم الفوات والتعرف علىمكان الموقع الرئيسىالخ .

وكان يبدو لى أن رتبة الكابتن « النقيب » فى سلاح المهندسين هى أفضل ما يلائم تلك المهمة نظرا لان سلاح المهندسين كان يكلف عادة بتحصينات مواقع الجبهة بوجه عام ولما كان سلاح المهندسين يتبع الفرقة مباشرة فان ظهور أى ضابط من ضباط السلاح فى أية نقطة من جبهة الفرقة لم يكن ليثير الشبهات لانه لا يعمل مع سلاح المشاة والصعوبة

الوحيدة هي أن المهمة كان لابد من اجرائها سريعا في خلال يومين على أكثر تقدير وبحيث لا يتفق اجراؤها مع تواجد ضباط حقيقيين من سلاح المهندسين والا فان ظهور مجهول خلال مدة طويلة يؤدى فورا الى عمل تحريات ٠

وبالطبع كنت مزودا بالاوراق الشخصية والزى العسكرى والبطاقات وزودتني قيادتنا بوثيقة كي أستخدمها في حالة الاستعجال وهي عبارة عن أمر موقع عليه من قائد السلاح الالماني يصرح فيه للكابتن Hauptmann Von Mertens بالذهاب الى أى مكان في الجبهة وكان من المرغوب فيه ألا ألجأ الى استخدام هذه الوثيقة لانه لم يكن من المعتاد استعمالها دائما ٠

وفي هذه المرة لم تدبر أية عملية لكي اجتاز من ورائها الخطوط كما حدث في المرات السابقة لان ذلك كان سيؤدى كما ساد الظن الى اجتذاب نفر من ضباط الموقع الرئيسي للكتيبة التي يقع عليها الهجوم ولما كان ميدان عملي في ضواحي الجبهة فان تواجدهم كان يكون أن يكون مربكا لي للغاية ولا شك أنه كان سيعوق زياراتي الى مختلف قواد السرية الذين كنت أزمع أن أتحدث معهم عن مواقعهم الدفاعية ٠

وكان الطقس جميلا جافا بحيث ظل الزى العسكرى الذى أرتديه سليما خلال اجتيازى منطقة الحرام ولم تكن الاسلاك الشائكة كثيفة جدا ولم يبد الحراس يقظة تامة وفي ٢٥ يوليو في حوالى الساعة الثانية صباحا كنت في أرض العدو وتقدمت بكل ثبات علنا على امتداد أحد الخنادق وعندما أوقفني حارس طلبت منه أن ينادي قائد فصيلته الذى تأخر قليلا فأخذت أوجه اليه التأنيب العنيف فقادني الى قائد السرية وكان كثير القلق وعصبيا ولابد أنه لم يكن من أرباب الحياة العسكرية وبدأت بتقريعه ولومه على تهاون حراسه وعن عدم وجود صولات في الخندق وأين يتواجد ضباطه وهكذا على الطريقة البروسية التقليدية وقلت :

ـ ولكن هذه مسائل سوف أنظرها فيما بعد ٠

ولم أدع له فرصة تقديم اعتذارات ٠

وواصلت كلامي بأنه يتوفر العدد الكافي من الضباط الاخصائيين الذين يستطيعون تولى قيادة سرية وعندما جعلته في حالة من *الروح* المعنوية

فى غاية من التدهور بحيث أستطيع بها أن أملى عليه ما أريد طلبت منـه خريطة القطاع الذى يعمل فيه والتى تبين موقع كل رشاش وكل مدفع مورتر وقارنت خريطته بخريطتى وأفصحت له عن عزمى بالقيـام فورا بفقد تمام المواقع وكل كان يسعده أن يرافقنى ليثبت لى حسن نيته وبعد ساعة تركته بعد أن وجهت اليه الانتقادات التى تصدر من أخصائى ٠ وكانت النقطة الرئيسية هى بالطبـع ليس الـكشف عن مواقع المدافع المتراليوز والمورتر التى تعمل والتى كنا نعرفها بمنتهى الدقة ولكن تلك التى لم تبدأ فى الضرب والتى كانت مخبأة لنا حتى تباغتنا فى حالة هجوم من جانبنا ٠ وكان يوجد منها الكثير وكانت معرفة مواقعها يساعدنا كثيرا على تدميرها قبل تشغيلها فى ٨ أغسطس وهو « يوم أسـود فى تاريخ الجيش الالمانى » كما قال لوندرف Ludendorff

ورأيت أنه من الانسانية أن أظهر شيئـا من المجـاملة ازاء هـذا اللفتنانت الباسل الذى قد أكون فى حـاجة اليـه مرة أخرى فامتدحت الاجراءات التى اتخذها وقلت له أن ينسى ما وجهت اليه من تقريع ولوم قبل ذلك فبلغ به الارتياح مبلغا دعاه الى أن يطلب منى أن أشاركه قدحا من الجعة فى مخبأه وهو ما قبلته بعد قليل من التردد ومع ذلك فقد كانت فرصة تمكنت من استغلالها جيدا لاننى طلبت منه بعد شرب الـكأس أن يذهب معى الى أقرب رئيس سرية وهذا ينبت « شرعيتى » أمامه وهنـاك تمت المقابلات كسابقتها وأحضروا لى الخريطة وبذا تحققت أشد رغباتى فى مقارنتها بخريطتى ثم تفقدت المواقع وذهبت الى ساحة القتال المجاورة وكانت مهمة رائعة أتممتها دون اضاعة أى وقت ٠

ووضع لى الغداء حسب التعليمات وكم كان أسهل على من احتسـاء القهوة وفى منتصف وقت الاصيل اضطررت الى ايقاف عملياتى بسبب حضور ضباط حقيقيين من الكتيبة بل ومن الآلاى لكى يقوموا بأعمـال التفتيش الروتينية ٠

واستأنفت عملى وكان على أن أثق فى صحة ما أعطيتـه من معلومات بصدد « الاسلحة الساكتة » لانه كان محرما الاقتراب منها خلال النهـار وأية محاولة من هذا القبيل تصدر من جانبى كانت ستؤدى ولا شك الى اثارة شبهات جسيمة فلم أستطع أن أعاود أعمال التفتيش العادية الا بعد ٢٢ ساعة ووجبة دسمة دعانى اليها أحد قواد السرية وهنا استطعت أن أدخل فى روع الضباط الثلاثة آخر أنباء عن ألمانيا التى عدت منها أخيرا

بتصريح وأن أذكر لهم ما يدور من شائعات فى كل مكان عن قرب السلام مما أشاع كثيرا من الارتياح فى نفوسهم وعندما أخطرتهم بأن لى قريبا فى Kriegsministerium وزارة الحربية الالمانية أنبأني أنهم ربما يقضوا عطلة عيد الميلاد فى بيوتهم زادت محبتى عندهم بدرجة لا يمكن تصورها · وكان من الواضح أنهم قد سئموا الحرب ولم يستطيعوا أن يفصحوا عما يدور بخوالجهم الا النظام وخشية العواقب · وفى الواقع صح تنبئى وصدق حدسى رغم أنى لم أطلقها الا بقصد تدمير روحهم المعنوية عندما يتثبتون من زيفها وغالبا ما كنت أسائل نفسى عما اذا كان أحدا من هؤلاء الضباط الثلاث قد ظل على قيد الحياة بعد مذبحة ٨ أغسطس ·

وفى الليل كان العمل كثيرا وأسفر عن نتيجة باهرة وفى الفجر كانت خريطتى كاملة وأكثر من هذا فى غاية الدقة ولما كنت قد اكتشفت خلال تجوالى مخبأ لاشك أنه ليس نظيفا جدا ولكنه يحتوى على سرير من حديد فقط قضيت نصف النهار فى نوم مريح على هذا السرير وفى مستهل بعد الظهر عندما أصبحت الحالة فى غاية الهدوء أنهيت مسعاى تماما وكنت على استعداد لان أعود من حيث أتيت ·

وما كنت أحسب أن العملية ستجرى فى مثل هذه السهولة فلم أصادف ولو مرة واحدة ضابط برتبة عظيمة ولا حتى ضابط من رتبتى وبسبب رتبتى كنت أقابل بالترحاب فى كل مكان أحل فيه وحصلت على كل ما أريده من معلومات مع أكبر قدر من المجاملة التى كنت ألقاها من كافة الذين تبادلت معهم أحاديث وما كان يمكن لجندى بسيط أن يجمع مثل هذه المعلومات فى خلال ستة أشهر بل ولربما لم يتوصل اليها ·

وما كان يمكن استخدام مثل هذه العملية مع البريطانيين لان أحدا من قواد السرايا لا يملك خريطة فى مثل التفصيل الذى كان موجدا مع خرائط قواد السرايا الالمان (بل وما كان يمكن أبدا أن يصرح لقائد السرية البريطانية بأن يحمل معه الى الجبهة مثل هذه الخريطة) · ولم يكن قائد السرية البريطانية ليتحمل مسئولية أن يحدد بدقة مواقع المترااليوز والمورتر وحتى اذا سؤل فانه يحيل بدوره على ضباط سلاح مدافع المتراليوز والمورتر ويتساءل مع السباب والشتائم عما يبغيه ذلك الذى يتحرى عن جمع مثل هذه التفصيلات وتمت العودة دون أن يقع أى حادث فقد ذهبت لمقابلة اللفتنانت الذى دعانى الى تناول قدح من الجعة وسألته

أن يحضر معى الى الخندق ولتفقد شبكة الاسلاك الشائكة وأخطر الحراس بأننى سأخرج وحيدا وأنه لا يجب بأية حال اطلاق النار أو الصواريخ الكاشفة وهكذا لم أجد آية مشقة فى العودة الى خطوطنا ٠

ولست أدرى كيف فسر اختفائى ولاشك أن الداوريات أخذت تقوم بالبحث عنى ولابد أن قيل عن غيابى بأن أحد الضباط يزيد عن العدد المعروف للضباط العاملين وربما كان هدا التأويل خطأ ولابد أن التحقيق الذى سيجرى سوف يكشف عن حقيقة الخطة ويؤدى الى اتجاذ احتياطات بعدم العودة الى مثل هذا الاقتحام للخطوط ٠

وذهبت على التو دون تاخير الى القيادة العامة بعد أن اتصلوا بها تليفونيا وأخطروها بحضورى وفى هذه المرة لم يغفل أى شخص التقرير الذى كتبته غداة اليوم التالى لان الخريطة كانت تتحدث عن نفسها وكان من المستحيل اغضاء الطرف عن أهميتها القصوى ٠

وفى الايام العشر التى سبقت هجوم ٨ أغسطس اتخذتاجراءات خاصة بصدد مواقع المترايوز والمورتر « الساكتة » وأخطرت المشاة بمواقعها مع أوامر صارمة جدا بعدم اطلاق أية نيران فى اتجاهها ٠

وهذه الايام العشر قضيتها وكأنى أتلوى على حجر من النيران وكنت أتساءل ترى هل أثارت طريقة عودتى فى ٢٧ الظنون والشبهاتلدىالقيادة الالمانية ؟ وهل قامت بتغيير مواقع الاسلحة ؟ نعم لقد عشت هذه الايام فى حلم مروع لان الاحداث اذا ما جاءت بما يدل على خطئى فلن تعير أركان الحرب تقاريرى عن الخدمة الخاصة أية أهمية وناهيك عما يضيع من أرواح بشرية تذهب هباء وكنت أحاول تهدئة روعى بأن أمنى نفسى بعدم استطاعة الالمان نقل جميع هذه الاسلحة خلال مدة عشر أيام وهى مدة ضئيلة ومهما يكن من شىء فان نقلها سيكون الى أماكن أقل ملاءمة عن ذى قبل ٠

ولا شك أن سلطات الاعداء لن تعرف شيئا عن قيامى بالتفتيش الا بعد عدة أيام ولن يخطر شنابس Schnaps الضابط الذى شربت معه قدحا من الجعة عن اختفائى خوفا على مستقبله ٠ وكل أولئك كان من الهواجس وقضيت أياما بأكملها قلق ٠

وفى ٨ أغسطس كنت هيئة أركان حرب الآلاى فى الفرقة الثانية الكندية فى فيلليه ـ بريتونيه قبل ساعة الصفر بثلاثين دقيقة ٠ واذا

كانت المدفعية الثقيلة لديها من الدقة مثلما لديها من الشدة لـكان من السهل على المشاة أن يتقدموا دون مشقة ولكن أحدا لم يكن يعرف مثلى الكمية الضخمة من المدافع المتراليوز التى كان عليها أن تصادفها وبلغ بى القلق درجة حملتنى على أن أذهب الى الخط الاول لأرى بدء الهجوم وأشاهد بعينى رأسى قوة المقاومة التى يصادفها وكم شعرت براحة عظيمة عندما لم أجد مقاومة اللهم الا بضع طلقات من نيران المتراليوز هنا وهناك وتقدم المشاة كما لو كانوا فى التمرينات دون أن يتكبدوا أية خسارة تقريبـــا وظلت الخسارة ضئيلة بدرجة تكاد لا تصدق وكانت كلها بسبب المدفعية وعند هبوط الليل كان الكنديون قد تقدموا خمسة عشر كيلو مترا وهو عمل عظيم وقتها وحدث نفس الشىء فى أماكن أخرى من الجبهـــة وانقلب الذين كانوا يقدحون فى تنظيمنا الى مادحين لما أحرزناه من نتائج وانى لأفخر بذلك بكل تواضع · وبذلك انتهى تسترى خلال حرب ١٤ ـ ١٩١٨ ثم قمت بعدها بالتوغل فى أرض العدو فى نهاية أكتوبر ولكن لم يكن فيها ما يهم لان الجبهة الالمانية كانت قد تصدعت ورانت الفوضى فى كل مكان وتم التوقيع على الهدنة بعد خمسة عشر يوما ثم احتللنـــا منطقة رينـــان Rhénanie وأرسلت فى المقدمة للاستيـــلاء على البنـــزين الضرورى لسياراتنا اللورى واختيار مكان نستطيع أن تستقر فيه هيئة أركان حرب فرقتنا · وعلى ذلك كنت أحد أوائل الضباط الذين دخلوا كولونيا حيث شاهدت انسحاب القوات الالمانية عنطريق قنطرةهوهتزلرHohenzollern وكانت هذه القوات تسير بغير نظام ودون ضباط وبلا أســلحة وتبــدى صورة حقيقية للجيش المنهزم ·

ووصل البريطانيون بعد ذلك بيومين فى نظام رائع يتنافى تماما مع خصومهم السابقين واذا كان قد تبقى بعض الشىء فى نفوس أهالى كولونيا عن كسب الحرب فان المنظر الذى شاهدوه يكفى لتبديد أى شك ·

وفى خلال السنوات الثلاث التى أعقبت ذلك خدمت بصفتى ضــابط استعلامات فى بون وفى كولونيا أراقب بعين فاحصة كل نشاط من شأنه الاضرار بمصالحنا وأخذت أعقد تدريجيا اتصالات شخصية أفادتنى كثيرا جدا وكان أناس يحضرون الى اما لاسباب سياسية واما للحصول على مغانم واما بوصفهم عملاء ذوى وجهين حتى يكسبوا من الطرفين ومن بين هؤلاء لم اكتشف سوى شخص كفء حقا اسمه بول Poul رئيس خدم فى محل جرسيه كروفيرست Grosser Kurfürst فى كولونيا حيث كنت أتردد عليه بانتظام وقمت بتجنيد هذا الشخص كعميل يجمع لى المعلومات واذا كنت أذكر اسمه الآن فلأنه كاد يؤدى الى هلاكى فى سنة ١٩٤٠

وفى غضون صيف سنة ١٩٢١ أعيد تنظيم خدمة استعلامات رينانى Rhénanie وحل فيها ضباط شبان محل القدامى ولم تكن لديهم أية تجربة سابقة وكان عليهم أن يتعلموا كل شيء ولم تكن المهمة أمامهم سهلة ولا شك ٠

وأرسلت الى لجنة الحلفاء للاستفتاء فى سيليسيا العليا وألحقت بقسم السكك الحديدية فى كاتوفيتش Kattovice لاقوم مع ضابط فرنسى وضابط ايطالى بتسوية المشاكل المتعلقة بالاستغناء أو الابقاء على عدة آلاف من عمال السكك الحديدية البولنديين والالمانيين ٠ وكانت التعليمات تصدر بصفة دورية والفوضى تسود فى كل مكان ٠

وتلك مهمة مثيرة ولو أنها خطيرة لان عمال السكك الحديدية لايتورعون عن استخدام العنف وكان السطو والهجمات المسلحة فى كل يوم وكانت تحاك الدسائس يوميا بين الفرنسيين والبولنديين من ناحية والايطاليين والالمان من ناحية أخرى أما البريطانيون فكانوا بعيدا عن ذلك ٠

ووسط عالم النفاق هذا فى كاتوفيتش لم أعقد صداقة قلبية مع أحد سوى أحد المديرين المحليين لبنك ألمانيا Banque d'Allemagne وكان المندوبون البريطانيون الآخرون يستقبلونه ببشاشة كذلك لانه كان يرفض قبل كل شيء وبصفة مطلقة أن يقحم نفسه فى الشئون السياسية وكان على درجة عالية من الروح المرحة ويتميز بصفة أخرى هى أنه يتحدث الانجليزية بطلاقة لا عيب فيها سوى ما يشوبها من بعض التكلف ٠ وقد خدم خلال الحرب ونال وساما فى أحد الآلايات التابعة للحرس البروسى Garde Prussienne ولكنه لم يظهر أى تعصب لهذا الاخير ٠

ومضت علينا فترة توطدت فيها معرفتنا وذكر لى فى احدى المناسبات أن أمه انجليزية ومن هنا كانت معرفته بلغتنا وميله نحونا وكم عقدنا صفقات رسمية كانت تتخذ وسيلة للغذاء أو العشاء أو لعب القمار لتمضية الوقت ٠ ولقد تزوج فريتز Fritz (وسأطلق عليه دائما هذا الاسم الذى لا يزال يحتفظ به حتى الآن) بعد قليل من نشوب الحرب ٠ وكان فريتز يتعلل بجميع الاسباب التى يستطيع بها أن يرينا صورة زوجته وابنته وكم كان يثير ذلك من فكاهات تجد فى قلبه قبولا حسنا ٠

وفى نهاية يوليو سنة ١٩٢٢ تقرر حل لجنة الاستفتاء وعدت الى الحياة المدينة فى انجلترا بعد سبع سنوات عشت خلالها لحظات مثيرة حقا ٠

الباب الرابع

وتزوجت بدورى فى سنة ١٩٢٤ ورزقت أول طفل لى فى سنة ١٩٢٦ وأتيحت لى الفرصة كى أعود الى ألمانيا من أجل قضاء بعض الشئون ·

وما أن ذهبت الى هناك حتى ثارت فى نفسى الانفعالات من جراء تجدد روح العسكرية الالمانية · وكان يبدو واضحا أن الالمان قد نسوا وتناسوا هزيمتهم تماما وأخذوا يزرعون بذور حرب الانتقام فتملكتنى الهموم والمشاغل وبلغت بى الهواجس مبلغا دفعنى الى أن أفصح عن سريرتى الى زوجتى فى الوقت الذى لم يكن ابنى قد تجاوز فيه السنة أو السنتين ·

ولم يكن يراودنى أدنى شك فى قيام الحرب ونشوب القتال ان آجلا أو عاجلا وكنت أتمنى فى أنانية أن تنشب الحرب قبل أن يصل ابنى الى السن التى يستدعى فيها لحمل السلاح · وكان رأيى أنه لا مفر من الحرب وأنها ستقع قريبا ، وأثبتت الحوادث أننى لم أنخدع كثيرا ·

فبعد التوقيع على اتفاقية ميونيخ فى سنة ١٩٤٨ أصبح الموقف يزداد وضوحا بأن الحرب ستقع فى السنة التالية · وابتداء من ديسمبر سنة ١٩٣٨ أخذ فى استدعاء ضباط خدمة الاستعلامات فى مؤتمرات أسبوعيه فى وزارة الحربية البريطانية War Office ليتقدموا الى امتحانات جديدة بصدد معرفتهم باللغات الاجنبية ويعيدوا النظر فى القواعد العامة للخدمه ولكى يوضعوا فى مختلف المناصب فى حالة نشوب الحرب رغم اخفاء طبيعة هذه المناصب حتى آخر لحظة وما كنا نريد أن نتعرض للمباغته كما حدث فى الحرب السالفة اذ أن خدمة المخابرات لم تتكون الا فى سنة ١٩١٧ .

وفى سنة ١٩٣٩ أعيد قيام التنظيم كاملا وكان التعاون بين الاسلحة الثلاث على أوفق ما يكون وأعدت كافة الترتيبات لمواجهة جميع الاحتمالات وكانت النتائج جد مختلفة · وكانت مخابراتنا تفوق فعاليتها كثيرا جميع مخابرات الجيوش المتحاربة وأشاد بها القادة العسكريون فى دول المحور بكلمات صريحة دون مواربة ·

وكانت المخابرات الالمانية ذات فعالية كذلك وأكثر وحشية وتملك وسائل غير محدودة ولكنها ظلت فى التنجيم والرجم بالغيب أكثر من اللازم "Voyante Trop" وعلى شيء من البدائية . أما عن المخابرات الايطالية فالافضل عدم التحدث عنها حيث الرشوة وعدم الجدارة بالثقة مما أسفر عن نتائج استفادت منها خصومها بصفة خاصة .

وفى ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٩ عندما كان للمرء أن يطلق النيران دون أن يخشى جزاء غادرت زوجتى وأطفالها الثلاث الذين تبلغ أعمارهم على التوالى ١٣ ، ١٠ ، ٣ سنوات انجلترا لكى يقضوا أجازتهم لدى بعض الاصدقاء فى الخارج وكان من المتوقع أن نقوم بهذه الرحلة لولا أمر البقاء الصادر الى بعدم مغادرتى البلاد وبذلك حيل بينى وبين مرافقتهم .

ولم تكن زوجتى كما أعتقد ترتاب فى أن الحرب وشيكة الوقوع لانها كانت على قدر كبير من الاحاطة والدراية بحقوق المواطن .

واندلعت الحرب بينما كانت عائلتى فى الخارج وأبرقت لها بالبقاء حيث هى الى أن تتكشف الاحداث . وفى نهاية سنة ١٩٣٩ ظل القتال على درجة متقطعة وألحت زوجتى فى أن تعود الى انجلترا . وفى يناير سنة ١٩٤٠ تمكنت من أن تنضم مع أطفالنا الى مجموعة من الرجال الذين بلغوا السن الذى يتعين فيها حمل السلاح والذين هرعوا ليخدموا بلادهم ويقاسموها السراء والضراء ولكن كان هناك فى بعض البلاد التى نجحت فى أن تظل محايدة بريطانيون جعلوا لمصالحهم الخاصة للأسف الاولوية على مصلحة الوطن ويمكن تقسيم هؤلاء البريطانيين الى فئتين : فئة ايجابية وفئة سلبية ويمكن تقسيم الاولى كذلك الى طائفتين طائفة الذين اتخذوا مع بقائهم فى الخارج دورا ايجابيا فى المجهود الحربى وطائفة الذين جعلوا همهم الاكبر أن يجعلوا بعض المشرفين بين أشخاصهم (وكذلك بين أموالهم المنقولة) وبين ما يحدث من سوء فى أوروبا .

والسلبيون هم أولئك الذين كانوا يفضلون البقاء فى الاماكن مع الحصول على مناصب ثانوية مثل ملحقين فى سفارات مثلا .

ترى ماذا كان يحصل لو أن الجميع كانوا بهذه الروح المعنوية ؟

ولنترك هذا لنعود الى تلك الايام التى سطرتها يد القدر فى نهاية أغسطس وبداية سبتمبر سنة ١٩٣٩ ففى ذات أمسية تلقيت مكالمة

تليفونية من وزارة الحربية البريطانية War Office وبالتالى قدمت نفسى الى المخابرات الحربية حيث قوبلت بالرقة التى أخطرونى بهـا عن المهام المخصصة لى منذ وقت طويل كما يبدو وهو أن أتكفل بالجاسوسية المضادة فى جميع شبه جزيرة كوتانتان Cotentin ولاحظ الضـابط قلة حماسى فأخذ يضحك · وقال لى :

ـ اسمع اننى أحس شعورك وأنا أعرف أنك لا تحب البقاء على الهامش ولكننى أؤكد لك أن المهمة فى هذا الاقليم ستكون مثيرة للغاية · وأنت بعد كل هذا تبلغ من العمر السادسة والاربعين ولا شك أن الذى ينصرف اليه تفكيرك يتطلب شبابا أقوى ·

ـ هذا صحيح ولكن ذلك يتطلب تجربة كذلك كمـا يتطلب معـرفة بعقلية الخصم ولكننى أشك فى أن لديك العدد اللازم من الرجال الاكفـاء اللازمين لهذا الغرض ثم ان رجلا فى مثل سنى يستطيع بعد كل شىء أن يتجول فى ألمانيا بحرية أكثر من شاب أقل سنا ·

ـ هذا صحيح ولما كنت أتوقع أن يصدر منك رد الفعل هذا فقـد رتبت الامر لكى تتقابل مع شخص معين وانا أعترف بكل أسف أننـا محرومين من الرجال الذين نوهت اليهم الآن وأنا أطلب منك أن تذهب الى هذا العنوان وتسأل عن مستر سينور Senior الذى ستعقد معه مقابلة وهكذا بدأت المقابلة مع أغرب شخص عرفته وعندما دخلت أدار لى ظهره وهو ينظر من حلال نافذة الطابق الثانى وزجاج النافذة متسخ جدا وكان عملاقا طوله حوالى ستة أقدام وثلاث بوصات وأكتافه عريضة متناسبـه مع طوله ورأسه ضخم وشعره يشوبه الشيب وعندما اسـتدار نحـوى وجدت وجهه دائريا وتقاطيعه صارمة وعيونه شديدة الزرقة وفم أشـبه بمصيدة من الصلب وسرعان ما ذهب ذهنى الى صورة ضابط من ضباط البحرية الذين أحيلوا على الاستيداع وعندما تكلم اعترتنى الدهشة لان صوته كان رقيقا يكاد يكون نسائيا · قال :

ـ اننى أقدر كثيرا سبب زيارتك التى أخطرنى بها صديقنا وأنا كلى استعداد لقبول معاونتك بل أنا أكثر من مستعد طالما نحن نفتقد الى الرجال ومع ذلك فيلزم أن أنبهك الى أن المهمة المطلوبة يمكن أن تشتمل على تعب بدنى ومخاطرة كبيرة ولك كل الحرية فى أن ترفضها · وما يكون سـهلا فى سن الرابعة والعشرين يصير أقل سهولة بعد واحد وعشرين سـنة

حتى ولو أخذنا التجربة فى جانب الاعتبار ومع ذلك فاذا كنت تصر على عزمك فسوف أخطرك عن طريق صديقنا الذى يستطيع أن يتفق معـك ولا تنسى أنك تستطيع أن ترفض فى أية لحظة دون أن يكون هناك ما يدعو الى احمرار وجهك خجلا ولا تثريب عليك اذا قنعت بمشاغل تتناسب مع سنك وأنت تعرف أنه اذا ما اكتشف أمرك فلا تنتظر أية حماية أو مساندة

وشكرته على هذه الصراحة وأعلنت له أننى سأكون فى غاية السعادة عندما ألبى نداءه فى أية لحظة وفى أية مناسبة وبشرط أن يكون الهدف فى حدود امكانياتى المحدودة وبعد ذلك شربنا سيجار وتحدثنا عن الراجبى التى كنت لا أجهل أنه أحد هواتها الكبار وأنه يعرف عنهـا كل شىء . (ولم أعرف اسمه الحقيقى أبدا وأعتقد أن الاميرال كاناريس Canaris رئيس خدمة الاستعلامات الالمانية لا يعرف اسمه الحقيقى كذلك) .

وفى صباح اليوم التالى فى ٣ سبتمبر رحلت الى ستربورج Cherbourg عن طريق الدبرشوت Aldershot وسوثامبتون ولكننى اضطرت الى البقاء فى هذا البناء أربع وعشرين ساعة لاصطدام باخرتنا بما كنا نحسبه لغما طافيا مما اضطرها الى العودة الى الميناء .

وفى شربورج قدمت نفسى الى السلطات البحرية العسكرية والبوليسية وكذلك الى زميلى الفرنسى واستقبلنى الجميع بكثـير من الادب ولـكننى أحسست أن ليس لديهم رغبة خالصة فى أن يتعاونوا معى وكان لدينا فى كل يوم كثير من المشاغل والهموم بسبب محاولات التخريب ضد السفن التى يصل منها كل صباح خمس أو ست سفن .

ولم يكن من السهل العمل فى بلد أجنبى حيث كان لابد من الحصول على موافقة السلطة المحلية قبل القبض على أى شخص وكانت هذه السلطة قليلة الميل الى العمل وهكذا قضيت الثلاثة شهور الاولى من الحرب فى جو منهك وملل مضنى .

الباب الخامس

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٩ استدعيت الى لندن فى « استشارة رسمية » وأخطر رؤسائى أننى سأغيب لمدة خمسة عشر يوما تقريبا • وفى وزارة الحربية البريطانية قيل لى أن أذهب لمقابلة مستر سينور بمجرد أن أستطيع ذلك أى على الفور فوجدته على جاذبيته وبشاشته الاولى ولم يمهد للموضوع وقال :

ـ اننى فى حاجة الى تقدير مستقل عما يجرى وراء الخطوط الالمانيه وأريد أن أعرف عدد القوات العاملة فى الفرق وأماكن الحشود اذا كان هناك منها شيء وما يدور من احتمالات حول شن هجوم الشتاء واذا كان لابد من وقوع هجوم قبل الربيع فأود أن أعرف الوقت المقرر له وأنا فى حاجة الى هذه المعلومات خلال خمسة عشر يوما فهل تستطيع الحصول عليها ؟

ـ أنا أستطيع أن أحاول على الاقل ولكن كيف أصل الى هناك ؟

ـ كل شيء أعد تدبيره • وسوف تذهب الى هولندا (لاهاى) بوصفك رجل أعمال وهناك سيتصل بك أحدهم وسيجعلك تجتاز الحدود بكل أمان وسينتظرك نفس الشخص عند العودة فى تاريخ تتفقان عليه وسيتولى تدبير التستر ستختفى شخصيتك خلفه وجميع التفاصيل الاخرى وتستطيع أن تثق فيه تماما •

ـ أرجو أن تسمح لى بابداء ملاحظة واحدة : أليس فى مقدور عملائكم الموجودين هناك الحصول على هذه المعلومات بطريقة أسهل وأكثر دقة فى مثل هذه المدة القصيرة ؟

ـ طبعا ! وأنا أملك تقارير من كافة الانواع الواردة من أناس كثير ولكننى لا أدرى ما اذا كنت أستطيع أن أعتمد تماما على آرائهم وانما الذى أريده هو تقرير مستقل يأتى من جانب رجل ليست لديه أية مصلحة فى أن يقدم لى أكاذيب ومن المحتمل أن يشن الالمان هجوما خلال الشتاء ويلزمنى أن أعرف مدى الوسائل المتوفرة لديهم • وأنا أعتقد شخصيا

أنه لا يوجد لديهم أكثر من عشرين فرقةفيالجبهة الغربية وأنهم لايستطيعون بالتالى أن يفعلوا شيئا قبل الربيع حيث يمكنهم بالطبـع أن يضعوا فى انصف ما يقرب من مائتين وعلى أية حال اذهب وانظر ما يجرى هناك لكى تخطرنى وربما تستطيع كذلك أن توضح لى مدى التعـزيزات المتوقع أن تصلهم من الشرق وفى خلال أية مدة أما بصدد الشخص الذى سـتقابله فى لاهاى فلن يكون غريبا عليك فقد كنتما تلعبان الرجبى معا وهو الآن رجل متزوج ومحترم !

ومضت رحلتى الى لاهاى دون حادث لان هولنـدا لم تكن قد دخلت الحرب بعد ٠ وعلى الباخرة كان الجو فى غاية السلم وكان الرأى السـائد أن الحرب ستتم تسويتها فى وزارات الخارجية وأنه لا يوجد ما يبعث على القلق ومع ذلك فقد كان يبدو أن فى هذا التفاؤل بعض المغالاة والتكلف كما لو كان الناس يسعون الى تطمين بعضهم البعض وكانت لدى فـكرة على أساس المخاوف التى ساورت نفس الذى تلقيت منه التعليمـات ، تختلف عن حقيقة الامور ونظرت باشفاق الى محاولاته العـاطفية لكى يتجاهل الامور الحتمية واستمراره فى أحلام المجانين ٠

ونزلت الى البر دون صعوبة ومع أن اجراءات الجمرك والرقابة كانت صارمة الا أنها تضمنت طابع روتينى غير معرقل ٠

وعندما خرجت من مبنى الجمرك تقدم منى رجل صغير يقول :

ـ هل لعبت أخيرا راجبى ؟ ولم أتمكن من التعرف على اسمه من وجهه واستطرد يقول :

ـ انك شخص ليس له ثمن ! Price فعرفت صـوته وكان هو برايس Price لاعب الراجبى الممتاز وآخر شخص كنت أتوقع أن يوكل اليه القيام بمثل هذا النشاط ! ولا شك أن نفس الانطبـاعات كانت تراود ذهنه عنى لانه استطرد ضاحكا :

ـ لقد اختارونا سريعـا أليس كذلك ؟ ومن العسـير أن يعثروا على شخصين لا يصلحان للمهمة غيرنا وأنا دورى سهل فقد أعددت كل شيء وسأزودك بما يلزمك من أوراق وملابس ٠٠ الخ رغم أنه يتعين عليـك بداهة أن تؤخذ بصماتك على الوثائق التى سيستخدمها وسوف أجعلك

تجتاز الحدود دون صعوبة ولكن بعد ذلك فلن تعتمد على أى أحد سوى نفسك . واذا كنت تعتقد أننا نستطيع أن نتبادل الادوار فأنت مخطىء ولن أقبل أن أقوم بدورك ولو فى نظير مليون جنيه تدفع مقدما ولكن هيا بنا نناقش ذلك فى هدوء .

وأخذنا تاكسى الى فندق من الدرجة الثانية حيث حجزت غرفة من أجلى تركت فيها متاعى وذهبنا الى مطعم فى غاية الهدوء .

وكان برايس يعتقد أنه يتعين على أن أقدم نفسى للناس على أننى تاجر مدنى ألمانى . وأخذت برأيه ولو من أجل اجتياز الحدود حتى ضواحى كليف Cléves مثلا ومع ذلك فقد كنت أرى أنه ينبغى على ابتداء من كليف ارتداء زى عسكرى أو شبه عسكرى لان المدنى الذى يتجول فى منطقة أمامية يجازف بأن يستجوب فى أية لحظة وحتى لو لم يكتشف أمرى فسوف أكون عرضة لجميع أنواع العراقيل والصعاب التى تقلل كثيرا من مدة الخمسة عشر يوما . ولابد أن برايس كانت لديه سلطة كبيرة للتأثير على السلطات الهولندية والالمانية فى هذا الجزء من العالم ولكننى تحرزت من سؤاله عن مصدر هذه السلطة حتى لا أقع فى ورطة عن معرفة أشياء ليس لى أن أعرفها .

وتسلمت أوراق تحقيق الشخصية فى الساعات التالية . احداها تمثلنى فى صورة أدولف شولتز التاجر الذى يتجول بين هولندا وريناني من أجل الامدادات الحكومية وجميع الاوراق كان موقع عليها من السلطه العسكرية المختصة مما جعلنى شخصا مرغوبا فيه Persona grata فى حاله احتمال التدخل ذى الطابع السياسى والاوراق الاخرى تضفى على صفة ميجور Major ملحق بالقيادة العامة فى الغرب وتأمر بمنحى جميع التسهيلات فيما يختص بوسائل النقل والسكن .. الخ . وقد وقع قائد خدمة الاستعلامات فى الجبهة الغربية وختم على الاوراق ولا يستطيع أن يطعن فى هذا التوقيع أشد البوليس دقة الامر الذى يتيح لى امكانيات ضخمة فى العمل لان الخطر الحقيقى يأتى من الجستابو وليس من الجيش الالمانى Wermacht ولم تكن لدى أية فكرة عن كيفية امكان الحصول على هذه المستندات وما تحمل من توقيعات تتغير على الدوام ولا شك أن ثمة قسم خاص فى خدمة ذات فعالية كبيرة هو الذى تكفل بالمهمة . ولم أبحث المسألة أبدا فقد كان من الممكن دائما عند الحاجة الى استبدال ختم أو توقيع أن تتم العملية فى خلال أربع وعشرين ساعة ولم يكن مثل هذا

العمل بقليل من جانب أولئك الذين تعرضوا لسخرية خصومهم وكان أجدر بهم أن يحاطوا علما بمدى تأخرهم عنا فى هذا السبيل • وكان كانارى Canaris وجوبلز Goebels يعرفان بالطبع مقدار تفوقنا فى هذا المجال وكم حاول الثانى الحط من شأننا ولكن هيهات أن يغير الحقائق •

وفى نفس المساء غادر الهر شولتز Hurr Schultz الذى تقمصت شخصيته لاهاى فى سيارة ورغم ما أعطانيه برايس من تأكيدات لم أكن متأكد اطلاقا أنه سيستطيع انتظارى فى سيارة فى نفس الموقع على الحدود بعد خمسة عشر يوما وخلال عدة ليالى اذا ما حدث تأخير غير متوقع وقال لى :

ـ سوف أعد لك ساعتها أفخم غداء يمكن أن تتناوله فى كل أنحاء هولندا •

فرددت عليه فى قليل من الانفعال بقولى :

ـ أنا لا أريد غداءك ! والافضل أن تشترى لى زجاجة مشروبات روحية شديدة جدا لاننى سأكون فى أشد الحاجة اليها فاذا لم أظهر ثانية فاشربها أنت وخذ ثمنها من « قائمة المصاريف » ومعذرة يا صديقى العجوز لاننى دائما أكون فى قليل من العصبية عند بداية كل مهمة جديدة وسوف تتحسن حالتى عندما أكون فى الجانب الآخر •

وبعد تحديد المكان المتفق عليه واللحظة التى نتقابل فيها بالتقريب عند عودتى ركبت سيارة المارسيدس Mercédès التى كانت تنتظرنا على الطريق وسافرت مع ثلاثة ألمان •

وكان برايس قد قال لى أن أنزل فى قرية صغيرة ذات أهمية تجارية وعلى مسافة قليلة قبل مدينة كليف Clèves وقلت للسائق أن يقف فى المكان مما أثار ملاحظات حادة من جانب رفقاء السفر فى لهجة حادة جدا! أنه لو كانت أمهم مريضة لاوقفوا السيارة لرؤيتها أما وهم يسخرون بهذه الطريقة فلابد أنهم يسخرون من أمهم وغير متأكدين من شرعية أبيهم وهذا يفسر رغبتهم المنطقية فى عدم رؤية آبائهم ثم نزلت بحقيبتى دون أن يراودنى أمل كبير فى امكان تكوين أصدقاء ومع ذلك نبتت فى ذهنى فجأة فكرة أن أظهر لهم أوراقى • وكان رد الفعل فوريا ! واذا برفاقى فى السيارة يقولون :

ـ ولكن هذا طبيعى يا صاحب الفخامة ! فلو كنا نعرفك لما أبديـا هذه الملاحظة !

فأخذت أدون أسماءهم وعناوينهم وأعلنت لهم اننى من المحتمل جدا أن أزورهم لأتأكـد من ولائهم للحزب وأنه اذا لم أقم أنا بهـذه المهمـة فسيتولاها عضو آخر فى مثل نفوذى وقلت لهم :

ـ الكثير من الجواسيس يتجـولون فى هـذه الاماكن بحيث لا يمكن للرايخ Reich أن يجازف بأدنى مخاطرة وعلى هذا كونوا على أهبـة الاستعداد ليل نهار لكى تستجيبوا لنداء الحزب ولا شـك أن كل منكم لديه سيارته التى يمكن الاستيلاء عليها فى حالة الاستعجال فردوا جميعا قائلين :

ـ بكل تأكيد !

وهذا معناه أنه اذا ما دعت الضرورة فاننى أستطيع أن أحصل على سيارة فى هذه المنطقة المجاورة للحدود الهولندية ٠

وفى هذه القرية عقدت أول « اتصال » مع صاحب فندق محلى وكان يستطيع أن يزودنى بزى عسكرى (بثمن عليه) وكذلك سيارة متعبـة قليلا على أن تأتينى هذه الاشياء فى اليوم التـالى وأكد لى وجود بعض مواقع للقوات فى النواحى المجاورة كما زودنى ببعض المعـلومات ذات الطابع العسكرى وهى ليست على قدر كبير من الاهمية ٠

وتم « الاتصال » التالى بالقرب من مونشين جدلاباش München Gladbach وظهر بأنه أكثر جدوى فقد حصلت على الموقع التقريبى لثلاث فرق لا تتمتع احداها بأية سمعة عسكرية مرتفعة جدا وتمكنت من تكوين فكرة دقيقة جدا عن قواتها العاملة ومعداتها ٠ وعلمت من ثرثرة الاهـالى أن الجنود يعتبرون أنفسهم ذوى حظ سىء لوصفهم فيما يرون أنه « خط الدفاع الاول » وهذا معناه أنهم يتوقعون هجوما من الفرنسيين والانجليز بين لحظة وأخرى ولا توجد أية نية لديهم فى شن هجوم ٠

وسافرت فى اتجاه الجنوب الى كولونيا Co ogne فى هذه السـيارة العتيقة التى يقودها رعية ينتمى الى أمة لا ترى الامور بمثل ما يراها الالمان وتوقفت عند فندق جروسيه كيرفورست Grosser Kurfürst لأتناول الغداء

وربما كان هذا تهورا من جانبى طالما ترددت عليه قديما ولكن جميع العمال والموظفين تغيروا من وقتها وكانت المخاطرة قليلة وكان الضباط الشبان يجتمعون فيه خلال المساء بحيث يسهل على تكوين فكرة عن كيفية تمنيل الآلايات فى هذا الاقليم ولم أجد صعوبة فيما بعد من الحصول من مصادر ثقة على قائمة أكثر تحديدا عن عدد القوات العاملة العسكرية المرابطة حول كولونيا ٠

وكانت الاتصالات التجارية ذات قيمة فان أبناء الطبقة المتوسطة فى كولونيا وفى الاقليم كانوا يضمرون سرا بل وجهرا بالنسبة لبعضهم العداء لفكرة نشوب الحرب على أبوابهم بكل ما تحمل من تخريب لممتلكاتهم وأعمالهم وكان اهتمامهم بهذا أكثر من اهتمامهم بالخسائر فى الاورواح نتيجة الغارات الجوية ٠ وكانوا على درجة كبيرة جدا من المعلومات عن القوة العسكرية ويهتمون كثيرا بوسائل منع الحرب أيا كان الثمن ليس حبا فى الخير وانما دفاعا عن ممتلكاتهم وأموالهم دون أى شخص آخر ٠ ولقد استطعت أن أستخلص من الطابع التجارى كمية من المعلومات وعلمت أن هتلر سيعقد « حديثا » مع عدد من أعضاء الحزب فى فندق درسين Dreesen فى مساء اليوم التالى وكان هذا الفندق يوجد فى جودسبرج Godesberg جنوب بون وراودتنى فكرة محاولة حضور الاجتماع ٠ ولم يكن هذا سهلا لاننى كنت أعرف الاشقاء درسين Dreesen وهم يعرفوننى وربما لم تكن فرصة اكتشاف أمرى كبيرة جدا ولكن لم يكن من السهل تجاهلها وكان الحل هو أن أحضر الى الميعاد المقرر مبكرا مع شارة S S التى لا يمكن أن يتطرق اليها أى شك لكى أجلس فى المؤخرة وكان على أن أظل خمسة وأربعين دقيقة فى بداية المؤتمر وكنت فى غاية من التستر ولم يعرنى أحد أى اهتمام وهكذا لاحظت من جديد مدى قلة احتياجات الالمان ٠

وسار كل شىء عادى فصاح أحدهم بالسكوت واعتلى هتلر المنصة وكان خطابه يشبه عشرات الخطب التى استمعت اليها فى المذياع وشن هجومه على انجلترا التى انتهكت جميع قواعد الاخلاق بتشجيعها وحمايتها للشيوعية ودفاعها عن اليهود ٠٠ الخ وقال :

ـ ان انجلترا هى عدونا الوحيد ٠ ولم يعد للفرنسيين أية قوة ! فهم الآن تحت القبور ! ولدينا من الآن ثلاثين فرقة كاملة الاعداد فى الجبهة الغربية ٠ وبعد ثلاثة أربعة شهور سيكون لدينا العدد الكافى من الفرق

لغزو فرنسا فى خلال ثلاثة أسابيع وستسقط توابعها بلجيكا وهولندة ولكسمبرج فى بضعة أيام وماعلينا أن نخشى شيئا من روسيا صديقتنا ونستطيع تسوية خلافاتنا بمجرد أن تتاح لنا فرصة مقابلة زعمائها وسنجعلهم يأخذون بوجهة نظرنا فانى على يقين من ذلك !

وبعثت هذه الجملة والابتسامات التى صاحبتها تصفيقا وملاحظات معادية للروس تتنافى مع هذه الدولة « الصديقة » وبعد ذلك أضفى هتلر المزيد من أكاليل الغار على مختلف وحدات الجيش الموجودة فى الغرب وأخذ يعدها الواحدة بعد الاخرى معبرا عن ايمانه بعدم امكان قهرها وفى اخلاصها المطلق للواجب والوطن وتأكده من أنه سوف يهنئها فى باريس ثم أعقبت كلمات هتلر بعض الخطب لم يكن ينصت اليها أحد وبعد ذلك قضينا ليلة ممتعة فى فندق دريس

وما كنت أتوقع أن أصل الى كل هذه المعلومات الثمينة من الذهب الخالص ! وتبادلت أحاديث ودية مع أكثر الاعضاء ثرثرة أتاحت لى تكوين فكرة دقيقة عن الموقع الحالى والمحتمل لـ « نقط الابتداء » لآلايات الاقليم .

ومع افتراض اننى على حق فقد استطعت أن أوفر خلال بضع ساعات أياما كثيرا من التحريات الشائكة ولهذا لم يسبقنى الوقت فعزمت على أن أتوجه الى الجنوب عن طريق ريما جان Remagen وكوبلانس Coblence ومايانسمى Mayence وفيبساون Wiesbaden حتى فرانكفورت Fracfort وعلمت بعد ذلك أن « اتصالاتى » أكدت المعلومات التى ذكرها هتلر الذى اضطر الى الاعتراف بأنه قال الحقيقة هذه المرة · ولكن نرى ما هو رأى هتلر فى خدمة الامن ! فتصور أنك تحضر اجتماع لهيئة أركان الحرب العليا دون أن يسألك انسان ! وليس الامر فى الحقيقة على هذا المنوال والاحرى أن يقال أن رئيس أركان الحرب استدعى عددا من أصحابه لكى يتحدث لهم على المكشوف عن مشاكل الساعة العسكرية ! ولم يكن غير هتلر الذى كان يتمتع بالسلطة العليا المطلقة ، يستطيع أن يقوم بمثل هذه الافعال لكى يحصل منها على المزيد من الهيبة ولو كان فعلها رئيس هيئة أركان حرب لقدم الى المحاكمة العسكرية وهنا يظهر الفرق بين النظام الدستورى والنظام الاستبدادى وخاصة اذا كان النظام المستبد ترأسه شخصية لامعة ولكن تسيطر عليها عواطفها وليس لها من رقيب أو حسيب سوى ذاتها الشخصية · وما كان أحد لينكر التأثير المغناطيسى الذى يمارسه هتلر على من يسمعه فهو يوحى بالثقة والتعصب لدرجة لم

يسبقه اليهـا أي زعيم وطني ؛ وأنا رغم عزوفي ونفوري لم أستطع أن أكبح نفسي من الاندفاع ورائه مؤقتا مسلوبا بمثل تلك الفصاحة والاقناع المطلق فكان اخلاصه يبلغ حدا من الجلاء والوضوح كما يبلغ تحمسه للنظريات التي بدافع عنها درجة كهربية تسري حوله بحيث تمضي فسحة من الوقت قبل أن يتبدد تأثيرها وكأنها نبيذ معتق بل وكنت أقر أحيانا بأنه على حق ولم تكن تظهر أباطيل الحجج التي يستند اليها الا عندما أخلو الى التفكير بهدوء ٠

ولقد تظاهرت في الفترة ما بين القاء هتلر لخطابه وبين الليلة التي قضيتها في دربس بأنني أكثر النازيين تعصبا وشربنا نخب الحزب (وأنا معهم) وغادرنا المكان بعد عبارات الصداقة التقليدية وعلى أمل التقابل قريبا في باريس ٠

وقمت برحلتي الى الجنوب دون أن يقع حادث وشاهدت أناسا مما تأكدت معه انطباعاتي وبدا لي أنني حصلت على ما كنت أريده في مثل هذه المدة القصيرة ٠ وفي الحقيقة كنت أحس أنني فعلت ما هو أفضل بحيث يحق لي أن أخلد الى قليل من الراحة وخاصة أن صديقي ينتظرني على الحدود الالمانية بعد ثلاثة أيام ٠ ولكن الذي كان يضايقني هو رغبتي في « أن يصعد الدم الى وجهي دون أن يراني أحد » ولكن صاحبة المنزل الذي كنت أحل فيه بكولونيا أظهرت ودا كثيرا كانت في سن النضوج (كما كان لها ابن استدعوه للاستجواب ولم يعد من وقتها) وكنت أقيم لدى هذه السيدة في بون في سنة ١٩١٩

ومكثت يومين واتصلت بأشخاص وجدت عندهم معونة كبيرة ليس لكونهم قد أشاعوا السرور في نفسي ٠ كلا فما أبعدهم عن هذا ! وانما لانه كانت لديهم معلومات وفيرة عن الظروف المحلية السياسية والعسكرية في وقت واحد ٠

وحاولوا ملحين أن يحصلوا على الثمن سلفا مستندين على ما ينفقون . ولكنني رددت عليهم بحزم بأن هذا يتنافى مع أسلوبنا الذي لا يتغير ٠ وقلت لهم :

ـ احضروا الينا البضاعة ، وسنتحقق من جودة الصنف ٠ فلو ظهر أنها جيدة ، فستقبضون الثمن بالتالي ، وربما يتطلب هذا بعض الوقت

ولكن هناك فوائد ستدفع · أما اذا تبين أنها لا شيء ، أو أعطيت خداعا عن عمد ، فلن تكون مكافأة وأكثر من هذا لو راودتنا بعض الشكوك فستدهشون كيف عرفت السلطات الالمانية أنكم لستم نازيين ١٠٠٪ مائة فى المائة وأحسب أن الوضع فى « معتقل وقائى » ليس مريحا فى وقتنا هذا ·

وهكذا كنا نحصل على تعاون معظم هؤلاء الناس ويتعين على أن أعترف بأن الغالبية الساحقة منهم لم تكن لتستكنف عن « الحصول على قليل من المال الاضافى » الا أن اهتمامها الاكثر يرجع الى عدائهم المستحكم ضد النظام النازى ومن هذا القبيل كانت صاحبة المنزل التى كانت تريد مساعدتنا لا لشيء سوى حقدها الدفين ضد النظام ·

وفى خلال هذين اليومين قابلت عن طريق الصدفة رجلا أطلق عليه اسم كارل Karl وهو من النادرين الذين أضع فيهم ثقتى الكاملة والذى سبق أن عقدت معه علاقات ودية · وكان من أهالى رينانيا الشبان الذى لا يعير الدنيا أى اهتمام ويتمتع بروح شفافة ·

وقال :

ـ كيف يحدث هذا ؟ أهو أنت يا صديقى ؟ يا للدهشة ! ولكننى أراك تتمادى قليلا بالظهور هكذا فى هذه اللحظة · ولقد تغيرت كولونيا حيث يقابل فيها رجال البوليس ·

ـ حسنا ولكننى لن أمكث طويلا هيا نحتسى شيئا من القهوة ونتحدث فى مكان ما ·

ـ مستحيل فى هذه اللحظة · ولدى ميعاد مع صديق فى نيو ماركت Neumarkt ولكنك تعرف المكان فى الطابق الاول · فلماذا لا تحضر معى ؟ فأنا لن أكتفى بتقديمك الى صديقى ولكننى سأكون كفيلا لكل منكما ازاء الآخر · ومن يعرف ؟ فلعل يتمخض هذا الاجتماع عن شيء ·

فقبلت وأخذ يحدثنى فى الطريق عن هذا الصديق ·

ـ هذا الغلام الذى سأقدمك اليه كان ضابط بوليس فى سجن كلينجلبوتز Klingelputz وفجأة طرد من الخدمة بتهمة عدم الولاء للحزب

ولهذا فهو في غم من فقدان وظيفة هامة وذات أجر وفير بل وحـرم من المعاش ومن أجل هذا يمكن أن تكونا أنتما الاثنين مفيدين لبعضكما ٠

وكان صديق كارل Karl قد وصل قبلنـا وجلس فى ركن بآخر القاعة ٠ وكان يحتفظ رغم ارتدائه الملابس المدنية بمظهر رجل البوليس الصارم الذى يتسم بالجد وفى غاية الحزم وقد حلق ذقنه وشاربه بدرجـة الاتقان وقام كارل بشكليات التقديم فى سرعة وساد جو من الود وعملت جهد طاقتى على أن يستمر هذا الجو الودى وبعد لحظة أخذ الرجل يسرد لى شكاياته :

ـ ان طردى من الخدمة كان بفعل ذلك الشـخص الذى حل محله ٠ ويالها من فضيحة ! فهو لا يعرف شيئا فى المهنة التى كرست لهـا زهرة حياتى ٠

فعبرت له عن أسفى على الطريقة التى عومل بها وأضفت قائلا :

ـ لابد أنك قابلت شخصيات مثيرة ٠

ـ بكل تأكيد ٠ اسمع انه يوجد فى هذه اللحظة في سجن كلينجلبوتز شخص اسمه فلان معتقل لتقديمه بتهمة التجسس ولكن الذى حل محلى فى الوظيفة يحسب أنه مجرد مرتكب جنحـة عادى والحقيقة أن الرجـل المذكور فى غاية الذكاء وهو هولندى ولا شك أنه يحدث أحيانا أن تراودنى فكرة مساعدته على الهرب لا لشىء سوى أن أظهر عن حل عملى بأن الوظيفة واسعة عليه وأنا فى مقدورى أن أفعل أكثر من هذا !

فسألته :

ـ كيف اذن ؟

وهنا استأذن كارل فى الانصراف وربما قد خمن نقطـة التحول فى الحديث وأراد أن يظل هو بعيدا عن الاضواء ٠

واستطردت بعد انصراف كارل فى حديثى مع ضـابط البـوليس السابق :

ـ كيف تستطيع أن تخرج رجلا من السجن الآن بعد تركك الخدمة ؟

ـ فى منتهى البساطة ! فأنا قبل مغادرة السجن أخذت معى استمارات قبول أشخاص مقبوض عليهم فى كلينلبوتز أو نقلهم الى مكان آخر وكلهـا تحمل الاختام الرسمية بل والتوقيع للمحافظ ولابد من اكتشاف اختفاء هذه الاستمارات ولكن بعد مضى الوقت ويكفينى أن أكتب اسم معتقل على استمارة نقل الاشخاص ٠

وتوقفت ليحدجنى بنظرة فاحصة ثم استطرد ببطء :

ـ اذا كان فلان هو الشخص الذى أفكر فيه واذا كنت تهتم بالافراج عنه ٠٠ فيمكن تسوية المسألة ٠

فرددت عليه :

ـ اننى متأكد بأننا سنتوصل الى اتفاق ٠

وفعلا توصلنا الى اتفاق اذ أخرج من جيبه احدى هذه الاستمارات وأخذ فى ملئها ٠

وأذهلتنى قلة الحيطة التى يتخذها الالمان فى المحافظة على وثائقهم الرسمية والظاهر أنه لا يجرى أى تحقق من عدد الاستمارات فى هـذا السجن وبالتالى فى غيره وربما كان شعور السلطان والطاغوت جعلهم لا يستطيعون أن يتصوروا امكان دخول أحد وانتهاكه حرمة أحد المكاتب النازية واختلاسه ورقة من أوراقهم المقدسة ٠ وبمجرد انتهائه من ملء الاستمارة أخذتها ووضعتها فى جيبى ٠ واحتسينا القهوة التى بردت منذ وقت طويل ثم انصرفنا كل فى سبيله ٠

ولقد أحسست بما يشبه الالهام يتسرب الى نفسى عندما أثيرت أمامى حالة فلان وكأنما اكتشفت ببصيرتى شخصيته ورأيت أنه لا بد من عمل شىء لمساعدته ٠ وهو رجل من أفضل رجالنا اذا صدق حدسى وكان هو فعلا الضابط البارز الذى ينتمى الى فيلق مشهور لان القلق يسود منذ عدة أسابيع فى لندن ازاء سكوته ولاشك أن رأسه كانت تحتوى على

معلومات أكثر من معظمنا مجتمعين فكان لزاما محاولة اخراجه من سـجن كلينجلبوتز وبديهي ربما لا يكون هو الشخص المقصود ومع ذلك فهي فرصة ينبغي مواجهتها ٠

ومما يضايق المجازفة بمخاطر من أجل اخراج مجرد مرتكب جنحـة يطبق عليها القانون العام ولكن الذى أثار فى نفس الهواجس هو مايراه ضابط البوليس الألماني السابق من أن السجين فى غاية الذكاء وأنه يتحدث جميع اللغات الاوروبية تقريبا باتقان وأنه يبدو أنه اختار أن يظهر بمظهر الهولندى ٠ ونظرا لضيق ماتبقى لى من وقت رأيت أنه لم يبق الا استعمال التمويه Bluff وكان لدى من ضمن متاعى لدى « صاحبة البيت » زى ضابط برتبة لفتنانت من S S فأسرعت بارتدائه وبعدها أتكون العمليات بسيطة أم عسيره ؟ لست اردى ٠

وفى المساء تقدمت الى السجن وناديت رئيس الحرس ٠ وعندما حضر وبدأ عليه التأثير من منظر الزى الذى ارتديه لم أقل شيئا واكتفيت بأن أظهرت له أمر النقل ففحصه عن كتب وظهر عليه التردد ٠٠ فأتخذتأمشى مظهر يمكن أن يظهر به أحد النازيين وأمرته :

ـ بسرعة ! فالمسألة لا تحتمل التأخير ٠

ـ ولكن لا توجد معك حراسة ٠

ـ سأتكفل بحراسته شخصيا ولسوف أخطر المسئولين عن تثاقلك اسرع فأنا مستعجل وشئون الفوهرر لا تحتمل التأخير !

فاختفى ثم عاد ومعه وصل والسـجين وأعطيته الامر وأخـذت منه الايصال ويالها من صفقة رابحة ٠ ولم تلفظ بأية كلمة بعدها سوف هايل هتلرا المعتادة ٠ وخرجنا السجين فى المقدمة وأنا وراءه ٠ وكان السجين ذوقامة متوسطة وشعر أشقر ووجه لاينم عن أى تعبير ولا أية تقاطيع مميزة وكان يرتدى حلة رمادية وأكنه فى غير أناقة وقميص أبيض ورابطة عنق سوداء وقبعة يتعذر وصفها وقد سمح له أن يأخذ هذه الملابس لانه كان فى الحبس الاحتياطى الامل الذى سهل الامور أمامى لانه لوكان فى زى السجن لاثار مشاكل وأية مشاكل !

ومن الطريق حتى المحطة لم نلفظ أية كلمة وبعد انصراف التاكسى قلت له بالانجليزية :

ـ ما هو اسمك الحقيقى ؟

فانتفض قليلا وقال :

ـ من انت بحق السماء ؟

ـ هذا لا يهمك كثيرا وانما اليس يوجد شخص يهتم بتحركاتك فى أحد شوارع لندن ؟

ـ بلى :

ـ وما رقم المبنى فى هذا الشارع ٠

ـ ٢٢٢ 222 A

ـ وما اسم هذا الشارع ؟

ـ بلانك ستريت Blank Street

ـ هل الشخص الذى تعرفه ضخم الجثة ؟

ـ حوالى ستة أقدام وبوصتين ولا يفقد منها شىء !

ـ يالك من غلام دقيق ! هيا بنا الى مقهى ماير Mayer لنشرب كوبا كبيرة من البيرة ونتحدث قليلا لعل نجد الوسيلة لنخرج أنا رأنت من هذا المأزق ٠ وستمكث معى هذه الليلة وغـدا سنأخذ أول قطار الى مونش ـ جلادباش München-Gladbach واعتقد اننى سأحصل عـلى سيارة حتى الحدود وسأعثر لك بطاقة شـخصية تناسبك ونظـرا لانك ستكون معى فستمر أمام الحراس دون حادث وهم ليسوا عفاريت وقليل من أقداح البيرة تساعدنا : لانهم يقبلون البيرة والمال عن طيب خاطر وأكثر من هذا هناك صديق قديم يعرف تماما ماذا يعمل ينتظرنا عـلى الحـدود

وبديهي سنكون أنا وأنت فى ملابس مدنية ولكن لاتنسى أننى شخصية عظيمة فى الحزب وسأناديك على أنك صديقى ٠

فقال : ــ كل هذا جميل وطيب ولكننى كنت أفضل حتى الآن ودائما أن أعمل وحدى ولست أحب ان استمع الى أجنبى يملى على كيف أسلك !

فأجبته :

ــ ومع ذلك فهذا الاجنبى هو الذى أخرجك مع تعريض نفسه لمخاطر جسيمه من مكان ما كان يمكن أن تخرج نفسه منه قبل الازل ! وعلى هذا أناشدك بحق السماء أن تكون عاقلا ! ويمكن أن تصبح رجلا مرموقا فى غير هذا المكان اتركنى أقل لك شيئا واحدا فأنت لست شريرا كما تحاول أن تظهر والا لما وقعت فى الفخ فاترك اذنالشعور يمثلهذه الكرامة الغبية وهات يدك لكى نذهب الى « ماما »

ولم يكن هذا النقد اللازم ليسره أو ليسرنى ولكن كان فى حاجة الى التأنيب « المعنوى » وأخيرا قبل ٠

ــ والآن هيا الى محل اقامتى حيث نستطيع أن نغتسل ونغير ملابسنا لكى نأخذ قطار مونشين جلادباش Munchen-Gladbach فى الثالثة صباحا ٠ ويبدو أنك فى حاجة الى أن تحلق اربع مرات وترتدى ثيابا نظيفة سوف أعدها لك ٠ فهل تستطيع أن تحصل عليها بنفسك ؟ كلا بالطبع فتعالى الى جانبى ولا تتصرف كالاغبياء لاننى أنا الذى أتولى هذا الامر فاذا كان هذا لا يعجبك فأغرب عن وجهى وليحدث لك مايحدث ! ولكن يعز على نفسى أن أرى شخصا يقع فى التهلكه باختياره لا لشىء لانه يحمل رأس خنزير ! فهلم بنا الى « ماما » ثم نعود الى ديارنا ٠

وذهبنا الى « صاحبة المنزل ماما » وكانت على عادتها جذابة لا تلقى أى سؤال وفى الموعد المعلوم ودعت هذه السيدة الباسلة بحرارة وكان أن قابلتها ثانية فيما بعد وأخذت تذاكر السفر وكانت بطاقة الحزب وسيلة أبعدت عنى كل استجواب حريص من جانب الجستابو الذى كان منبثا دائما فى أرجاء المحطات وصعدنا القطار وكان السجين السابق عابسا دائما ولكننى لم أكترث لشعوره على الاطلاق وأخذت أبحث عن الوسيلة التى أستطيع بها أن اتصل برفقاء السفر فى أول مرة لكى يحصلوا لى على سيارة تقودنى الى الحدود ٠

ومضت ساعتان قبل أن نصل الى مونش ـ جلادباش نظرا لتوقف القطار فى جميع المحطات بل وفيما بين المحطات • وسرعان ما ذهبت الى كشك التليفون وحضر أحد رجال البوليس يسألنى ماذا أعمل فاضطررت الى اخراج بطاقة الحزب الثمينة مظهرا الشدة اللازمة لهذه المناسبة فهل يجازف باساءة المعاملة لشخص يستطيع ايذاءه ؟ كلا ولهذا تمكنت من الاتصال بأحد رفقاء السفر في أول مرة عندما دخلت الى الحدود وتعمدت أن يكون مع هذا الذى كان أكثر جفاء معى ولم يكن ليستسيغ أن يصحو على رنين التليفون قبل الفجر ولكن كان لابد من اتباع أوامر النظام النازى الذى يعرف كيف يتوصل الى نتائجه • وبعد خمسة عشر دقيقة وصلت سيارة الى المحطة وكانت أكثر من هذا سيارة رسمية ، وعلى أية حال فان رجل البوليس هو الذى أضفى عليها هذه الصفة ولا أحد يستطيع أن يطعن فى حكمة ••• ولم يكن هناك من هو أكثر ارتياحا منى !

واجتزنا كليف Clèves ووصلنا الى الحدود دون أن يقع حادث وبديهى توقفنا وفحصت أمتعتنا على أساس فحص حقيبة واحدة من كل واحد منا وترك الباقى اكتفاء بالشكليات وبالنظر الى أهمية أوراقى الشخصية بل لقد اعتذر رجال الجمرك عن مضايقتهم لنا ! ومر كل شىء في هدوء وكان فلان السجين يتبعنى كالحمل رغم نفوره الظاهر من أن يقاد •

وأخذته الى مسافة تبعد خمسين مترا من هـذا المكان حيث لم تكن سيارة مرسيدس جيدة تنتظرنا فحسب بل كان فيها كذلك صديقى برايس Price ولم يحدث أن شعرت بالسرور لرؤية محياه كما شعرت فى هذه اللحظة ! وبدا لى أن وجهه كاد يكون جميلا وهو أول من ينفى ذلك ! وكان استقباله لنا يتسم بالود الخالص وقلت له : « ألم أقل لك اننى أفعلها ؟ »

قال ـ هل لديك أخبار طيبة •

ـ نعم • لدى أخبار ولكن لست متأكدا بأنها طيبة • ومع ذلك فليس من شأننا أن نبت فى هذا الامر ولندع الشئون لذوى الاختصاص وعليك أن ترتدى حذاء اللعب ولكن مايزال من العبث احكام ربطها ثم انك لن تظل هنا الى الابد •

ـ شكرا على هذه النصيحة ولسوف أذكرها •

ـ على فكرة هذا عصفور أخرجته من أخـذ قلاع كولونيـا Cologne وأتعشم ألا يكون زائفا فهل تتكرم بأن تتكفل به وتفحصه على حده واذا تحققت من صدقه فأرسله على ظهر الباخرة وأنا لا أريد سوى أن أرى قفاه !

وما كان مثل هذا الحديث ليبعث السرور على قلب السجين الســابق فلان ومع ذلك أخذناه في السيارة ووضعه برايس Price فى القنصلية ولم أره بعدها ولا شك أن احدى الطائرات أعادته الى انجلترا ٠

وبعد بضعة ساعات من النوم اللذيذ عثرت على برايس فى المســاء وذكرته بوعده قائلا :

ـ برايس أيها الصغير العزيز هل تذكر ماسبق أن وعدت به ؟ أن تجهز لى أفضل غذاء فى كل هولندا مع زجاجة من الكحول شديدة جدا ٠ فهيا بنا نتغدى أولا لاننى سأموت جوعا وسوف تدفع ثمن الاثنين والا قاضيتك على حنث اليمين !

ووفى بوعده ورغم جودة الطعام الا أن الذى فتح الشهية أكثر هــو شعور التخلص من المتاعب ولم نتناقش فى كبريات المسائل التى تشغل بالنا وأعطيته التحذير الذى يحتاج اليــه وهــو من جانبه لم يكن لديه شيئا ملحا يريد أن يخطرنى به وبهذا أصبح الجو طليقا للراحة نتحدث فيه عن اصدقائنا وغرابة أطوار معاصرينا واستعدنا ذكريات الانتصارات والهزائم فى لعبة راجبى وقضينا وقتا ما أحلاه من وقت ، وفى صبــاح اليوم التالى أقلتنى طائرة الى انجلترا وكان على أن أكتب تقريرا وأحسست فى هذه اللحظة أن جميع أنظار العالم تتجه الى وتوقعت أن تكون الحفاوة عند استقبالى مثل الحفاوة بالملوك وكانت فى الواقع شيئا عاديا وقال صاحب الشأن :

ـ آه هذا هو انت ! انك لم تبكر كثيرا ! فانا كنت فى انتظارك فماذا علمت ؟

ـ لدى الانتشار الحالى لجميع الآلايات وجميع الفرق فى ألمانيا الغربية مع عدد قواتها العاملة وموقعها بالتقريب ويتركز هذا الانتشار قبل كل شىء فى الشـــمال كما ينبغى أن نتــوقع ٠ ولدى كذلك اسماء كل كبار الزعماء تقريبا ويمكن على ضوء منهاج حياتهم السابق معرفة نوع الهجوم

الذي يجرى اعداده ومع ذلك فأخشى أن يكون هذا دون فائدة مالم نعرف الجهة المخصصة للفرق المدرعة فى الشرق لانها تعتبر رأس الحـرية فى الهجوم ٠

ـ انا أعلم ذلك وأظن اننى سأحصل على المعلومات قريبا ٠

واستطردت أقول :

ـ يمكن على ضوء معرفة القوات الموجودة حاليا لدى الالمان أن نتكهن بان الهجوم سيشن من خلال بلجيكا وهولندا ولكن مع تفوق جوى ساحق فى هذه المرة ٠ وأنا لم ألاحظ أى نشاط جوى ولكننى سمعت كثيرا عن أعمال مزمع اتخاذها ازاء البلاد المحايدة وكل الناس يتوقعون أن هولندا وبلجيكا سوف تغرقان فى بضعة أيام وهذه هى الطريقة التى يفكر بهـا الالمانى العادى ويتصور أن تقع الاحداث المرتبة وأنا أشعر بأنه لا يخطىء بتاتا ٠

ـ كلا فهـو لايخطىء ٠ ولكن الأدهى والامر هـو اصرار البلجيكيين والهولنديين على الاعتقاد بأن حيادهم سوف يحترم ! ويالهم من أغبياء ! وبديهى لن يحدث هذا وهم يعرفون ذلك فى قرارة أنفسهم أما الفرنسيون فيسودهم القلق وأنت تعرف ذلك اذا ما أضفت الثقة الى تقاريرك !

وتركت هذه الملاحظة تمر ٠

واستطرد يقول :

ـ وعلى أية حال سأبعث بمعلوماتك الى ذوى الاختصاص مع وجهـة نظرى ولكننى أقـول لك بأمانة أننى لا أرى مايمكن عملة وان ارسـال قوات أخرى ومعدات اضافية الى فرنسا من شأنه أن يدفعنـا الى كارثة عظيمة ونصبح بغير دفاع فى حالة انهيار فرنسا وهو المرجح ٠

وارجو أن تحتفظ لنفسك بما ذكرته لك على التو ٠ واذا كنت قـد وجدتنى منفعلا صارما فأرجو أن تتذكر اننى أعيش باستمرار تحت ضغط معنوى عال كمثل الذى شعرت به منذ بضعة أيام والآن تستطيع أنت أن تريح أعصابك وليس أنا فعندما تتهاوى أرواح رجال من ذوى الشخصيات

التى لايمكن استبدالها بمثل السرعة التى جرت بها خلال الاوقات الاخيرة يحتد الطبع وأحس كما لوكنت مسئولا عن هلاكهم ٠

وعلى فكرة أشكرك غاية الشكر لاخراجك فلان من كولونيا وهو عمل يكلل هامتك بالغار فقد أحضر هو كذلك معلومات فى غاية الاهمية بحيث ضربت أنت بأخراجك اياه من السجن عصفورين بحجر ٠ ولقد سمعت أنه كان جموحا عندما أخذته معك ولكن صدقنى فهو لايقل مع ذلك امتنانا لك وهو يقدر كثيرا طريقة وصولك الى هولندة فهو من أحد الرجال النادرين الذين أضع تحت اسمهم خط فى مفكرتى ٠

ـ لم يكن فلان ولاشك رفيق الطريق المثالى وفى المرة القادمة سأختار من هو أفضل ٠

ـ لدى شىء آخر أود أن اقوله لك ! أهنئك على مبادرتك بحضور اجتماع هتلر فى فندق درسن رغم المجازفة باحتمال التعرف عليك وهذا هو ماكنت أقوله دائما لرجالى : الافضل كثيرا اتباع الطريق المكشوف بجرأة عن الاستحياء فى سلوك الطريق اللولبى لان الخصم يسهل عليه أن يقتنع بما تظهر به على المكشوف لان انتباهه يتركز أولا على الاعمال المتسللة الملتوية أما العمل علانية وبغير وجل فلا يثير الظنون ٠ وتذكر عندما تجد نفسك فى شير بورج أن تقوم بدور الذى يطارد الفريسة وأن تفتح عينيك ولو أنك لاتستطيع أن تفعل شيئا ازاء « اصدقائنا » أى العدو ولسوف الجأ اليك اذا كان هذا يروقك ٠

قلت :

ـ لاشك فى هذا (واعترتنى الدهشة ازاء كلامه الطويل) ولكن بشرط هو أنه اذا عدت الى ألمانيا فعلى أساس مريح لاننى بلغت من السن مالا أطيق معه وسائل المواصلات العتيقة ٠ وفكرتى هى أن أنزل الى البر فى مكان أختاره معتمدا على مصادرى وحدها حتى الوقت الذى يحين لأخذى من نفس المكان ٠

ـ هذه فكرة سوف أتذكرها وسأتصل بسلاح الطيران الذى يقدم الطيارين الاكفاء ٠٠

الباب السادس

وفي مارس سنة ١٩٤٠ استدعاني الى لندن ذلك الذى كنت أعتبره رئيسى الحقيقى وبدأ كلامه دون مقدمات :

ـ ان المسألة من البساطة بحيث أكاد لا أجرؤ على أن أطلب منك القيام بها · وهذه هي المهمة · يوجد فى القيادة العامة الالمانية سكرتير يحتل منصبا هاما جدا وهو في جانبنا بسبب حقده الشخصى ضد النازى· ويستطيع أن يطلع علىخطط الحملة القادمة وأن يضع نسخ بالملف الرسمى فى أية لحظة · ومع ذلك فهو يرفض أن يفعل ذلك اما لتحول غريب فى وجدانه أو شعوره بالواجب العسكرى ولكنه يغض الطرف اذا قام شخص بأخذ المستندات فى حضوره ويكفى فى رأينا أن يتسرب أحدهم فى اللحظة المناسبة الى مكتبه عندما يكون وحيدا حوالى الثانية عشر والنصف ليأخذ الوثيقة آنفه الذكر وهذا هو كل مافى الامر وسوف تعود فى خلال ثلاثة أيام ويسعدنا غاية السعادة الحصول على هذه الورقة لان كثيرا من الامور تعتمد عليها ·

وقلت :

ـ بديهى هذا يبدو فى غاية البساطة وما على سوى أن أرتدى زى كولونيل من أركان الحرب والدخول فى مركز القيادة العامة فى فرانكفورت وطلب المكتب المذكور فى الوقت المعلوم والاتصال بهذا السكرتير ولكن كيف يتسنى لى أن أتحقق من أنه الشخص المراد ؟

ـ ما عليك سوى أن تقول : « انها لن تمطر اليوم » فيرد عليك بقوله : « كلا فالطقس سيستمر على ما هو عليه » · وقد تمت تسوية كل شيء والمسألة فى غاية البساطة وأنا أنتظرك هنا اليوم ١٣ ·

ألا لعنة الله على أرباب المكاتب ! فقد كانت فكرتهم تقوم على انزالى فى ضواحى فرانكفورت فى مكان لا أعرف فيه شيئا بتاتا وكنت الح فى أن تقوم طائرة هليكوبتر بانزالى فى اقليم لندنتال Léndenthal بالقرب

من كولونيا لكي أكون على علم على الاقل بالمكان الذى أتواجد فيه . وكان الطيار الذى قادني ملاكم شهير من المقرر أن يعود ليأخذني بعد يومين وكان من أرق الشبان الذين صادفتهم خارج حلبة الملاكمة بالطبع !

فأنزلني فى حقل بالقرب من ليندنتال وكانت آخر كلماته لى هى :

ـ سأعود اليك يوم ١٤ فى الثالثة صباحا ولن أصبر على انتظارك .

ـ اذا لم أكن هنا فمن العبث الانتظار .

ولقد أرسلت فى عربة مقفلة الى المكان الذى انطلقت منه الطائرة وأقلتنى الى ألمانيا بحيث لم أعرف هذا المكان وهو بديهى بالقرب من الجبهة .

وكان كل شيء سهل ففى الليل ذهبت الى « صاحبة البيت » فى كولونيا ومن الغريب أنها أظهرت سعادة قلبية لرؤيتى وصاحت :

ـ لقد رقوك الى رتبة أعلى أنى أهنئك ياكولونيل !

ـ من الجائز الترقية عندما تتطلب ذلك الظروف وأرجوك أن تكونى رهن الاشارة خلال اليومين القادمين فقد أكون فى أمس الحاجة اليك حتى مساء الغد .

ولم يكن القطار من كولونيا الى فرنكفورت مثاليا ولو على الاقل فى أيام الحرب ولكننى كنت أستطيع أن أصبر على متاعبه ووصلت فى الصباح الساعة ١١ الامر الذى وفر لى تسعين دقيقة لكى أبدو فى كامل النظام والاستعداد .

وفى الساعة الثانية عشر والنصف بالتمام ذهبت الى مركز القيادة العامة وأظهرت بطاقة المرور التى تعطى لضباط أركان الحرب وصعدت سيرا على الاقدام وكان كل شيء يجرى فى غاية الاتقان وأعطيت كلمة السر وحصلت على الرد الصحيح وأشار السكرتير بحركة من رأسه الى مظروف كبير جدا وضعته فى حقيبتى وانتهى كل شيء .

وخرجت في خطوة عسكرية واتجهت الى المحطة لاركب القطار الذى يسافر الساعة ١٢ و ٥٠ الى كولونيا · وكان للاسف قطار أومينيبوس وما كان يمكن الحصول على شيء في وقت واحد وكان علي أن أقضي خمس ساعات فى السفر ولكننى لم أسـكت على الاحسـاس بأن هناك سـيدين يرتديان الملابس المدنية يقتفيان أثرى منذ غادرت مركز القيادة العامة · ولست أدرى من أين أتانى هذا الاحساس ربما كان بفعل غريزة البقـاء وحـدها وعلى ذلك لم أدهش عندما رأيتهمـا يجلسـان فى نفس العربة بالدرجة الاولى وبالطبع تجاهلتهما كما يتجاهل الضابط برتبة كولونيل المدنيين فى ألمانيا أما هما فلم يجرؤا على أن يسألا ضابطا فى مثل رتبتى وكان من الواضح أنهما لا يملكان أية سلطة للقيام بهذا أو القبض على والا لما ترددا ولانهما يشعران بوجود الجستابو على بعد مائة خطوة ·

وكان هدفهما هو اقتفاء أثرى كما كان هدفى الافلات منهما ولكننى لم أتخذ شيئا فى هذا الشأن قبل وصولنا الى بون المدينة التى أعرفها حق المعرفة · وكان فى المحطة دورتان للمياه من أجل الجمهور احداهما ظاهرة للعيان والاخرى فى مكان متواضع وهذه الاخيرة كانت تتميز بوجود مخرج لها على الشارع فدخلت فيها وخرجت بكل سرعة وعبرت الشارع الى مقهى لشرب النبيذ Weinstube على أمل تضليل المطاردين وهو ما تحقق وكانت نيتى فى ركوب قطار اكسبريس من بون الى كولونيـا وجازفت بمخاطرة أن يتعرف على صاحب المقهى ولكنه كان غائبا ·

وانتظرت حوالى ساعة وأنا أحتسى القهوة ثم صعدت الى القطار من الجانب الآخر من الشارع ولكن لم يكن رجال الجستابو من البلهاء فقد كان من الظاهر أنهم اكتشفوا أننى لابد أن أذهب الى كولونيا فأخذوا يراقبون سفر القطارات سواء الكهربية منها أم التى تسير بالبخار وهكذا قابلتهم ثانية وكادت الاقنعة تسقط وتنكشف الوجوه على حقيقتها لولا أن المجازفة بالنسبة لهم كانت جسيمة اذا ما ثبت أنهم أخطئوا ولم يكونوا ليخوضوا مثلهـا ·

ولم تكن القطارات الكهربية تقف الا مرة واحدة فى منتصف الطريق (فيسلينج Wesseling) · وخطرت لى فكرة هى القفز من القطـار لحظة انطلاقه دون أن أعطيهم فرصة لرد الفعل وكان لابد أن أفلت منهـم لان القطار يبدأ فى السفر سريعا بجميع عرباته ونفذت الفـكرة قبـل أن يكون لديهم الوقت لمعرفة نيتى وسار بهم القطار الى الجهة المقصودة !

وبصفتي كولونيل لم أجد صعوبة في الحصول على مكان في سيارة تتجه الى كولونيا ووصلت اليها دون أن أعرف ماذا سيحدث في المستقبل القريب • وأنزلني السائق كما طلبت في هوهنزلرنج وشكرني لتنازلي بتشريفه في الركوب بسيارته وعلى الفور قصدت الى « منزلي » حيث استقبلتني ربته بأذرع مفتوحة • وقلت لها :

ـ لا يزال أمامي قضاء بضع ساعات في كولونيا وبعض الاشخاص يريدون مقابلتي وأنا أود أن تبتعدي عن كل هذا! ولكني سأحضر لاسلم عليك قبل السفر وارجو أن تكوني من التفضل بحيث تجهزين شئوني بما في ذلك الحقيبة لانني سأكون في غاية الاستعجال •

ـ ولكن أين ستقضي الليل ؟ ولماذا لا تقضيه هنا ؟

ـ المكان الامين الوحيد هو كما يبدو لي نادي ضباط أركان الحرب •

ففغرت فاها من الذهول وصاحت :

ـ هل أنت مجنون يا سيدي !

ـ هو آخر مكان سيأتي اليه ورائي الجستابو وعلى ذلك فهو أكثرها أمنـا •

ـ انني لن أفهم الانجليز اطلاقا !

ووصلت الى النادي من شوارع جانبية وهو يقع في هوستراس حيث قضيت في سنة ١٩٢١ ليالي جميلة مع زوجتي (التي تزوجتها بعد هذا التاريخ) والاصدقاء •

وقدمت نفسي الى زميل رئيس الميز وصرحت له بأنني في مرور وقد استقبلني بأدب ولكنني ارتكبت خطأ مضحكا فقد كنت أحمل شارة الكولونيل وكان يجب على ألا أحمل شارات وبالتالي وضعوني وسط النخبة عند الغداء في محط الانظار وكان الاولى أن أندس بين المغمورين وربما كان هذا من الغباء ولكنني نسيت تماما أنني كولونيل من أركان الحرب • ومع ذلك كان يمكن أن يمر كل شيء بسلام لولا حدث ما كان يمكن أن أتوقعه اذ بينما كنت أتحدث مع رفاق الغداء وخاصة عن «المتاجر»

كما هي عادة الضباط العظام في أي ميز في العالم وكان الطعام ممتازا بالنسبة لبلد في حرب حيث كان السكان يخضعون لنظام البطاقات منذ وقت طويل وخلاصة القول انني تركت نفسي على سجيتها عندما اتخذت الترتيبات لاعداد النبيذ وكنت لا أميل لبعض أنواعها في الرين Rhin بسبب اعتدالها أكثر من اللازم بالنسبة لمزاجي وكان من المقرر على ألا أحتسي هذا النبيذ بتاتا في هذه الليلة ! اذ سمعت خلفي صوتا مفرطا في التملق يقول :

ــ أتتنازل في قبول كأسا من النبيذ سيدى الكولونيل ؟

وسرت في العامود الفقرى قشعريرة عندما تعرفت على صوت بول !

وجازفت بالنظر اليه فرأيت في عينيه التي تشبه عيون السمكة بأنه تعرف على كذلك ومن وقتها عرفت أن ساعاتي من العمر أصبحت معدودة ٠

وسبحت في تأمل أتفكر كيف تحولت الامور بهذه الطريقة غير المتوقعة وربما لاحظ رفاقي ما اعتراني من سرحان مفاجيء ولكنني لم أكن في حالة تجعلني أكترث بمشاعرهم ٠

فقد كان بول يلعب دائما على الحبل الذى يعطيه المال الاكثر ولم يكن ليتردد عن الوشاية بي اذا اتفق ذلك مع مصالحه وكان يمكنني بالطبع أن أعتذر واغادر المكان على الفور ولكن ما كان يمكن مغادرة مائدة يجلس عليها الضباط العظام دون تفسير وجازفت بالبقاء مدة أكثر ٠

وبعد حوالي ربع ساعة حضر الياور ليقول لى أن الجنرال يود مقابلتي وكان هذا الطلب في نظر زملائي شرف كبير ويبدو أنني ارتفعت فيأعينهم فقمت لارتدى قبعتي يتبعني الياور وهكذا لم يضيع صديقنا بول وقته !

وكان مكتب الجنرال يقع في نهاية ممر على جانبيه دورات مياه (وراودتني فكرة أنني منذ أربع وعشرين ساعة وأنا أتخيل نفسي في دورات مياه !) وعندما وصلت أمام احداها اعتذرت الى الياور في أن ينتظرني لحظة ودخلت وأغلقت الباب بالمزلاج وكان هذا المكان في الدور الارضي كما أتذكر ذو نافذة ضيقة تميل من السقف الى الارض وتطل على

الفناء الخارجي وتوصلت الى فتحها واخراج نفسى منها بشيء من الصعوبة بسبب بدانتى ولم أقفز سوى خمسين سنتيمتر واتجهت الى البوابة التى تطل على هوهستراس وكنت أعرف أن السرعة هى لب النجاح ومع ذلك لم أترك الفرصة تمر دون أن أنبه الحارس الى أنه لم يوجه الى التحية اللائقة بل وقابات رئيس الحرس لاعبر له عن استيائى وبعد ذلك خرجت الى الشارع ٠

وكم كنت أسائل نفسى كم مكث الياور أمام دورة المياه وهو يعلل نفسه بالمثل القائل « أولئك الذين ينتظرون يخدمون كذلك » وأتعشم أن يكون على جانب من الفلسفة لكى يتحمل الحالة ٠

وعدت الى « صاحبة البيت » وأخذت متاعى دون أن أنسى الحقيبة وذهبت الى مقهي باور Bawer فى نيوماركت Neumarkt وكانت مفتوحة الى ساعة متأخرة قبل الغارات وكنت أرى أنه يتعين على البقاء بها خفية وفى منتصف الليل ركبت الترام الى ليندنتال ونزلت بعد حوالى كيلو ونصف من جهتى المقصودة وكان لدى وقت طويل قبل الموعد المحدد ولكننى كنت أتفادى التسكع أكثر من اللازم فى كولونيا وكان لابد من الدقة فى النظام فى مثل هذه الحالات وأخذت أحوم حول « المطار » منتظرا عن قرب وصول الطيار والهليكوبتر ٠

وفى الساعة الثالثة صباحا وصل الاثنان وبعد خمس ثوان كنت فى الهليكوبتر وانطلقنا على الفور ويالها من روعة فى دقة الزمن !

وقال الطيار :

ـ من حسن الحظ أنك حضرت فى الموعد المحدد لانه لا ينبغى على أن أنتظر فأنا أحس بأنهم اكتشفوا وجودى وتوجد أجهزة ألمانية فى المنطقة٠

ـ ان طائرتك تحمل ما هو أثمن منى فاعمل على ارسالى خلف خطوطنا وسأستاء كثيرا لو قلت أن سلاح الطيران تخلى عنا ٠

ـ يا للشناعة ! وان دخولى معك فى ملاكمة ولو لمدة ثلاث دقائق يسعدنى أكثر من الحصول على وسام صليب فكتوريا ؟

ـ انك لن تحصل أبدا على صليب فكتوريا V. C ولا حتى صليب خشب W. C. ولكن لا بأس مع الحياة وعليك أن توصلنا سالمين معافين .

وهو ما فعله مستخدما كافة الوسائل وكانت هناك طائرات معـادية ولا شك تقوم بدورياتها وكم شعرت بارتياح كبير عندما هبطت الهيلكوبتر الى الارض وكان ذلك على ما أظن فى أنحاء سيدان Sedan وكنت أود فى أن أنام كثيرا ولكن كان لدى السلطات أفكار أخرى فدفعونى الى طائرة أقلتنى فى مدة قصيرة الى لندن وهناك قابلت الشخص المعروف وعرضت عليه كشفا بنشاطى ولم يقدم لى أى شكر وهو عادة لا يقدمه أبدا وقال :

ـ على أية حال لقد أحضرت الورق وهذا شىء يضاف الى صالحك ولكن الشبهات أصبحت تحوم حولك مما يقلل من قيمتك فى ألمانيا .

ولقد أعجبت بكلمه « ورقه » التى استخدمت فى الاشارة الى وثيقة من ثلاثين صفحة بالالة الكاتبة .

ثم تحدثت عن بول رئيس الخدم فى الفندق وقلت :

ـ لولاه لما حامت أية شبهة ولقد كاد يغمى على .

ـ اننى أوافقك وسأهتم بمسألة الهر بول وسيكون خسـارة كبيرة لنا اذ أنه بكلمة عابرة الى السلطة النازية المختصة نستطيع أن نعول على ابادته .

وبعد شهر علمنا من مصدر ثقة أن رئيس الخدم بول أصبح فى عداد الاموات فقد أعدم رميا بالرصاص بتهمة الخيانة . وهكذا توجـد دائمـا طريقة لاخطار المعسكر الآخر !

وكنت أحس طيله مدة بوخز الضمـير لأنه كان رئيس خـدم ممتاز ولكنه ارتكب خطأ فاحشا برغبته فى الحصول على دخول اضافيا ومد يده الى غير وظيفته وتماديه فى مدها الى جميع المصادر الامر الذى أسخطنى عليه نصف سخط بسبب عيشه مع زوجة طموحة مسرفة ومرة أخـرى صدق المثل الذى يقول :

« فتش عن المرأة ! » .

الباب السابع

ولم تكن الشهور الثلاث التى أعقبت ذلك قلقة مضطربة بالنسبة لى شخصيا ووقعت احداث ثم جلاؤنا بعدها عن شربورك Cherbourg فى ١٨ يونيو ٠

وخدمت بعدها بصفة مؤقتة فى مركز القيادة العامة فى القيادة الجنوبية Southern Command ولكننى لم أكن أحب دائما أن أعمل فى هيئة أركان الحرب لان اللوائح تضيق عليك كما تضيك الملابس على المرأة وتبلغ من الشدة بحيث تقضى على كل بادرة ومبادءة فردية ٠ وبناء على طلب أحد أصدقائى فى وزارة الحربية البريطانية War Office طلبت حضور محاضرات فى الالمانية والايطالية فى مركز ماتلوك Matlock لكى أتخصص فى الشرق الاوسط٠ وعندما استراح المتحنون الى اجاباتى ورفضت وظيفة الدس التى عرضوها على لاننى لا أرى أكثر مضايقة منها بين جميع المهن لم يبق سوى الحصول على زى المستعمرات وانتظار أمر السفر ٠ ووصل هذا الامر فى الوقت المناسب وفى منتصف نوفمبر كنت فى جلاسجو Glasgow على ظهر الباخرة أورونت Orontes ٠

وتم العبور حتى السويس عن طريق رأس الرجاء الصالح دون حادث وهو أمر محمود لان القافلة ولو أنها لم تضم سوى اثنتى عشر سفينة كان المعروف أنها قافلة ثمينة جدا ٠ وفى مساء وصولى الى السويس ذهبت الى الجهة المقصودة فى مركز الجيش لاستجواب المسجونين فى مهدى Mahdi على بعد خمسة عشر كيلو مترا جنوب شرق القاهرة ٠

وبعد قليل وصل فوج جديد من رجالنا وكنا خليط عجيب البعض قضى زهرة حياته فى المانيا وفى ايطاليا واكتسبت سيطرة عظيمة على اللغة بل واللهجات ولكن على حساب لكنتهم الانجليزية والبعض الاخر كان فى غاية الطلاقة فى اللغتين ٠

وكان المركز كما يدل عليه اسمه يهدف الى الحصول على أكبر قدر من المعلومات سواء من الناحية العسكرية أم السياسية من المسجونين من

ذوى الجنسيتين الذين يرسل بهم من الجبهة· وفى خلال هجوم ٤٠ـ١٩٤١ تلقى المركز أحد الجنرالات باسم كالفو Calvo وكان من العسير العثور على من يرافقه فى الزنزانة (وكان يوضع دائما اثنان فى كل زنزانة) لانه كان من أنصار الملكية ويكره الفاشست وظهر فكرة قيام أحد رجالنا بدور ضابط ايطالى · ووقع الاختيار على ·

وكان يبدو أنه من المناسب ارتداء زى ضابط فى الموقعه لان كالفو لم يكن يهتم بالمدفعية فى حين أنه كان يعرف كل ضابط مشاة فى فرقته معرفة شخصية ·

وبعد استعداد فى غاية العناية أصبحت رفيقه فى الحظيرة لمدة أسبوعين أو ثلاث لاحظت بعدها أنه لا يلزمنى أية دقة في التعامل معه اذ يكفينى اختيار كلمة منمقة لكى أوجه الحديث الى الوجهة التى أريدها فكان يندفع فى الاعتبارات التى تتعلق بالاستراتيجية العسكرية وماسوف تتجه اليه الاحداث · ولم يكن نفوره من الفاشية يعادل سوى كرهه للالمان : وكان يتنبأ بأنه لن يأتى خير من وراء هذا التحالف الذى يتنافى مع طبيعة البلدين · وكان يتناول المسائل السياسية والعسكرية بحرية تامة دون أن يرتاب فى أن كل كلمة ينطق بها يدونها مختزلون أكفاء · وليس لكلماته اليوم سوى أهمية اكاديمية ولكن كانت لها أهمية كبيرة جدا فى وقتها ·

وأخيرا تقرر أنه لم تعد ترجى منه فائدة وأن يرسل الى الهند · وقبل سفره بيومين غادرت زنزانته لكى أسترد شخصيتى · ووددت أن الاحظ رد الفعل عندما يعرف حقيقتى فعملت على أن أتولى الاشراف على نقله الى المحطة الرئيسية بالقاهرة حيث سلمته الى القائد العسكرى للقطار بايصال · وفي اليوم الموعود خرج يحيط به رجال البوليس وصعد فى السيارة التى كانت فى انتظاره ولم يلتفت حتى الى عندما جلست الى جانبه واتخذت مظهرا رسميا جدا وبقيت ساكنا وقطعنا شوطا كبيرا من الطريق عندما القى ببصره الى وصاح قائلا بالايطالية :

ـ يالك من خنزير تعس !

ولست فى حاجة الى ترجمة فهى تعبر عن دهشته البالغة حينما تعرف على وقلت له :

ــ ان الانسان يستطيع يا صاحب السعادة أن يقوم بأدوار وخاصة في زمن الحرب ٠

ــ لقد خدعتنى تماما وأنا أعترف بذلك ٠ لقد كنت أظن دائمــا أن الانجليز ليس لديهم خيال ولا يملكون أية ملكة فى التمويه أما فى القارة فهذا شيء مثير والناس تقلل من شأنكم كثيرا فى هذا الصدد ومع ذلك ينبغى للتاريخ أن يعلمنا وأنتم لم تستطيعوا تكوين امبراطورية الا بعد أن أقمت الدليل على الذكاء والمبادءة وأنا أقول لكم فى صراحة أننى لا أعتقد أنكم ستخسرون هذه الحرب اذ عندما تنــدفعون فى أمر تتغير أحوالــكم تمــاما ٠

وتمتمت بكلمــات أعبر فيهــا عن شــكرى وأنه كان رقيقــا للغاية Troppo Gentile وانفصلنا عند محطه القاهرة مع تبــادل التقــدير لبعضنا فذهب مع حرسه وذهبت ومعى الايصال ٠

ومضت أسابيع ونشاط المركز يقل وتحولت أفواج المسجونين الى خيط ضعيف من الاشخاص ورغم اعتزازى بالزملاء رأيت أن الوقت قد حان لاطلب ارسالى الى مجال أكثر نشاطا ٠

ولست أتذكر عن حادث جزيرة كريت الذى وقع بعــد ذلك ســوى صورة معتمة كما أحس بركود ذهنى سواء بالنسبة للتواريخ أم الاماكن ولست أدرى ســبب ارســالى الى جزيرة كريت وكان يقــال لى كل شيء ستجرى تسويته فى نفس المكان وفى الواقع كان نزول الالمان بالمظلات سببا يجعل من المستحيل ايجاد أى تنظيم واضطررت مع الــكثير الى أن أغادرها على ظهر الطراد أوريون Orion واصبت هذا الطراد فى عدة مناسبات من قاذفات القنابل عندما كان يمخر عباب الماء الى الاسكندرية التى وصلناها مع كثير من القتلى والجرحى ٠

الباب الثامن

وفى خلال التصريح بالاجازة الذى حصلت عليه عقب عودتى من الكريت اتصلت لاول مرة مع أعضاء .L. R. D. G جماعة العمل طويل الامد فى الصحراء Long Range Desert Group وكانت المقابلة بمحض الصدفة ولكن كان أحد رجالها قد أتى قبل ذلك وألقى محاضرة عن دور ونشاط هذه الوحدة الخاصه ٠

وتساءلت ما اذا كان يمكن لاجنبى عن هذه الوحدة مثلى أن يشترك فى عملياتها على سبيل التجربة ٠ ونظر الى ذلك الذى كان يبدو بأنه رئيسها (ولنطلق عليه اسم فيللى Villis ولو أنه ليس اسمه الحقيقى) بارتباك يتحسس الكلمات التى يستطيع بها أن يقول لى دون أن يجرح شعورى بأنه لا يحب الطوافين والطوافات وخاصة اذا ما تقدم بهم السن قليلا ومع ذلك قلت له :

— اننى أستطيع أن أظهر بمظهر الايطالى أو الالمانى ولدىتجربة كبيرة فى استجواب المسجونين ٠ وأستطيع أن أستجوبهم فى نفس المكان والحصول على بيانات تتيح العمل على الفور بدلا من اضافة ساعات أو أيام ثمينة فى ارسالهم الى الخطوط الخلفية وكلما مضى الوقت كلما ضاعت فيه المعلومات التى يمكن الحصول عليها منهم ٠

وكم دهشت عندما وجدت أن طلبى لم يرفض على الفور ومضى وقت ثم تمتم أحدهم بكلمات الى فيليس لم أسمعها وكأنه يبرز نقطه بحماس ٠

وقال فيليس :

— انها فكرة ولو أنها غير مدرجة فى المحاضر ولكن ليس ثمة ما يمنع من عرضها على القائد وهذا من شأنه تسهيل الامور وعلى أية حالى هى فكرة جديرة بأن تناقش ٠

وحضر فيليس بعدها ببضعة أيام يقول :

ـ اذا كنت لا تزال على رأيك فربمــا تقبــل أن تحضر معى لمقــابلة الرئيس الاكبر الابيض ٠

وهكذا قابلت رئيسه الذى دخل فى الموضوع دور موارية :

ـ هذه هي المسأله ففي درنه Derna يوجد مركز قيادة عــام ألمانى ايطالى والخطة الموضوعة ترمى الى مهاجمة من الارض وجمع أكبر قدر من « الذكريات » من الافراد أو الاشياء واثارة أفدح الاضرار فى أقل وقت ثم العودة من نفس الطريق ٠ ولب المسألة هو عبور منطقة الحرس دون أثارة انتباههم ٠ فاذا ما استطعنا مواجهتهم موهمين اياهم أننا أصــدقاء فسوف نكسب وقتا لا يقدر بثمن من أجل بلوغ أهدافنا ٠ وهؤلاء الحرس طبقا لمعلوماتنــا هم من الايطاليين ٠ ولدينــا ســيارتان ايطاليتــان لورى استولينا عليهما فى حالة ممتازة وهما جديدتان من الناحيــه العمليــة : وستجلس بجوار السائق فى زى عسكرى لضابط ايطالى برتبة ميجور مثلا وستقول بأنك تحضر امدادات للقيادة ٠ وربما يطلب منــك الحرس كلمة السر وبديهى لابد أن تكون هناك كلمة سر ولكننا لا نعرفها وفى هذه الحالة يلزمك أن تقوم بالتمويه فتلوح بورقة فى وجهه تدعى أنهــا قائمة المواد التى أحضرتها فى ســيارتى اللورى وســوف نزودك بالشىء المناسب وتعبر عن جهلك بكلمة السر على اعتبار أنك لا تستطيع أن تحفظ جميع كلمات السر ومهما يحدث من شىء فلا تدع للحارس أية فرصة لالقاء نظرة عما تحتويه السيارتين اللتين تكونان ممتلئتين بالرجال المهاجمــين واذا الح الحارس فى طلب تفقد محتويات السيارتين فاصدر أمرك للسائق بالاقتحام والسيارة الثانية من وراءك ولكننا لن نصل الى ذلك لو أوتينا قليلا من الحظ ٠

وهذه الخطة صورة أخرى لحصار طرواده الذى كان يحمل فى داخله المهاجمين ، فاذا كان الحرس ألمان فتحدث اليهم بلغتهم ٠ ونحن نأمل غير ذلك لان لديهم وعى كبير فى اداء أعمالهم ـ هذه هى العملية فابحثها مع فيليس أن شئت وربمــا يعن لك ادخــال بعض التحسينات فأخطرنى بمشاعرك عندما تنتهى من التفكير ٠

وغادرنا القاهرة بعد أربعة أيام لنصل الى المكان المحدد فى الصحراء بالقرب من درنة Derna حيث كان من المقرر أن ننطلق من المكان فى

سيارتي اللورى . وكان رجالنا العاملون خمسة عشررجلا مزودين بمدافع رشاشة وطبنجات أوتوماتيكية وبعض البنادق وكثير من القنابل اليدوية. وكان الشوط الاول من طريقنا بطيئا بالضرورة ومتعبا ولكننا تقدمنا فى سرعة كبيرة عند نهايته لان الطريق صار أكثر تمهيدا وفى منتصف مابعد ظهر اليوم المحدد للهجوم اختفينا فى مكان مناسب على بعد خمسة وعشرين كيلو متر جنوب الطريق الساحلى وجنوب غرب درنة وظللنا فى هذا المكان حتى قبل نصف ساعة من مغيب الشمس ثم قمنا بتنظيم تحركاتنا اللاحقة من أجل الوصول الى الطريق على مسافة عشرة كيلو مترات غرب الابنه فى الساعة ١٩ ونحن نجرى على الطريق تحت ضوء القمر الساطع فأوقدنا مصابيح السيارتين وتقدمنا الى درنة مثل أية قافلة آتية من الغرب ولم نهتم بعد ذلك فيما لو رآنا أحد من عدمه .

وتخلفت عنا السيارتان المصفحتان اللتان رافقتنا لكى ترابطان على مسافة قليلة جنوب المدينة لانه لم تكن فى نيتنا أن نعود من نفس الطريق وكان من المقرر « أن تصدر لنا اشارة النذير ، اذا ما أثيرت حولنا الشبهات . وقمت أنا من جانبى قبل البدء فى العملية ، بارتداء زى عسكرى لضابط ايطالى برتبة ميجور للقيام بدورى « الذى هو فى بساطة تدعو الى الضحك » كما قال فيللي ودعوت الله من قلبى الا تكذبه الاحداث .

وسرعان ما كنا على مشارف المدينة . ولاحظت أن لهجة الذين يسألوننا من الايطاليين هى أقرب الى الاستفهام والاستعلام منها الى الشك والظنون . ورأيت أنه يمكن باستخدام اللين فى الكلام الحصول على خير النتائج فى أقل وقت ممكن . وكان لدينا فائض من الوقت قدره عشر دقائق للتحادث اذ كان الموعد المقرر لوصولنا فى الساعة ١٩/٤٥ ووصل ضابط برتبة سيرجنت ميجور Maresciallo كان يبدو أنه قائد الموقع وانضم الى الحرس وربما كان عدد القوات العاملة فى الموقع يشتمل على ضابط شاب ولكن غيابه قد يفسر باغراء الملاهى المحلية لان الجنس الايطالى الودود وهو ليس ذى طابع عسكرى متطرف يخلط النظام بكثير من المرونة وسألنى السيرجنت ميجور .

ــ من أنت ومن أين تأتى ؟

ــ أنا الميجور فيرارى Ferrari حضرت من بنغازى ومعى لوريان بامدادات لمركز القيادة العامة فى درنه Derna . وهذه هى بطاقة

شخصيتى (وكانت قد أخذت من أحد الاسرى) وكان من المفروض أن أصل قبل ذلك ولكن السيارتين ضايقتنا فى الطريق فاخذ المحركان يتآكلان والطريق ليس مستورا !

وتفرس فى بطاقة شخصيتى وظهر الارتياح على وجهه وكانت لهجته أكثر احتراما وهو يقول :

ـ هل أستطيع أن أرى أمر الطريق يا سيدى القائد ؟

ـ أتريد أمر الطريق ؟ ان الجنرال لم يحدثنى عنه · وربما هو لم يفكر فيه لا هو ولا أركان حربه · وكل ما سلم الى من مكتبه هو قائمة طويلة بالامدادات التى أحضرتها · فهل تريد رؤيتها ؟

فأخرجت حزمة ورق من جيبى وكانت اضواء السيارة مسلطة عليها بحيث جعلتها عسيرة القراءة وقلت :

ـ أنت طبعا لا تزمع التحقق من محتويات اللورى ؟ لان هذا سيستغرق معظم الليل وقد قال لى الجنرال أن هذه الامدادات يجب أن تسلم سريعا وربما لن تجهل ذلك فى المساء لانه ستقام حفل كبير فى القيادة العامة ونحن لا نريد أن نحرم « أصدقاءنا الالمان » من نبيذهم ولا أشياء أخرى لذيذة أحضرتها معى ·

ويبدو أن كلماتى وجدت أصداء فى قلب السيرجنت ميجور Maresciallo لانه تمتم بكلمات عن « الاسراف فى النبيذ الجيد » واقترح أن زجاجتين أو ثلاث لو زادت أو نقصت لن تثير الانتباه ولم أكن لامكنه بالطبع من البحث فى سيارتى اللورى عن النبيذ غير الموجود · فقلت له أننى آسف لان كل شىء لا يمكن أن يمس ويجب أن يظل سليما ولكننى أستطيع فيما بعد أن أحصل له على زجاجة أو زجاجتين سأرسلهما له فى صباح اليوم التالى فبدا له أن هذا الكلام معقول وشكرنى سلفا وأشار الى لكى أمر بعد أن أدى التحية ·

واستمرت هذه الحقبة عشر دقائق كما هو مقرر لها بالتحديد وبذلك انتهى دورى ومع ذلك احتفظت بالزى العسكرى الايطالى لاننى قد أستفيد منه كثيرا ولا سيما أن الدوريات تحول حول مركز القيادة القامة ·

وكنت أجهل ماذا سيحدث بعد ذلك ولكن السائق كان على علم تام لانه بعد أن جاب شارعا ضيقا وصل الى ما بدا له أنه مؤخرة مبنى القيادة العامة . وفى أقل من لمح البصر نزل الرجال من سيارتى اللورى فى سكون يدعو الى العجب وتفرقوا فى الاماكن المجاورة ولم نكن نسمع أى صوت سوى اصطدام الاوانى النحاسية ورنين الصحون أو ترديد أغنية . الخ وبديهى كان الموجودون داخل المبنى لا يكترثون لما يجرى فى الخارج. وسألت السائق :

ـ ماذا سيحدث الآن ؟

وكان الامر يبدو لى وكأنه علم فأنا واقف في زى عسكرى ايطالى بجوار سائق يرتدى الحلة التى يرتديها أى سائق فى العالم فى مقدمة لورى شاغر ليس به أحد ورد على السائق :

ـ كل شىء يجرى كما هو معد ونحن نجهز كمينا فقد تأتى داورية بين لحظة واخرى ولابد من ابادتها قبل الانتقال للنقطة التالية من البرنامج حتى لا نباغت نحن بالهجوم علينا وأنا أعجب كيف لم نصادف أية داورية فهو الاحتمال الذى أعددنا له عدته وعشمنا أن تأتى الداورية كلها مرة واحدة .

وفجأة أمسك ذراعى بيده قائلا :

ـ انتبه يا سيدى هاهم ؟

وسمعت وقع أقدام عشرة رجال ، وعندما وصلوا على مسافة عشرة أمتار من الغطاء المعدنى لمحرك السيارة ، سلط السائق أنوار مصابيح السيارة على عيونهم لتغشى وكان الظلام حولنا أشد حلكة . وقد كانت هذه هى الاشارة لرجالنا ليشنوا الهجوم وسمعت صرخة مكتومة تقول :

« من هناك ! » وجاءت من ناحية الداورية ضوضاء اشتباك وصوت اختلاط أحذية ثم سكت كل شىء بعد ثوان . ولست أستطيع أن أؤكد ما ما اذا كان أفراد الداورية قد هلكوا جميعا ولكنهم كانوا فى حالة ولا شك لا يستطيعون معها القتال . وكم كانت مهمة عنيفة ووحشية ولكنها فى غاية الفعالية .

وسألت السائق : والآن ؟

ويبدو أنه كان ذكيا وذا دراية وتدريب مرموق وعلى استعداد للرد على كافة أنواع الاسئلة وفي الحقيقة كان الرجال والحق يقال من الاكفاء الذين وقع عليهم الاختيار وقاموا بالتمرن على دورهم بدرجة أصبحوا معها يؤدونه على التو بطريقة آليـة فلم تترك أية فرصـه للصـدفة أو ميـل البريطانيين الشهير الى الارتجال وهو ما أفاد كثيرا ولا شك فى تنفيـذ مثل هذا النوع من العمل · وقال لى السائق :

ـ سـوف نتقـدم الآن مسـافة مائة متر ونقبع داخل الشجـرات الموجودة عند مدخل المبنى ولسوف نشرع في العمل الرئيسى فورا وليس أمامنا سوى عشر دقائق · وكم سيتعجب الرجال من المناظر عندما يبدأ العمـل ·

ومضى بعض الوقت ·

ـ هاهم لقد بدأ العمل !

وانطلقت رصاصة أعقبتها طلقات النـيران الرشاشـة وكان صـوت انطلاق الرصاص يرد الينا مكتوما بدرجة تدعو الى الغرابة ، وربما يرجع ذلك الى أنه كان يأتى من الداخل أو أن الجـدران كانت سميـكة بدرجة تكبت الصوت وتتابعت الطلقات بسرعة وكان من السهل على أن أتخيل سقوط كل غرفة بعـد أخرى فى يد المهـاجمين · وقلت لرفيقى السائق ان عشرين رجلا كثير على القيام بالعمل فى الداخل فعلمت أنهم لم يدخلوا جميعا وأن بعضهم ظل فى الخارج لكى يبعد أية محاولة للتدخل ولقطع أسلاك التليفون وبوجه عام عزل المبنى عن الخارج ·

وكنت أجهل المسافة التى يبتعد بها هذا المبنى عن المبانى المجاورة أو مصادر التعزيزات المحتملة ولكننى أحسست بأن عقارب السـاعة تدور وأنه قد حان الوقت الذى ينبغى فيه على الرجال أن يلحقوا بنا اذا ما كانوا يريدون أن يحتفظوا بفرصة للارتداد اذ لا يعقـل الاسـتمرار فى اطلاق الرصاص والقاء قنابل يدوية فى مبنى هادىء محترم دون أن ينتهى الامر بلفت الانظار ولابد أن يحصل هذا ووصلت الضوضاء الى منتهاها وسرعان ما أعقبها الصمت ووصل الى أذنى صفير طويل ضئيل عرفت أنه اشارة العودة كما قال لى السائق وبدأت أشباح تنبعث من الظلام وتتجه الينا

فى سرعة محمودة · وكانت أعصابى فى غاية التوتر ثم أخذ الرجال يركبون السيارتين بغير نظام ظاهر وانطلقنا بمنتهى السرعة · وكنت أتوقع شخصيا أن أسمع وراءنا صفارة الانذار وضوضاء الذين يقتفون أثرنا ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل ووصلنا الى المخرج الجنوبى من المدينة واتخذنا السبيل الذى كانت تنتظرنا فيه السيارتان المصفحتان لكى تتوليان ابعاد أية مطاردة محتملة ·

ولم نتوقف الا فى فجر اليوم التالى واحتمينا بالصخور لنعد الطعام ونخلد الى قليل من الراحة وكانت درنة بعيدا جدا وراءنا وما كنا لنخشى مطاردة بعد ذلك · وعلمت تفصيلات العملية فقد ترتب على ابادة الداورية اختفاء كل دفاع من الخارج ولكن كان يوجد حارسان فى الردهة وراء باب الدخول وترتب على العمل الضرورى لاسكاتهما اعطاء نذير الخطر ·

وكان هدفنا الرئيسى هو صالة الاكل الكبيرة الموجودة على يسار المدخل مباشرة وكان يتواجد فيها عددا من الضباط يتراوح بين خمسة عشر وعشرين ضابطا ألمانيا وايطاليا انتابتهم جميع درجات الانفعال من جراء هذا الاقتحام المباغب ولم تكن طلقات النيران الرشاشة لتقلل منهذا الانفعال · فقام البعض بينما كان الآخر أكثر حرصا فارتموا تحت المنضدة ولكنهم كانوا جميعا على يقين من أنهم يعيشون ربع ساعة عسيرة ولم يموتوا جميعا بل ولم يصب بعضهم بجراح وخاب ظننا كثيرا لاننا جئنا لغرض واحد تقريبا هو مباغتة روميل Rommel الذى كان من المفروض أن يتواجد فى المكان طبقا لمعلوماتنا ولكنه تغيب فى الحقيقة ·

وقام المهاجمون بعد ترك الذين ظلوا على قيد الحياة فى حراسة قوية بتفتيش المبنى ومطاردة بعض العسكريين الثانويين وهو ما يفسر طلقات النيران المنعزلة التى كانت تنطلق من اللورى ولما لم يعثر رجالنا على أى أثر لروميل اضطروا كارهين الى ايقاف بحثهم مكتفين بالغنائم وهم ثلاثة ضباط أحدهم ايطالى والاخران ألمانيان لم ينالهم سوى اصابات سطحية ووضعناهم فى المكان الذى كان مخصصا فى احدىسيارتى اللورى لرجلين من رجالنا قتلا خلال تفتيش الجزء الاعلى من المبنى ونظرا لاننا لم نستطع أسر روميل فان العملية لم تحقق غرضها الرئيسى ولم تكلل بالنجاح الكامل ولكن لا ينبغى اغفال وضع كثير من الضباط من ذوى الرتب العالية فى حالة لا تمكنهم من الاضرار ، وما تترتب من انخفاض الروح المعنوية لدى الخصم كثيرا ازاء معرفته بأنه حتى ولو كان على مسافة نائية فهو ليس بمعزل عن هجوم مبيد يقع عليه دون عقاب تقريبا هذا فضلا عن

استيلائنا على كمية كبيرة من الوثائق أخذت من أحد المكاتب فى الطابق الاول ولست أدرى فى الحقيقة مدى قيمة ما تتضمنه من معلومات ٠

وكانت نظرة الضابط الايطالى الاسير الى العملية نظرة فلسفية بل لقد كان يحمد الحظ ان لم تنته بشر يصيبه ، أما زميليه الالمانيين فلم يكونا بشاركانه نفس المشاعر والتزاما موقف العبوس والتجهم وبملء قلبيهما السخط على اعتبار أن العمل لا يشرفنا اطلاقا ويتنافى مع قواعد الحرب ٠ وفى رأيهما أنه ما كان ينبغى مباغتنه أناس بهذه الطريقة وهم ينصرفون الى ملذات المائدة ورددنا عليهم بأنه كان عليهم أن يتمسكوا دائما بقاعدة الملاكمة فى الرياضة وهى تقضى بأنه لا بد للانسان من أن يكون دائما على استعداد للدفاع عن نفسه فى أية لحظة ٠ ولم ترق هذه الحجة فى أعينهم فقلنا لهم أن مثل احتجاجاتهم لا يستساغ أن تصدر من جنس هو مسئول عن هلاك بضع ملايين المدنيين ومن ذوى جنسيتهم والجنسيات الاخرى وأن هذا شيء وعملنا شيء آخر وكان يظهر عدم جدوى الاسترسال فى المناقشة فتركناهم وشأنهم مع انفعالاتهم ٠

وعدنا بنفس ظروف الرحيل الا فى اليوم الثانى من العودة عندما ظهرت معالم الانهاك على محرك السيارة التى تقلنا ولا شك أن « رمال النيل قد لوثته » وتلك بليه سبق أن ابتلى بها أبو الهول وانما جاءت لصالحه فى النهاية كما تقول الاغنية الشائعة التى يشوبها قليل من المجون٠

الباب التاسع

وبعد هذه الملحمة التي عملت خلالها مع الجماعة الصحراوية طويلة الامد .Long Range Desert Group L.R.D.G أصبحت بدون عمل . ومضت عشر أيام قابلت فى نهايتها صديق من أصدقاء مركز استجواب الاسرى وكان هو كذلك بغير عمل واقترح على الالتحاق بادارة الاراضى المحتلة وقفزت للفكرة وقدمنا الطلب ودخلنا الامتحان وتمت الموافقة على التحاقنا .

وبعد ذلك باسبوعين ذهبت الى اسمرة بالقطار وفى خلال ثلاثة أسابيع قادتنى قافلة من سيارات اللورى غير المريحة كانت تسير فى ظروف خطرة الى أديس أبابا ولن أعاود أبدا اجتياز عنق أمبا اللاجى Amba Alagi وألوماتا Alomata وما زال يعلق فى ذهنى سقوط الرجل والعربات فى الهاوية نتيجة قطع فى أجهزة السيارات .

وقضيت تسعة أشهر فى الحبشة ثم فى اريتريا بوصفى قائدا لمعسكر الاسرى واللاجئين الايطاليين . ولم أجد أية صعوبة مع الاسرى أما اللاجئين الايطاليين فكان بينهم بصفة خاصة نساء وأطفال ينتظرون العودة الى وطنهم الامر الذى تطلب منى الكثير من الملاينة والصبر وكذلك الحزم . وعندما تم اجلاء المدنيين الايطاليين من الحبشة أرسلت الى المنفى فى مدغشقر ولو أنهم يطلقون عليها اسم « الجزيرة » وقضيت شهرين فى ضجر وبطالة فى تاناناريف Tananarive وربما كنت سأظل مدة أطول لو لم أقابل جنرال سبق أن تعرفت عليه فى الحبشة والذى اهتم بنقلى على الفور الى نيروبى Nairobi فى خلال أربع وعشرين ساعة ومن نيروبى أرسل عشرة من بيننا الى أسمرة لتنظيم اجلاء جديد للمدنيين عن اريتريا . ووقع حادث طريف بينما كنا نعبر السودان على مركب فى النيل .

ففى صباح أحد الايام رسونا فى رصيف بدائى بالقرب من احدى القرى الموجود بها عشرة بيوت وكما هى العادة اصطففنا على طول امتداد حاجز السفينة لمشاهدة الاهالى الذين تجمعوا هم بدورهم على الشاطىء لكى

يحدجوننا بنظرتهم المتفرسة . وكانت جميع النساء بدون استثناء ترتدى من قمة رأسها الى أخمص قدميها ثيابا من قطعة واحدة من القطن ذى اللون الابيض الناصع الذى يزداد بهاء بسبب سمرة وجوههن وأذرعتهن وتتمنطقن بأحزمة بطريقة فنية . أما عن الرجال فهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم . ولاحظت أحد الرجال العمالقة يبلغ طوله أكثر من سبعة أقدام وكانت سيقانه نحيفة بدرجة لا يكاد يمكن تصديقها وكان يمسك عصاة من الخيزران ويلبس قبعة من طراز عتيق تميل ميلا شديدا على اذنه وفجأة أحس الرجل بحاجة الى قضاء حاجته وبكل بساطة أخذ يتبول فى حرية تامة أمام نظرات هالعة لثلاث أو أربع سيدات من الخدمة الثانوية اللاتى كن يتكئن معنا على حاجز السفينة . وصاحت احدى السيدات فى لهجة هسترية :

آلا توجد طريقة لايقاف هذا العار ! .

فقال القبطان : سيدتى اذا كنت تحبين أن يوقفك أحد لو كنت تقومين بنفس الشيء ؟ .

ولفتت صيحة السيدة انتباه الرجل فما كان منه الا أن اتجه الى ناحية السيدة وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ودودة جدا وأخذ يحرك قضيبه وهو ما كان يبدو لنا على الاقل وكأنه لا يجد فيما فعله أية غضاضة بل ولا حتى قلة أدب . وانسحبت السيدة من مكانها تعلوها حمرة الخجل والاضطراب وكلها حنق العذراء ، وعلت ضحكاتنا بدرجة لابد أن تكون قد أيقظت التماسيح على بعد كيلو مترات .

وبعد اجلاء المدنيين عن اريتريا أرسلنا الى مصر والتحقت بالادارة فى سيدى بشر بالقرب من الاسكندرية بعد ثلاثة أسابيع تقريبا فى مستشفى بور سودان بسبب تأثير الحرارة وعلمت أن أحد الضباط من ذوى الرتب العالية سأل عنى فى غيبتى وقال أنه سيعود فى اليوم التالى دون أن يترك اسمه أو عنوانه الامر الذى جعل الضباط الموجودون معى يغمروننى بالاسئلة التى لم أستطع الرد عليها . وفعلا عاد الضابط فى اليوم التالى فى سيارة من سيارات هيئة أركان الحرب وعندما قدمت اليه استقبلنى بكل ترحاب وحاولت أن أفتش فى ذاكرتى عن سابق معرفتى اياه ولكنه كان غريبا عنى تماما .

وبعد عبارات المجاملة التقليدية قادنى الى نادى اينيون Union Club فى الاسكندرية ودخلنا الصالون الكبيروكان غاصا فى تلك الساعة وجلسنا على مائدة صغيرة كان يجلس عليها أحد المدنيين باسم «Z» ولم يسبق أن وقع عليه نظرى قبل الآن وكذلك كنت أنا أجنبى بالنسبة اليه لان كان يحدجنى بين كل لحظة وأخرى نظرات متفرسة كما لو كان يريد أن يسبر غورى ومظهره يدل على أنه يريد أن يعرف ما اذا كان هذا الشخص الذى ينظر اليه هو الذى يجب أن يقابله وذهبنا بناء على طلبه الى أحد المطاعم الصغيرة « المختارة » وأحسست بارتياح لاننى لن أدفع قائمة الحساب التى كان يبدو أنها تكلفت كثيرا .

وبعد انتهاء الغذاء الوافر استأذن صديقى العسكرى محتجا بالضرورات العسكرية واقترح الرجل المدنى الذهاب لاحتساء القهوة فى الشرفة وجلسنا فى ركن وأخيرا بدأ يتحدث عن هدف المقابلة :

- أعتقد أن لدينا علاقة مشتركة فى لندن .

- هذا ممكن .

- هل طرق الى سمعك يوما اسم مستر سينور Senior .

- بالتأكيد .

- هل تستطيع أن تصفه لى ؟ .

فوصفته .

- هل تعرف أين يوجد مكتبه ؟ .

- على مسافة قليلة من شيرنج كروس رود Charing Crose Road وهذا فى سنة ١٩٤٠ على الاقل .

- هل تعاملت معه فى بعض الشئون ؟ .

ـ مرة أو مرتين قبل الحضور الى الشرق ٠٠ ولكن لماذا كل هذه الاسئلة ؟ أيريد هذا النسر العجوز أن ينشب أظفاره فى شخصى مرة أخرى ؟ أننى أعرف كثيرا عن أماكن أكثر أمنان ألمانيا فيما يختص بى ٠ ولقد فقدت كل صلة بهذه الامور ٠

ـ معذرة لكل هذه التفاصيل ولكن لابد أن يطمئن قلبى على حقيقة شخصيتك لانه يوجد فى هذه الاقاليم شخص يحمل اسما شبيه باسمك وبنفس الحروف بحيث يلفت النظر اليه ولهذا فانى أكترث فى السؤال حتى لا أقع خطأ فيه ٠

ـ نعم لقد سمعت عن سميى هذا ؛ ليس هنا فحسب بل فى جميع أرجاء أفريقيا وهو معروف بمرحه وقد عبر بعض الناس الذين قدمت اليهم عن استيائهم لاننى لم أكن هذا الذى يطلقون عليه اسم « الطبيب » ٠

ـ هذا صحيح ! ومن أجل هذا كنت أتخذ الحيطة ٠

ـ ومع ذلك وقبل أن نسترسل فى الموضوع أود لو كفيتنى السؤال عن نفسك ؟ فانت حتى الآن غمرتنى بالاسئلة دون أن توضح ما يبرر الحق فى أن تفعل ذلك ٠ وطبيعى هذا من باب الاحتياط كذلك لان السلطة العسكرية يبدو أنها تعتبرك غير مزيفة ٠٠٠ ومع ذلك اذا لم يكن لديك اعتراض ٠٠٠

فأخذ يضحك وقدم لى بطاقة شخصية غير عادية عرفتها على الفور بسبب التوقيع وقال :

ـ أظن أن هذه البطاقة تبدد ارتيابك ٠

وفى الواقع قدم لى شارة معدنية وقال :

ـ أننى أعمل فى هذه اللحظة لحساب العجوز وهو يعتقد أن اقتراحه سيهمك وهذا لا يتعلق بألمانيا بتاتا ولو على الاقل من الناحية المباشرة ٠ وهو يرى أنها مهمة مثيرة مثل الذهاب لمدة أسبوعين أو ثلاث على ساحل الريفيرا لتغيير الاماكن والتزام بعض الراحة والمقصود هو ساحل الريفيرا الايطالى ٠

ـ نعم انني أعرف ما يقصده العجوز من وراء مهمة مثيرة • فهو بعد أن يؤكد لك ما يريد ، ويكون قد فات الوقت الذى يمكن للمرء فيه أن يعدل عن المضى فى السبيل ، تكتشف وجود أشواك فى الطريق كان يعرفها ولكنه اتخذ كل عناية فى عدم الاشارة اليهـا معك حتى لا يثبط همة الاشخاص الذين بلغوا من الفراسة بحيث لا يرفضون كل شىء على الفور

ومع ذلك الا تستطيع أن أعرف اقتراحه •

وفى خلال نصف ساعة استمعت الى عرض للحالة من الناحية العسكرية والسياسية يعتبر نموذجا فى الوضوح والدقة ثم قال صاحبى :

ـ الذى يضايق فيما يتعلق بايطاليا من وجهة نظرنا ورغم وجود عدد كبير من العملاء المفروض أنهم ممتازين وربما كانوا أكثر من اللازم هو أن ما يأتون به من معلومات عن نوايا العدو العسكرية والاحتمالات السياسية بلغ درجة من التناقض والغموض بحيث لا نستطيع أن نسبر غورها • ونحن نشك فى أن جزءا منها قد أقحمه العدو عن عمد اقحاما • ولدينا شبه يقين عن سياسة ايطاليا فى المستقبل القريب وعلى هذا لن تشغل بالك من هذه الناحية ولكن الذى نريد أن نعرفه هو ما اذا كان هتلر يزمع الجلاء عن البلاد لكى يركز جهوده على الدفاع عن جدوده أو تعزيز جيشه فى ايطاليا لاقامة جبهة ويلزمنا الحصول على شىء أكيد لا يقبل الجدل فى أقصى مدة ممكنة • وستسافر طائرة الى مالطه بعد غد وقد حجز مكان لك فى الطـائرة • وفى لافاليت La Val، tte تـذهب الى هـذا العنوان (وأعطانى ورقة صغيرة) وتطلب مقابلة المالك ونضيف الى كلامك كلمة « أننى حضرت من أجل الطرد » • ولا نقلل من شأن مظهره بيته فهما أقل بهاء ولكنك تستطيع أن تثق فيه ثقة عمياء وسيساعدك بكل ما أوتى من وسائل واتركه يقودك فستعثران معا على أفضل وسيلة للانتقال الى ايطاليا وعقد الاتصالات اللازمة • وقد تكون أساليبه لولبية بل وقد تدعو الى الملل ولكنها ستؤدى بكم يقينا الى عقد اتصالات مع الرجال الذين ستحتاجون اليهم دون اثارة الشـبهات وبعدها يصبح الامر لكم فى اكتشـاف كل ما تستطيعون الحصول عليه واننى أعرف جيدا مثلكما أن الحظ دورا كبيرا وأنا أتمنى لكم أن تحصلوا على كل نجاح تتمنيانه •

وقلت له : لحظة واحدة • انك مثل العجوز تماما ! وأنا لم أقل أننى على استعداد لقبول المهمة • ويبدو أنك تتصرف كما لو كنت متأكد من

موافقتى وأنا كما ترى لا أزداد شبابا بل تزداد أهمية الراحة بالنسبة الى وليس من الراحة التجول فى أرجاء ايطاليا طولا وعرضا ولا يتعلق بما تقوله عن قضاء ثلاثة أسابيع على ساحل الريفييرا ! ٠

فقال : ـ يا للغباء ؟ من قال أنه يجب عليك أن تقطع ايطاليا طولا وعرضا ؟ فان لك كل الحرية فى أن تتجول كما تشاء أو هل تزعم أنك تفضل حياة سيدى بشر التى تدعو الى الضجر أو ما يعادلها من حياة مملة ؟ ٠

وبديهي لقد لمس نقطة الضعف عندى فان كل شيء أفضل من هذا الذى أشار اليه ! ٠

ـ حسنا سأذهب لاقابل صاحبك ٠ المالطى ولكن اذا حدث فشل فانت المسئول ! ٠

ـ تماما ! والآن عد الى سيدى بشر وجهز أمتعتك وخذ القطار غدا الى القاهرة ٠

وانزل في فندق الكونتيننتال حيث تتلقى تعليمات جديدة وأمر التنفيذ ٠ وسوف تلاحظ عند وصولك الى المعسكر أنه صدر أمر بنقلك ٠

وفى مساء اليوم التالى وصلتنى رسالة تحمل أمر التنفيذ واشارة بأن هناك سيارة تنتظرنى فى الصباح لتقلنى الى مطار هليوبولس ٠

وفى خلال سفرى بالطائرة الى مالطة نمت معظم الوقت ٠ وبدأت أولا أفكر فى مختلف الوسائل التى أستطيع بها أداء مهمتى ولكننى كنت أفتقد تماما المقومات العملية ومن أجل هذا رأيت أن أنتظر ما يقترحه الصديق المالطى فلن أستطيع أن أحمل شيئا بدونه وكان ٠ Z ٠ يثق بكفاءاته كل الثقة ٠

الباب العاشر

وما أن وصلت حتى أخذت أسعى عن العنوان الذى تزودت به وسرعان ما قادنى رجل بوليس ودود الى مقصدى · وكان المكان أقل بهاء كما توقعت وكان يبدو فى نظرى وكأنه متجر من المرتبة الثانية مملوء بكل ما يمكن تصوره من السلع والمعروضات وكله ظلام عندما تدلف الى داخله من الشارع الذى تستطع فيه الشمس · وكان يقف خلف المنضدة الخشبية شخص ذو مظهر رث الثياب · وسألته عن صاحب المتجر وأنا أضيف الى كلامى أننى « حضرت من أجل الطرد » · وفى الحال قادنى الى غرفة ليست نظيفة وطلب منى أن أنتظر ·

وبعد قليل ظهر رجل من أضخم الرجال الذين وقعت عليهم عيناى · وكانت بدانته تجعله أشبه بالكرة المنتفخة منه الى الانسان البشرى · ولم يكن يرتدى سترة وكانت تزين صديريته بقع من الزيت · ووجه يتسم باللين والرخاوة والضراوة وسرواله مهلهل من أسفل ولا شك أننا اذا قلنا عنه أنه ليس « جذابا » كما يقول « Z » فاننا نكون قد خففنا كثيرا من التعبير !

غير أن عينيه كانت تشع ذكاء وفكاهة وكانت أسنانه ناصعة البياض ويديه صلبة بغير ما كانت تبدو من ليونة وكان يتحدث بطلاقة لهجة أهل ماى فير **May Fair** وكم تساءلت ما اذا كانت كل هذه المظاهر ليست سوى ستارا دقيقا وكأنه كان يقرأ أفكارى لانه أخذ يضحك ويقول :

— لابد أنك تجدنى غير منظم ولكنك تعرف المثل القائل « لا تأخذ بالمظاهر » ولابد أنك تعرف ذلك فى بحثك وراء الحقيقة ·

فاعتذرت اليه ولكنه أشار الى بألا أكترث للامر وقال : تعالى معى فوق لنبدأ الحديث ·

وقادنى الى غرفة صعدنا اليها بسلام معتمة مهتزة واعترتنى دهشة أخرى لانها تختلف عن غيرها من الغرف وكانت نموذج لغرفة الرجل

الانجليزى غير المتزوج تحتوى على سجاد ومقاعد وثيرة من الجلد مريحة جدا ومكتب وبعض الصور الرياضية على الجدران ومكتبة صغيرة وشيء من عدم النظام الذى يعبر عن البساطة وعدم وجود التقيد وقال صاحبى :

ـ هذا هو المكان الذى ألجأ اليه عندما تشتد على هموم البيع فى المتجر ٠

وأخرج من عنده زجاجة بيرة وكأسين ٠

ـ ليس فى هذا الكثير ولكننا لا نجد ما هو أفضل ٠٠

وبدأ يقول :

والآن علينا أن نسعى الى ايجاد الحل لمشكلتنا ٠ وقد أعطانى Z فكرة عن مجموع الاتصالات التى قد تكون فى حاجة اليها ٠ وسأعطيك كلمة تقولها لبعض أصدقائى الذين تستطيع أن تتحدثمعهم علانية والذين سيجعلونك تتصل مع آخرين تستطيع أن تثق فيهم كذلك وسيزدادون حرصا على مساعدتك حينما يعرفون أنك تعمل ضد الالمان وليس ضد الايطاليين وأكثر من هذا تستطيع أن تعتمد فى كل مناسبة على مشاعرهم الموالية لبريطانيا ٠ وشرب جرعة من البيرة كما لو كان يريد أن يشرب نخب جميع الايطاليين الذين يظهرون نفس المشاعر ٠ واستطرد يقول :

ـ هدفك هو تجميع الحقائق الملموسة وليس الانصات الى الثرثرة فحسب وربما يلزمك الحصول عليها من مصادر ألمانية لان القادة النازيين لا يثقون كثيرا فى زملائهم الايطاليين والا لكان الامر سهلا ! وفى نظرى أنك تقدم على مهمة اما تكلل بالنجاح التام أو الفشل الذريع حسب ما اذا ساعدك الحظ أو لم يساعدك ٠ فهل لديك فكرة عن المكان الذى ترغب فى أن نبدأ فيه عملياتك ؟ وبالطبع سوف ننتهى الى اقليم تورين Turin أو فلورنس Florence ولكن هل كان لديك تفضيل لاى مكان عند دخولك الى ايطاليا ؟ وهل تعرف بعض الاماكن التى تستطيع أن تخلد اليها بدلا من أن تسأل عن السبيل كل خمس دقائق ؟

وأخذت أفكر ثم قلت : لعل المكان الذى يناسبنى هو لا رفييرا دى ـ بونانتى La Riviera di Ponente فأنا على معرفة جيدة بساحل جنوة ويوجد مكان مهجور غير بعيد من فاراتس Varazze حيث يكون

من السهل النزول به سرا ولكن هذا يدعونى الى التساؤل : كيف أستطيع السفر من هنا ؟ واذا ذهب تفكيرك الى استخدام طائرة فأرجو أن نتخلى عن هذه الفكرة لاننى لست فى حالة أستطيع بها أن أقفز بالباراشوت ولن أفعلها لاننى لن أجنى شيئا من وراء كسر ذراع أو ساق ! كما وأن الاقليم ليس مناسبا للسقوط من الطائرة .

ـ كلا اننى لا أفكر فى طائرة ولكن فى غواصة . فهى تستطيع أن تحضر بدرجة قريبة جدا من الساحل وتضعك فى قارب أما عن التستر فاننى أنصح لك بشدة أن ترتدى زى ضابط عسكرى برتبة ميجور أو كولونيل من هيئة أركان الحرب وطبيعى هذه الرتبة ليست من الارتفاع بحيث توصلك الى الجنرال ولكنها بالدرجة التى تبعد عنك حب الاستطلاع . ولا تنسى أن البوليس السرى الايطالى لا يقل كفاءة عن الجستابو . والافضل أن ترتدى فى هذا الوقت الذى العسكرى الايطالى الذى يرتدى فى نفس ايطاليا بدلا من ارتداء زى التشكيلات الفاشية التى تبعث على الكراهية تماما مثل الزى الالمانى .

فتمتمت بما يفهم منه قبولى لما يقول .

ـ ويبقى احتمال ارتدائك الزى المدنى الذى قد يثير عليك الاسئلة التى لا تلقى الى ضابط عظيم . وفى الحقيقة لدى هنا جميع ما يلزمك من الوثائق العسكرية اللازمة لكى يرتاح لها أكثر الناس حبا للاستطلاع . واحدى هذه الوثائق تنص على أنك فى « مهمة خاصة » وتطلب من كل شخص أن يمد اليك يد المعونة والمساعدة وهو ما يتفق تماما مع مجهودك القادم ! ومع ذلك فلا تستخدم هذه الوثيقة الا عندما تستنفد كل الوسائل الاخرى : والان أنصحك بأن تذهب الى هذا العنوان (وكتبه على قطعة من الورق) لكى تحصل على غرفة . ولن تلقى عليك أسئلة وبعد ذلك اذهب الى هذا العنوان الاخر فهو لصاحب محل بيع نظارات لتشترى نظارات تشبك بالانف لانها لا تسترعى الانتباه كتلك التى ترتديها الان فقد ولى زمنها وهى من طراز قديم ولم تعد تستعمل فى ايطاليا ؟ وسيقدمون لك اللازم وعد فى المساء فى الساعة ١٨ لاقل لك ما أستطيع أن أعده لك .

ونزلت مع هذا الرجل المدهش من سلالم أخرى غير تلك التى صعدنا عليها الى الغرفة أول مرة وقادنى خلال ممر أو ممرين مظلمين وخرجت الى الطريق خلف المتجر وقال لى :

ـ في المساء أطرق هذا الباب فربما تجد المتجر مغلقا وذهبت وعاينت الغرفة واشتريت النظارة التى تشبك بالانف دون أن أصادف أية صعوبة ثم استلقيت على الفراش لاقضي وقت القيلولة بسبب شدة الحرارة ثم أخذت أتجول فى المدينة قبل أن أعود الى صديقى البدين · وطرقت الباب عند عودتى ففتحه بنفسه وقادنى الى نفس الغرفة التى اجتمعنا فيها وعلى منضدة وجدت زيا عسكريا لضابط ايطالى برتبة كولونيل فى الجيش مع كل النياشين والاوسمة المناسبة ولم يكن الزى جديدا ولكنه كان فى حالة ممتازة وصنف جيد ولا بد أن صاحب هذا الزى الحقيقى كان يعرف كيف يختار حائك ثيابه ! وكانت هناك ملابس داخلية من الحرير جاءت على المقاس أما الحذاء فلم أستطع أن أستريح فيه الا بعد عمل شيء من الاوضاع الفنية ورغم شكل الحذاء الذى كان ولا شك ينير التعليقات لو لبسه ضابط بريطانى بنفس الرتبة ·

وقال صديقي : هذه هي الوثائق التي وعدتك بها · وأنت الان كما ترى تدعى برونو فرانشسكو كانافاسى Bruno Francesco Canavase كولونيل فى هيئة أركان الحرب العامة . وهاك من المال ما يجعلك تعيش فى شهر على الاقل ولكنك تستطيع دائما عند الحاجة الحصول على مال من هؤلاء الناس ·

وأعطانى ثلاث خطابات توصية واستطرد يقول :

ـ والان يلزمك مقابلة قائد غواصتك لتبحث معه التفاصيل · وسيقابلك الساعة التاسعة مساء · وتعالى غدا لتأخذ متاعك الذى أكون قد أعددته لك ·

والشيء الذى يذهل هو ما يتسم به ضابط البحرية من طريقتهم الايجابية في النظر الى الامور بروح فكهة وثقة مشعة فهم يعتبرون كل مهمة مهما تكن عسيرة أنها بسيطة سهلة واضحة ولهذا يبعثون الايحاء بالتأكد من النجاح الذى غالبا ما يكون عسير الحصول عليه عند دراسة الوقائع ·

فوجد قائد الغواصة أنه من الطبيعى جدا أن يقودنى الى جزء الساحل الذى كنت أريده ولم يجد أية غضاضة فى أن أنزل فى النقطة التى أختارها · وكانت تفصيلات الزمان والمكان ستجرى تسويتها بعد حضورى على ظهر الغواصة · وقال لى قائد الغواصة :

ـ سأحضر لآخذك الساعة ١٨ وفى خلال ذلك لدى بضع ساعات راحة على الارض فهل تقبل الغذاء معى ؟

وفى الساعة ١٩ من اليوم التالى كنت سليما اذا صح هذا التعبير فوق ظهر الغواصة حيث خصص لى مجال حيوى أشبه ما يكون بالحيز الميكروسكوبى ٠ وليس لدى الكثير الذى أقوله عن فترة الاعتقال الاضطرارية التى تلت ذلك ٠ وما زالت الغيوم تلبد ذاكرتي ولكننىأحتفظ فى ذهنى بانطباعات الضغط والصعوبة فى التنفس بدرجة لم أشعر بها من قبل ولم أكن أحس قبل ذلك بضرورة التنفس ٠ وفى الحقيقة كانت كل دقيقة تمر بألم وكم تنفست الصعداء عندما استدعانى قائد الغواصة وبسط أمامى خريطة لساحل الريفيرا الايطالى وسألنى عن المكان الذى أود أن أنزل فيه بالتحديد وقال :

ـ بحق السماء أرجوك ألا ترتكب أى خطأ ! اذ يجب على أن أحضر لالتقطك من نفس المكان فى الساعة ٢٢ بعد ثلاث أسابيع وهذه هىالاوامر ولا أريد بتاتا أن أنتظرك فى النقطة أ بينما تكون أنت فى النقطة ب ٠

وأخذت أدرس الخريطة بكثير من الانتباه فكانت ذات مقاس كبير موضح بها كل شىء حتى المبانى بما فيها تلك التى كنت أفكر فيها بصفة خاصة وهو مبنى يطلق عليه اسم انفريا Invrea (والذى لا ينبغى أن يخلط بينه وبين ايفريا Ivrea فى اقليم تورين Turin) الذى كنت أتردد عليه كثيرا خلال سنوات تدريبى والذى كنت على معرفة جيدة بضواحيه ٠ وكان يتجه من المبنى مسلك ضيق يبلغ طوله حوالى مائتى متر ويعبر الطريق الساحلى وينتهى بسلالم يمكن النزول منه الى خليج صغير عميق محاط بصخور من ثلاث جهات وغير منظور من الارض وكان يتخذ شاطئا للاصطياف ومكانا مثاليا للنزول أو الابحار من البر ولاتشاهد من الارض ما يوضع فيه من أنوار كهربية الا من ناحية السفنالتى تتواجد عند مدخل الخليج مباشرة ٠ وشرحت كل هذا لقائد الغواصة الذى وافق على المكان وقال : سأضعك فيه هذا المساء الساعة ٢٢ ٠

ـ الا يمكن أن تكون الساعة ٢١ ٠ لان المكان سيكون ظلاما دامسا واستطيع أن أصل الى فاراتس بالسيارة المحلية للعشاء هناك دون اثارة الانتباه وهو هدفى الرئيسى ٠ ففى محطات الاستحمام هذه كل اعمال تغلق أبوابها مبكرا فى اوقات الحرب فقال :

ـ اتفقنا والان البس رداء التنكر ٠

وبعد ساعة ظهرت فى زى كولونيل ايطالى وصاح قائد الغواصة :

ـ يا للسماء ! انك تشبه تماما أحد القذرة من أرباب المكرونة !

ـ أشكرك على هذا المديح وهذا هو ما أريده وما أنا أعيشه فى الواقع فلن أتظاهر بشيء بعد الان لاننى أصبحت كولونيل ايطالى والكولونيلات الايطاليين لا يرفضون أن يحتسوا المشروبات الروحية قبل الخروج ٠

ـ معنى هذا أنك تريد أن تشرب شيئا ٠

ـ لقد فهمتنى تماما ٠

فسكب قدرا معقولا من الويسكى فى كأسين وقال :

ـ حسنا وحظ عظيم والى اللقاء بعد ثلاثة أسابيع ! وكان الليل قد أسدل ستاره وظهرت الغواصة على سطح الماء وأنزلت الى البحر فى قارب من المطاط وقادنى البحار بسرعة الىالبر فى النقطة التى وقع عليها الاختيار وبعد أن قال لى « حظ سعيد يا سيدى ! » أبحر ثانية واختفى فى الظلام تاركا اياى فى أسفل السلم ومعىحقيبة صغيرة وسرعان ما صعدت درجات السلم دون أن أتخذ حماما ليليا على خلاف سيــاستى وكذلك على خــلاف عادات الكولونيلات الايطاليين كما أعلم ووصلت الى الطريق دون أن يرانى أحد ٠ وتقدمت نحو الغرب على أمل أن الحق بالعربة المحلية أو أية سيارة ترحب بأخذى وهو ما حدث وشاء السائق المجامل الذى كان مسافرا من جنوة أن ينزلنى فى محطة فاراتسى حيث أخطرنى الاهالى بنفس المودة عن الفندق الذى أبحث عنه والذى كنتأزمع أن أعقد أول اتصال مع صاحبه٠ وطلبت صاحب الفندق وسلمت اليه خطاب التوصية٠ وبعد أن قرأه أظهر كل ترحاب بحيث بدد ما فى نفسى كل ما يكون قد علق بها من شكوك حول الرجل البدين فى لا فاليت وخصص لى غرفة بصالون تكون تحت تصرفى واكد لى أنه سيتولىشخصيا الاشرافعلى راحة السنيور الكولونيل وسألنى ما اذا كنت أفضل الاكل فى غرفتى ٠ وبعد أن تناولت الطعام ظهر « مضيفى » مبديا استعداده للتحدث فى « الاعمال » وأخذ يتحدث باستفاضة ٠

ولم يكن صاحبى البدين فى لافاليت قد أعطانى أى بيان عن القيمة الخاصة للاشخاص الذين بعثنى اليهم تاركا ذلك لكى أكتشفه بنفسى ولكن ظهر أن صاحب الفندق ليس من أولئك القبيل الذين يمكن أن يسدوا الى معونة مباشرة فى أداء مهمتى ومع ذلك فكان يستطيع كما فعل أن يقدم لى قائمة بأصدقائه من ذوى مهنته فى جنوه وتورين ... الخ الذين يمكنهم أن يستقبلونى دون القاء أسئلة أو استلزام أية شكليات عادية من اقرارات الاقامة فى الفنادق وهو ما يعتبر ميزة كبرى . وينبغى أن نوضح بأن صاحب الفندق لم يكن خائنا لبلاده بل كان على خلاف ذلك شديد الوطنية ولكنه كان يرى فى بريطانيا هى الامل الوحيد الذى يمكن أن يكفل مستقبل ايطاليا وفى نفس الوقت التخلص من أولئك الالمان الاشرار questi maledetti tedeschi كما كان يسميهم . وقال فى نهاية حديثه الطويل عن آلام وطنه :

ـ أود أن أعطيك تحذيرا فرغم أن ٩٠٪ تسعين فى المائة من الناس تفكر مثل تفكيرى الا أنه لا ينبغى أن ننسى أبدا وجود بوليس الدولة وهو فى غاية القوة ولديه عيون فى كل مكان وتلك العيون منبثة فى كل مكان بل وفيما لا يمكن أن يتوقعه انسان.وأية كلمة طائشة من جانبك ستؤدى الى اجراء تحقيق حتى ولو اقتنعوا بأنك حقا الشخص الذى تريد أن تتظاهر به ولكن أى تأخير أو أى تحقيق يتعلق بحالتك سيكون مهلكا . ومن أجل هذا عليك أن تتفادى المناقشات السياسية ولكن اذا اضطررت الى ذلك فقل دون خوف أنك من أنصار موسولينى Mussolini فهى الطريقة الوحيدة للخلاص حتى يحين بعد حوالى سنة وقت التخلص من هؤلاء الاوغاد (وهالنى أن صاحب الفندق يتحدث بنفس التعبير الذى كان يتحدث به الجنرال كالفو Calvo عندما وقع أسيرا قبل ذلك بسنتين رغم أن التعبير كان شائعا ويتضمن احتقارا كامنا) .

وشكرته على نصائحه مؤكدا له أننى سألتزمها التزاما حرفيا . وبعد ذلك بقليل نمت نوما عميقا نظرا لاننى حرمت منه منذ عدة ليالى . وكان تفكير قد اتجه الى قائد الغواصة الشاب ، وكنت أرى اننى أسعد حظا منه رغم خطورة مستقبلنا وعلى أية حال فقد تفوقت عليه فى الحظ ولو فى الوقت الحاضر على الاقل .

وفى صباح اليوم التالى أخذت قطار الساعة العاشرة الى جنوة بعد تحية حارة من صاحب الفندق وكانت تراودنى فكرة جميلة هى أننى

سأجد فندقا منعزلا أستطيع أن أعقد منه اتصالات هامة معتمدا على مالدى من أوراق تحقيق الشخصية التى من شأنها أن تبعث الاطمئنان فى نفسى أى مستطلع رسمى محتمل ٠

وتعكر قليلا ما كنت أشعر به من تفاؤل عندما اقتربت من مكان الخروج الذى يؤخذ فيه التذاكر من الركاب وعلى بعد أربعين مترا من هذا المكان لاحظت أن المسافرين يخضعون لنظرات فاحصة يتفرس بها أحد رجال الميليشيا الفاشسستوكان يقفوراءه أثنان من المدنيين يدل مظهرهما بكل جلاء على أنهما من « الجستابو » ولا يفترقان فى شىء عن زملائهم الالمان الذين أعرفهم حق المعرفة واضطررت الى أن أجتاز الحاجز مع رفاق السفر وسلمت تذكرتى متعمدا تجاهل الرجلين اللذين يرتديان الملابس المدنية ويقفان وراء رجل الميليشيا ٠ ولم يشأ هذا الرجل أن يؤدى الى التحية وبالطبع جعلته يحترم النظام ٠

وكان الفندق الذى ذهبت اليه يتواجد فى شارع جانبى غير بعيد من المحطة ولم يكن هذا الفندق ذو بهاء ولكن كانت تتردد عليه أرقى طبقات المجتمع فى جنوه بحيث ما كان وصولى ليثير أى تعليق أو حب استطلاع من موظفى الفندق أو من يرتادونه ٠ وأظهر مدير الفندق بشاشة عندما علم أننى آت من عند صديقه فى فاراتس وصعدنا الى غرفتى وسألته ما اذا كنت أستطيع أن أستعمل التليفون للاتصال بالعنوان الثالى المدون فى مفكرتى حتى لا أضيع وقتا تعارض فى أدب ولكن بحزم قال :

ـ نعم يا سيدى الكولونيل أنا أعرف هذا الشخص انه مدير بنك وهو جذاب وتستطيع أن تثق فيه تماما ولكن التليفون ليس وسيلة أمينة فمنذ سنة ارتكب غلطة بسيطة دون أن يحتاط وليس فيها شىء جدى ! انما هى ملاحظة عابرة ولكنها ربما كانت طائشة التقطها البوليس ومن وقتها وتليفونه مراقب وكذلك تليفون مكتبه ومحل اقامته والافضل أن تذهب بالترام الى ما يجاور هذا المنزل وأن تتقدم الى زوجته لكى تخطره عند ما يعود الى الغذاء ولتقوم بتنظيم اجتماع بينكما وزوجته كذلك يمكن أن تكون محل ثقتك وأنت مطمئن ٠

وشكرته كثيرا وذهبت الى العنوان سيرا على الاقدام ووصلت اليه بعد نصف ساعة ٠ ولحسن الحظ كانت الزوجة فى البيت على وشك الخروج

فشرحت لها ما أريد وقبلت عن طيب خاطر أن تخطر زوجها بوصولي وفي نفس الوقت دعتني للعشاء عندهما في نفس المساء · واعترضت بأنني قد أثير لهم الهم والقلق فقالت :

ـ ليس ثمة أي قلق أو هموم تعوق زوجي أو نعوقني عن اسداء كل معونة لتخليص ايطاليا من هؤلاء الغزاة الالمان وهؤلاء الاوغاد الفاشسست ·

فقلت لها أن هذه الكلمات تتفق مع مشاعري ولكن اليس من عدم الاحتياط أن نتفوه بها أمامي وأنا أجنبي فأخذت تضحك وتقول :

ـ دعك من الهراء ! فهذه الورقة المكتوبة الى زوجي والى أظهرتها لي أعرف خطها جيدا وهي أفضل ضمان فسلمها له هذا المساء حتى يمزقها بعد قراءتها ولكن لا تدعها تسقط في أيدي غير أمينة لان الامر سيكون في غاية الخطورة · وللاسف لسنا وحدنا الذين نعرف هذا الخط · واذا ما أتيحت لك الفرصة فقل لصاحب الخط أن يغير من خطه وأن يقرأ الصلوات على روح السنيور B · ثم قالت أنها مضطرة الى الخروج بسرعة وان تصدر الاوامر لاعداد الطعام بما يليق بالمناسبة وقالت وهي ذاهبة الى سبيلها : عد في الساعة ٢٠ ·

وفي المساء كانت الليلة من أسعد الذكريات التي تعلن في ذهني فلم يكن العشاء ممتازا فحسب بل غمرني مضيفي بكل ما هو رائع· وتساءلت في البداية عن سبب مثل هذا الاهتمام برجل أجنبي مثلي وعلمت خلال الحديث أن شقيقة رب البيت متزوجة من رجل انجليزي ويقيمان الان في لندن وكان صاحب البيت يقاتل بجوار البريطانيين في لا بيافي La Piave خلال الحرب العالمية الاولى ويمس بكثير من الوثائق والصلات التي تربطه بهذا الجنس الذي هو أقرب الى أن يبعث على الاقامة ، هذا الى جانب ما يشعر به صاحب البيت من كره يصل الى درجة التعصب ضد كل ما هو ألماني أو فاشستي بحيث يفسر ما يتخذه ازائي من موقف ·

وبعد العشاء وعندما تأكدت من استطاعتي الثقة فيهم أخذت أشرح لهم سبب تواجدي بين ظهرانيهم واسترسلت في ذلك لابين لهم كم كانت الصعوبة في البداية للاتصال بشخص لا يستطيع أن يصل الى المعلومات التي أريدها فحسب بل وان يقوم بتزويدها اياي بهذه الوسيلة أو تلك وقلت :

ـ واتهم هو فى الحصول علىمعلومات ملموسة أما الثرثرة والشائعات فليس لى حاجة اليها على الاطلاق ٠

وأعقب ذلك فترة من الصمت الطويل أخذنا نفكر خلالها واعترف أننى أستطيع أن أنتبه بتفكيرى الى شيء ٠ وكنت لا أحس بأية فكرة انشائية لدرجة أننى تخيلت أن أذهب واتسلل الى مركز القيادة العامة الالمانية وأشهر فى وجوههم المسدس ليعطونى المعلومات المطلوبة ! ومن أجل تحطيم جدار الصمت الذى صار مضنيا قصصت عليهم ما راودتنى من تفكير ولم أجد من المستمعين سوى ابتسامة الاشفاق وقال مضيفى ٠

ـ كلا بل لابد من العثور على شخص مرغوب Persona grata لدى الالمان ويستطيع الاتصال بهم ٠

وصاحت زوجته : آه نعم ! ان الكولونيل العجوز L فى فلورنسا يشغل منصب أشبه بحلقة اتصال مع القيادة العامة المحلية الالمانية وهو لا يحب الالمان ولا الفاشست وهو لم يعين فى هذا المنصب الا لكونه يتكلم اللغة الالمانية بطلاقة ٠ وربما يستطيع أن يقدمك الى بعض أعضاء القيادة الالمانية الذين هم على درجة كافية من العداء للنازية بحيث يستطيعون معاونتنا ٠ وعلى أية حال لا يوجد أى خطر من كتابة خطابات توصية تأخذه معك الى هذا الرجل الطيب وسواء أكان من الذين يساعدونك أو لا يستطيعون مد يد المعاونة فتأكد أنه لن يشى بك أو يبلغ عنك ٠

وشكرتها على التوصية التى كتبتها بيدها والتى وضعتها فى جيبى ثم قلت :

ـ وعلى فكرة مادمت سأذهب الى فلورنسا فاننى قد أبوح لكم بشيء فليس لدى غضاضة فى أن أخبركم بأن لدى خطاب توصية الى المركيزة التى تسكن على مشارف المدينة فهل سمعتم عنها ؟ وربما كانت هى على معرفة بالكولونيل L ٠

فتبادلوا نظرات سريعة وتجهمت معبرة عن ارتياحهم وقال مدير البنك :

ـ نعم نحن نعرفهم ولو من ناحية السمعة على الاقل فهى كما يقال يتردد عليها عدد من الضباط بل وتقيم حفلات عشاء واستقبال تكريما

لهم وقد أثار نشاطها كثيرا من التعليقات هنا بالطبع يعتبر الالمان حلفاؤنا! ومع ذلك أرجو أن الفت نظرك الى أن تلتزم غاية الحرص فى علاقتك مع هذه السيدة ٠

وسألت الزوجة : من هذا الذى اقترح عليك بحق السماء أن تتصل بهذه السيدة ؟

ـ نفس الشخص الذى أعطانى توصية اليك فتبادلوا النظرات مرة أخرى فى دهشة بالغة ٠ وقال الزوج :

ـ هل أستطيع أن أصدقأذناى ؟ وصديقنا ليس من عادته الخطأ واذا كان قد ضمن لك هذه السيدة فلابد أنها نجحت فى اخداع كل الناس ٠ ويحزننى أن أقول قد راودتنى الهواجس من قبل بشأنها ولكنها يالها من ممثلة بارعة ! وهكذا هى فى جانبنا ! اننى لا أكاد أصدق ، ومع ذلك اذا كان الامر كما تقول فان مهمتك تصبح أسهل مما كانت تبدو أول مرة ٠ فهذه السيدة على صداقة بضباط هيئـــة أركان الحرب ومن المرجح أنهـــا تعرف الكولونيل « L » ومن المحتمل أن ننجح بمساعدتهما ٠ ثم نظر الى الساعة واستطرد يقول :

ـ معذرة أعتقد أنه حان الان وقت عودتك الى الفندق ونحن ننام فى جنوة مبكرا ٠ ويخشى أن تلفت اليك الانظار بمسيرك فى شوارع مهجورة واتمنى لك حظا جيدا واتصل بنا ان أمكنك لتخطرنا كيف تسير الامور ٠

ـ شكرا على كل هذه الحفاوة والمجاملة ٠ واذا ما كان الحظ فى جانبى فسوف أعود بعد خمسة عشر يوما وأحيطكم علما بأخبارى ٠ ولابد لى من السفر فى صباح الغد لان وقتى محدد ٠

وكانت رحلتى الىفلورنسا مريحة ولو أنها تبعث على الضجر ولكن هذا الضجر قد يكون مرغوبا فى بعض الحالات ففى منتصفبعد ظهر اليوم التالى أقمت فى فندق صغير ولكنه مريح وصفه لى مدير البنك فى جنوة بأنه فندق « أمين » ٠ وبعد الاستحمام وجدت أنه لامفر من أن أعقد اتصال مع المركيزة فى أسرع وقت ممكن وتذكرت التحذير بشأن التليفونفعقدت العزم على أن أقطع نصف الطريق بالسيارة والنصــف الآخر ســيرا على الاقدام ٠ وبعد الساعة ١٨ بقليل طرقت باب فيلا منعزلة ذات مظهر فخم

تقع على مشارف مدينة فلورنسا ففتحت لى الباب خادمة قالت : ان المركيزة هنا وهى متوعكة المزاج ولا أظن أنها تستطيع أن تستقبلك ولكننى الححت فى ضرورة مقابلتها وقلت :

ـ قولى لها أن الكولونيل كانافيس يحمل لها رسالة شخصية عن أخبار بن عمها ٠

وما كنت لاخشى شيئا لان كل الناس فى ايطاليا لهم أولاد عمومة وكنت أرمى من وراء قولى الى اثارة حب استطلاعها ٠

فأشارت الخادمة الى مكان فى الردهة وعادت بعد قليل لتقول ان سيدتها ستأتى على الفور والتفت ذات اليمين وذات اليسار ثم جلست أنتظر ٠

الباب الحادى عشر

وبعد عشر دقائق فتح الباب وظهرت سيدة على خلاف ماكنت أتصوره تماما · ولست أدرى ما الذى كان يجعلنى أتصورها سمراء قصيرة ذات عيون عسليه · أما السيدة التى كانت تقف أمامى فقد كانت فارغة الطول تبلغ خمسة أقدام وتسع بوصات شقراء وبشرتها بيضاء ضاربة الى الحمرة التى تثير الاعجاب وكانت عيونها تشع زرقة وخلاصة القول أنها كانت نموذج نساء الشمال · وكان يبدو أن عينيها متعبتين عندما ألقت الى بالتحية وكانت تبدو أنها متوترة الاعصاب وعلى أهبة الاستعداد أما عمرها فهى تناهز الخامسة والثلاثين ·

وبعدما أحسست فى قلبى اطمئنانا الى أنها هى المركيزة ، اقتصرت على أن سلمت لها التوصية التى كتبها صديقى فى مالطة وانتظرت أن تقرأها ولكنها نظرت الى بابتسامة يشوبها شىء من الخبث وهى تقول :

ـ شكرا ياكولونيل على أخبار بن عمى ويظهر أنك من أصدقائه الاعزاء كما يبدو من ملاحظاته عنك ؟ هل هو يقوم بعلاج نفسه من الآفراط فى السمنه ؟ ·

ـ ليس تما أعلم اذ أن كروبته القوية تبدو دائما على ماهى عليه تماما مثل حبه للفكاهه ·

ـ نعم فان الرجال من طرازه يتدثرون فى أغطية من الهدوء الذى يبلغ من الكثافة بحيث لاشىء يمكن أن يعكر صفوه ·

وأشارت الى أحد القاعد الوثيرة الذى ذهبت لاجلس عليه وقالت :

ـ ولآن قل لى كيف استطيع معاونتك · واذا كنت استطيع أن أساعد أحد الآن فان هذه المدينة أصبحت منذ مدة وكرا للدسائس دون سبب خاص الامر الذى جذب اليها عدد كبير من رجال البوليس الايطاليين والالمان ، وأصبحت المدينة غاصة بهم وصارت الحالة خطرة وأتعشم أن

تصل الى غرضك فى قليل من الايام لان الاجانب سرعان ماينكشف أمرهم ويثير الشبهات حول كل من يتصل بهم وأظن انك تفهمنى جيدا ولست أريد أن أكون موضع شبهة ٠

فشرحت لها بالتفصيل أسباب تواجدى فى المدينة واقترحت عليها أنه ربما كان من المفيد العثور على وثيقه أو نسخة فى ملف « سرى جدا » فى مركز القيادة الالمانية وقلت :

ـ ان مايهمنى هو أخذ الوثيقة خلال المدة الكافية لنسخها وارجاعها فى أسرع مدة ممكنة وبديهى يجب ألا يلاحظ غياب الوثيقة من الملف أيا كانت الظروف فقالت :

ـ ولكن ماذا نقترح يا صديقى من أجل الحصول على الوثيقة ٠٠

ـ ليست لدى أية فكرة ومن أجل هذا حضرت اليك على أمل أن تقترحى على فكرة لاننى أصدقك الرأى لا أكاد أقوى على التفكير ومع ذلك فان صاحبنا فى مالطة يشك حقا فى مدى قدرتك وكفاءتك على ايجاد مخرج ٠

ويبدو أن قولى هذا عن رجل تقدره هى حق التقدير قد لمس الجانب الذى تحبه رغم أنها احتجت بأننى اطلب المستحيل ولكننى استطردت فى قولى :

ـ لدى خطاب توصية للكولونيل « سا » وهو ليس من صديقنا فى مالطة ولكنه من مدير بنك فى جنوه وبالطبع أريد أن أخذ رأيك فى هذا الخطاب قبل أن استخدمه ٠

وكان يبدو أنها سرت لهذا القول كذلك لانه رغم كل ذكائها وجاذبيتها فانها كانت تضعف أمام المديح والاطناب وقالت :

ـ طبيعى أن أعرف جيدا هذا العجوز سا وهو يتردد علينا كثيرا وهو يقوم بدور الاتصال مع مركز القيادة الالمانية دون أن يخفى أن هذا الدور لا يروقه بتاتا وهو لايحب كثيرا رفاقنا فى السلاح ولكن الغريب أنه على صداقة بميجور يدعى فريتز وكلاهما من هواة جمع طوابع البريد ٠ وآنا متأكدة من أن كليهما من أشد المحبين للسلام و« سا » يكره العنف ويقاس

مما تستلزمه مهنته من واجبات أما فريتز فهو أقرب الى المثقفين منه الى العسكريين ويرى أن الحرب الحالية ليست تتمشى مع أى منطق وغير ذات موضوع كما قال لى منذ مدة طويلة فى أحد لحظات صفائه ولكننى اعتقد أن وراء موقفه هذا من النازى سببا آخر وهو لاشك يعارض النازى ولكن لابد أن نعرف الى أى مدى ولسوف أدعو الكولونيل « سا » للعشاء هـذه الليلة ونظرا لانه من المقربين الى فريتز فربما يذكر لى شيئا يساعدنا عـلى وضع خطة للعمل ٠ ونحن نستطيع الاعتماد على .L، فهو معنا ولو أنه ليس واحدا منا اذا كنت تفهم ما أقول ٠

فاعترضت بقولى :

ـ ربما لم يكن حرا فى كل ما يعمله ٠

ـ هذا صحيح ! ولسوف يحضر عندما أطلب منه ذلك ويبدو أنهـا كانت واثقة من نفسها وكانت على حق لان .L، ظهر فى الساعة المحددة للعشاء وكان رجلا رفيعا يتخذ مظهر الاساتذة كثيرة المجاملة ويبـدو على ثقافة واسعة وقدمتنى المركيزة على أننى صديق قديم جدا لم ترنى منـذ وقت طويل ٠ وخلال العشاء الذى كان فاخرا ولم يتعرض لقيود التموين اقتصر الحديث على موضوعات عامة تكلم فيها .L، بذكاء واختصاص ثم انسحبنا الى القاعة لاحتساء القهوة ٠

والغريب أن Fritz كان هو أول من تحدث عن فريتز Fritz وقال لمضيفته :

ـ أنت تعلمين أننى حزين على الميجور فريتز فقـد ماتت زوجتـه وأصبحت ابنته هى كل شىء بالنسبة اليه ولكن حدثت أمور سيئة بينهما وبين السلطات النازية فى بون حيث يقيمان ولست أدرى على وجه التحديد ما وقع ولكنه يشعر بغضب شديد ضد الحزب ويعبر أمامى بكل ما تحمل الكلمات من معنى عن حقده الشديد وبدرجة طائشة بحيث لو سمعه آخر لكانت فيه نهايته ٠

وتبادلنا النظرات أنا ومضيفتى واقترحت هى عليـه أن يدعوه الى العشاء وقالت :

لماذا لا تصطحبه فى مساء الغد للعشاء فأنت تستطيع أن تقوده فى الحديث بدرجة أسهل منى وربما اذا تبادلنا معه الحديث لخففنا عنه شيئا .

ووعد «L» باحضار فريتز فى مساء اليوم التالى وشكر المركيز واستأذن فى الانصراف وبقيت مع المركيزة أستعرض الحالة على ضوء هذا النبأ الجديد لان رجلا مثل فريتز كما قالت الماركيزة غرق الى الاذقان فى اليأس نتيجة مساوىء حقيقية أو خيالية يستطيع أن ينتقم أيا كان الثمن . ولو عملنا ببراعة لامكننا أن نجعله يختلس الوثيقة التى أسعى اليها بشرط أن يأخذها ويروها دون أن يلفت الانظار . ومن الامور الاساسية أن يبقى المعسكر الآخر فى جهل تام عن سرقة الوثيقة بصفة وقتية ليس لانه لو علم بذلك فانه يغير من خططه فحسب بل وكذلك بسبب ما يتطلبه الامن بالنسبة لنا وفى هذه الحالة تقل فرصة حصولى على نسخة لان جميع قوى الجاسوسية المضادة ستجند فى أثرى . وما كانت فكرة وقوعى مع الوثيقة فى أيدى المعسكر الآخر لترتاح لها النفس ولو فرض وحصلت هذه الكارثة فكان من العسير ولاشك الثور على البراعة الكافية التى أفتقدها فى هذه الحالة لتخليص نفسى من هذه الورطة بنجاح .

وفى مساء اليوم التالى كان «L» وفريتز موجودين فى الفيللا منذ بضعة دقائق عند وصولى . وابتداء من اللحظة التى قدمونى فيها اليه لم تغادرنى فكرة أننى سبق أن قابلته فى مكان ما منذ زمن بعيد جدا ربما كان بين سنة ١٩١٨ ، سنة ١٩٢١ عندما كنت أقيم فى بون وفى كولونيا مع جيش الراين Rhin ولكننى لم اتوصل الى تجسيم شخصيته فى ذاكرتى ولا بد أن اسم هو لقبه وهو يتخذ مثل هذا اللقب على الطريقة الالمانية عندما يقدم نفسه الى الناس . ومع ذلك فعندما أخذنا نتناول المشروبات التى تجلب الشهية أخذ يزداد اعتقادى بأننا كنا على علاقات ودية جدا . فكانت حركاته ولهجته فى الكلام وانفه الطويل الرفيع وقامته التى تبلغ ستة أقدام وبوصتان وعيناه الزرقاوتان الجميلتان تذكرانى بشىء ما . وكان يلزمنى أن أكون فى غاية الحرص عند الاشارة الى اصدقاء كنت أعرفهم فى جيش الراين فقد يتعرف على ويدفعه هذا الى أن يتساءل عن السبب الذى يجعل ضابط بريطانى سابق يتستر فى زى عسكرى ايطالى وبالطبع لابد أن تساوره الظنون ، وفى خلال الاجتماع كنا نتحدث اللغة

الالمانية فقط لان المركيزة كانت تطلق لنفسها العنان فى هذه اللغة وكان فريتز يتحدث الايطالية بصعوبة · واستمر الحديث بعد العشاء يدور حول مواضيع عامة ولكن كلما خضنا فى الحديث كلما سرح فريتز بحيث أخذ يتابع الحديث بمشقة وأخيرا سكت تماما وبعد هنيهه قال له « سا » ·

ـ معذرة يا صديقى فأنا أعرف مدى تأثرك وأنا اقترح عليك اذا كان ذلك يخفف عنك أن تسرد مشاغلك على أصدقائنا · فأنت تستطيع أن تعتمد على تجاوبهم مع مشاعرك وعلى كتمانهم ، ومن يدرى ، فلربما آتوا اليك بما يهون عليك الامر وتأكد من أن ماتقوله لن يخرج من هنا ·

ومضت لحظات من الصمت كان يتأمل فريتز خلالها هذه الكلمات وكم كانت لحظات قاسية علينا لانه كان يبدو فى أقصى درجات العصبية وأخيرا تكلم :

ـ سأقول لكم كل شيء وربما كان فى ذلك خيرلى · ومعذرة اذا كنت أضايقكم · ·

« لقد توفت زوجتى بعد قليل من مبلاد بنتى عقب نشوب الحرب العالمية الاولى بمدة · وفى هذه الحرب كنت أقوم فى آلاى من الحرس انبروس كما كان يعمل والدى من قبل ولو أنه نال سخط السلطات بسبب زواجه من انجليزية · وهكذا ترون (وقال ذلك فى ابتسامة حزينة) أن نصفى انجليزى وأنا اتحدث جيدا اللغة التى علمتها اياى والدتى · ولقد ماتت عندما كان عمرى أربعة عشر عاما ومن وقتها وأنا افتقد تعلم اللغة الانجليزية مشافهة · ولقد صادمت صعوبة عند دخولى لالتحق بالحرس بسبب أصلى المولد ولكننى نجحت فى النهاية · وعندما انتهت الحرب عدت الى منصبى المدنى فى أحد المصارف ونظرا لبعض كفاءتى وصلت سريعا الى المناصب الكبيرة · وفى سنة ١٩٢١ أرسلت الى فرع بنك ألمانيا فى كاتوفيش Kattovice بوصفى مديرا مساعدا وكان على زوجتى وابنتى أن تلحقا بى ولكن أسفرت نتيجة الاستفتاء الذى أجرى فى سبليسيا العليا عن تخصصى فى بون وترتب على وفاة زوجتى فجأ زيادة حبى لابنتى وأصبحنا لا نفترق مما أثار سخرية أصدقائنا فى أدب · ومضت السنون سعيدة مسالمة حتى تقلد هتلر وعصبته الافاقين زمام الحكم · وكنت أحس من البداية بنفور من أعمالهم ووحشيتهم وكنت أنقل ولا شك مشاعرى الى ابنتى · وقد حرصنا على أن نبتعد عن أية سياسة على أمل أن تنحسر

سريعا هذه الموجة من الارهاب التى اجتاحت البلاد وتأخذ معها أولئـــك المسئولين عنها ولكن للاسف ! كانت آمالنا سراب ! ثم عقدت خطبة ابنتى وتزوجت منذ سنتين بطالب من الجامعة كأبهى ما يكون الطلاب وكانا فى غاية السعادة وكنت سعيدا بسعادتهما وبعد ذلك ببضعة أشهر استدعيت للخدمة العسكرية والله وحده يعلم السبب لاننى كنت قد تجاوزت سن التقاعد وربما كان السادة الجدد فى حاجة الى ضـــباط قدامى فى الجيش النظامى لالحاقهم بهيئات أركان الحرب . وأرسلت الى ايطاليـــا . وكنت أتلقى من ابنتى رسالة أو رسالتين فى الاسبوع حتى تاريخ قريب منـــذ شهر وكانت تقول فى رسائلها انها سعيدة كما كانت كلماتها تشيع مرحا وحيوية . وفجأة انقطعت الرسائل . ومنذ خمســـة عشر يوما وصلتنى ورقة مكتوبة من صديق قديم جاءتنى بطريقة لولبية ، تخبرنى فيهـــا أن صهرى قبض عليه بتهمـــة غير معروفة وأنه اختفى وكذلك اختفت ابنتى التى هى كل شىء لى فى الحياة دون أن تترك أثرا وقال صديقى أنه يجهل كل شىء عنها . ويؤسفنى أن أكون قد أثقلت عليكم بهذا الحديث الشخصى الطويل ولكنه سيوضح لكم السبب الذى يجعلنى نصف مجنون من الخوف والقلق . وطبيعى المسئول عن اختفـــائهما هو الجستابو . وفكرت أولا فى أن ألجأ الى السلطات العســـكرية لافتتـــاح تحقيق ولـــكننى عرفت أن البوليس المحلى ربما يرد بأنه لن يستطيع أن يفعل شيئا فى تقـــديم أية معلومات وأنه قد يأتى من الاضرار ما يفوق أى خير . ونظرا لوقف اعطـــاء تراخيص بالاجازة وعدم اعطاء أى ترخيص منها الا بذكر تفاصيل الاسباب لم أشأ أن أتقدم بطلب حتى لا أتورط فى أسباب جديدة ولانه كان سيرفض طلبى على أية حال ولكن تأكدوا من الآن أننى أعتبر نفسى غير مرتبط بأى ولاء ازاء حكومة فى مثل تلك الوحشية ، وأكثر من ذلك أنا على استعداد لان أفعل كل ما فى استطاعتى لاخلص بلادى من قوى الشر التى تقودها الى الدمار ! فاذهبوا لتقولوا كل ما تفوهت به الى القيادة العامة فلست أخشى شيئا بعد الآن !

ورمى ظهره على المقعد وأغلق عينيه كما لو كان ينتظر جوابا .

وكنت أفتش فى جوانب ذاكرتى خلال الشـــطر الاول من كلامه عن المكان الذى سبق أن قابلته فيه وسرعان ما تذكرت عندما تحدث هو عن كاتوفيس . وكان فعلا ذلك المصرفى الذى يتقد حيوية ولا يعبأ بأى شىء فى

العالم وكثيرا ما ترددت عليه فى سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ ولم يكن غريبا أن عجزت عن التعرف عليه فى البداية بسبب ما يبدو على وجهه من شحوب بتعارض تماما مع الرجل الذى يمتلىء فتوة من قبل ٠

وردت الماركيزة على ملاحظته الآخيرة :

ـ عزيزى فريتز ! أمامك ثلاثة أشخاص يحبون مثلك أن يروا نهـاية الدكتاتوريات النازية والفاشية ٠ فهل أنت على استعداد حقا لان تفعل أى شىء فى سبيل الوصول الى هذا الغرض ٠

ـ نعم اننى مصمم تصميما أكيدا ولكن كيف العمل ؟

سأقوله لك ٠ أولا يجب هزيمة النازيين والفاشيين عسكريا فاذا تم ذلك فان كل شىء بعد ذلك يصبح سهلا ٠ أما الآن فانه من الاهمية بمكان أن يعرف الاشخاص الذين هم مثلى ومثلك يسعون الى هزيمة الاثنيين أن نعرف نواياهم بصدد تعزيز القوات الموجودة فى بلادنا وهناك من الدلائل ما يشير الى وجود وثيقة تحتوى على هذه النيات فى هيئة أركان الحرب ٠ فهل تستطيع أن تحضرها الى هنا ؟ وستعيدها بعد ساعة أو أثنتين وتقوم أنت بوضعها فى مكانها فى أول فرصة لان لايجب أن يلاحظ غيابها بتاتا٠

ـ نعم استطيع ذلك (وقالها بعد أن دبت أول مظاهر الحمـاس فى أنحاء جسمه) وسأشرف فى ليلة بعد غد وسيكون مفـاتيح الخزائن التى تحفظ فيها الوثائق الهامة جدا ٠ ويستطيع «L.» أن يحضر لمقابلتى فلن يثير هذا أية شبهة لانه معروف جيدا وسأسلمه الوثيقـة التى سيحضرها لكم ويعيدها بعد حوالى ساعة وسأعيدها مكانها ويمر كل شىء فى سلام ٠ ولكن ما سبب كل هذه المتاعب اذ أستطيع أن أقدم لكم ملخص مذكرة ٠

فقالت الماركيزة :

ـ كلا من الاهم الحصول على نسخة ٠ لان التقرير الشفهى لا يكفى ٠

ـ حسنا سيحضرها «L.» قبل الساعة ٢١ فى ليلة بعد غد : وأملنا أن تكون هذه أول خطوة فى تدمير هؤلاء الاوغاد المناكيد !

وبعد ذلك بقليل تركنا «L» وفريتز لوضع تفصيـلات العمليـة • وبقيت لحظة لارى ما اذا كان من المناسب أن أكشف شخصيتى لفريتز وكنت شخصيا أرى أنه سيسر من تجديد صداقة قديمة ولكن الماركيزة رأت أنه ربما لم تكن اللحظة مناسبة الآن وبقينا على ذلك • ثم تناولنـا موضوع آخر هو : ماذا أعمل بقية الوقت الاضطرارى الذى على أن أقضيه فى ايطاليا اذا ما نجح «L» فى احضار الوثيقة خلال ثمان وأربعين ساعة ؟ وكان من الرائع الحصول على وثيقة ثمينة بمثل هذه السرعة والامن ولكن ابقائها معى خلال اثنى عشر يوما لم يكن مما يبعث على البهجـة وقالت الماركيزة :

ـ عد يا عزيزى الى الفندق والتزم الهدوء خـلال هذين اليومين وعد الى هنا بعد غد فى المساء حيث لن أستقبل أحدا سوى «L» وسأجعلك تقيم هنا طيلة ثلاثة أيام ولكن ليس أكثر من هذا فأنا لا أستطيع أن أجـازف باثارة شائعات رغم ثقتى فى الموظفين والخـدم وأنت تعرف مدى ترويج مثل هذه الشائعات • ولسوء الحظ أننى مضطرة الى أن أستقبل فى خلال الليلتين اللتين تليان الليلة المعينة بعض الضباط الايطاليين والالمان عند العشاء • ومن الافضل العمل علنا وسأقدمك على أنك ابن عم بعيد ويكفى أن تبدو ودودا مرحا وتبتعد عن كل مناقشات شائكة أو خاصة عن الحرب لان بعض الذين أدعوهم يؤيدون بشدة النازية • وأظن أننى لست فى حاجة الى أن أوصيك بالحرص ! وهكذا تكون أمضيت خمسة أيام أما السـبعه الباقية فعليك أن تجد وسيلة للانتقال لان البقـاء فى مكان واحد يثـير المتاعب •

وفى الليلة المحددة وصلت الى الفيلا السـاعة ١٩ قبل الوقت المقرر لأن «L» لم يكن يستطيع الحضور قبل الساعة ٢١ ولكننى لم أستطع البقاء فى الفندق ووجدت حاجة ماسة الى أن أتحدث مع أى شخص • وبذلنـا نحن الاثنان مجهودا حميدا لكى نتناول أطراف الحديث خلال المأدبة الخفيفة ولكن ما أن تركنا الخدم وحدنا راح كل منا مع أفكاره وهواجسه • وكنت أتراوح بين السرور لنجاح فريتز و «L» فى مهمته والخوف من حمل هـذه الورقة اللعينة طيلة هذه المدة ولو أنها هى الدليل الساطع على نجاحى •

وبعد قليل من الساعة ٧١ دق جرس باب الدخول ودلف «ل» وكانت نظرة واحدة الى وجهه تدل على أنه يحمل الوثيقة وعلى أنه فى غاية العصبية رغم ابتسامته • وكان يتحدث بصعوبة عندما قال :

ـ ها هو ما تطلبونه ولكن بحق السماء أسألكم السرعة لانه يجب على أن أعيدها على الفور · بسرعة ! بسرعة !

ـ امنحني الوقت فهى تبدو طويلة ولابد أن أنقلها كلمة كلمة وسأفعل ذلك بكل ما أتيت من سرعة ·

وذهبت الى المكتب لابدأ العمل بينما أعطته المركيزة مشروبا روحيا قويا وأخذت تهدىء من روعه ولم يكن لهياجه وعصبيته من سبب لاننا عرفنا بعد كثير من الاسئلة التي ألقتها عليه الماركيزة وكثير من الآهات و « بحق السماء ! » من جانبه أن كل شيء تم دون أن يقع أدنى حادث · فقد دلف من الباب الرئيسى واستلم الوثيقة وخرج فى أقل من خمسة دقائق بعد ذلك من باب جانبى دون أن يره أحد · ولم يبق عليه سوى أن يعود من نفس الباب وأن يصعد الى مكتب فريتز ويضع الوثيقة فى مكانها ويخرج ثانية من الباب الرئيسى بكل هدوء واطمئنان ·

وقضيت خمسة وثلاثين دقيقة فى نسخ الوثيقة وكانت الماركيزة تمليها على لكى نوفر الوقت وأخذت أنقل فقرا تالوثيقة وما بها من نقط وحروف وبعد أن تحققت منها الماركيزة سلمتها الى «ل» الذى أخذها وخرج بكل سرعة كالقطة الملسوعة دون أن يرد على ابتسامة الامتنان التى أرسلتها اليه الماركيزة ولكنه وعد بالاتصال بنا تليفونيا لاخطارنا بأن كل شيء تم فى نظام · واذا مرت الامور فى سلام فانه يقول فى التليفون :

ـ شكرا على دعوتكم فى مساء الغد ولسوف أحضر بكل سرور ·

أما اذا قامت عقبة تحول دون تنفيذ الخطة فانه يستبدل الشطر الاخير من الجملة بهذه الكلمات « ولكنى آسف لعدم استطاعتى القبول » ·

وفى خلال فترة انتظار هذه المكالمة التليفونية أخذت أنسخ صورة أخرى من الوثيقة وأحرقت النسخة الاولى وطبيعى كانت هى الوثيقة التى أنشدها · وعندما رفعت بصرى وجدت أن الماركيزة تحدقنى بابتسامة فكهة وقالت :

ـ والآن قد حصلت على وثيقتك فأين ستضعها ·

ـ هذا يتوقف على المكالمة التى سأتلقاها من «ل» وطبيعى سأحتفظ بها فى جيبى عند تنقلى • وانى لاتساءل ألم يمض طويل على انتظار هذه المكالمة من «ل» ؟

ـ كلا بالتحديد فقد غادر «ل» هذا المكان منذ نصف ساعة اللهم الا اذا كان قد مات فى الطريق بالسكتة القلبية ! وأنا لا أعتقد أنه من العصبية بمثل ما يبدو والا لما جعلته وسيطا ولكن عمله كضابط اتصال يجعله يقوم بهذا الدور • ولسوف يكون فى منتهى العصبية اذا ما ساءت الامور •

وهنا سألتها فى قلق :

ـ أتظنين أنه لن يرجع الى هنا ؟

فأجابت ضاحكة :

ـ لا شك أنه سيحضر • وما فيه من عصبية انما يرجع الى أنه كان يعيش فى هدوء واكتشفت الآن أن مثل هذا الدور لا يروق فى نفسه ولكنه سيقوم به حتى النهاية •

ودق جرس التليفون فقفزت من مقعدى رغم أنى كنت أتوقعه • ولقد كانت هناك مسافة عند قفزتى بين أدنى طرف سروالى وبين المقعد بحوالى خمسة عشر سنتيمترا وهو رقم قياسى فى القفز !

وقالت مضيفتى : ـ هون عليك أيها الرزية ودع هذا الانفعال لغيرك !

ورفعت سماعة التليفون وأنصتت لحظة ثم أجابت :

ـ عظيم ! اننى سعيدة جدا لقبولك ! وسوف نتغدى الساعة ٢٠ ولكن تعالى مبكرا لنتحدث فترة الى اللقاء ! وأحضر فريتز معك •

ثم وضعت السماعة والتفتت الى :

ـ حسنا كل شىء تم على ما يرام ! ويبدو أنه لم يحدث ما يغير الترتيب وسوف نراهما الاثنين مساء الغد • وهذه هى لحظة مناقشة تحركاتك القادمة ما لم تكن فى حالة من توعك المزاج لا تريد معها الحضور • ولن يتاح لنا المناقشة خلال الليلتين القادمتين •

وطبيعي قبلت الحضور بامتنان لان فكرتي عن الطريقة التي أقضي بها احدى عشر يوما دون لفت الانظار كانت غامضة دون تحديد • ثم قالت الماركيزة :

ـ أولا ، يبقى أن تظل فى الزى العسكرى لآن هدا أكثر أمنا وأوراق تحقيق شخصيتك تامة الاستيفاء • وثانيـا ، عليك أن تتفـادى جميع المحطات الكبيرة قدر الامكان لانه يتواجد فيها دائما عملاء ايطاليون وألمان من الافضل أن لا تدع لهم فرصة تكرار رؤيتك • فأنت لا تتصـور مدى كثرة عددهم ! ولو أدمجوا فى الجيش لزاد عدده فرقتين أو ثلاث !

ـ انني أعرف ذلك وهو نفس ما يحصل فى ألمانيا • وقد كان فىأعقابى اثنان خـلال يوم كامل • ونظرا لانني كنت أرتدى الزى العسـكرى لم يتمكنا من القبض على ولم أستطع أن أفلت منهما الا بالحيلة •

ـ اسرد على ما حدث •

فحكيت لها قصة رحلتي من فرانكفورت وكولونيا فى سـنة ١٩٤٠ وقالت فى النهاية :

ـ يجوز أن تصادف نفس الحالة فى ايطاليا • وعليك أن تسافر فى أية محطة شئت ولكن لا تسافر من نفس المحطة مرة أخرى • ولقد مررت بمحطتي جنوة وفلورنسا فمن الافضل أن تتفادهما بعد الآن فكل شيء قد يمر فى سـلام ولكن طالما معك قطعة الدينـاميت التي فى جيبك فمن الافضل ألا تجازف بأية مخاطرة •

ونحن اليوم الاثنين ونستطيع أن نسافر فى سيارة في صباح الخميس ويجب على أن أتغدى فى هذا اليوم مع بعض الاصـدقاء فى الارياف • ولسوف أضعك فى أول محطة بعد فلورنسا فى الوقت المناسب لكى تأخذ القطار الى بولونيا حيث تستطيع أن تقضى الليل • وفى اليوم التالى نذهب الى مودين Madène وفى اليوم التالى الى بارم Parme ثم الى ميلان Milan وفى تورين وتقضى اليوم السادس فى الاسكندرية وسأعطيك قائمة بأسماء الفنادق التي تنزل فيها بهذه المدن • ومن الاسكندرية تستطيع أن تقضى بقية الايام حتى يحين وقت سفرك الى جهتك المقصودة • وبديهى قد يبدو كل هذا مضجرا ولكن ذلك سيتيح لك فرصة معرفة ما اذا كان هناك من

يقتفى أثرك من عدمه . واذا لم يكن هناك من يتتبعك فان راحة بالك عند ذلك تعوض ما تحسه من متاعب مادية . وعلى فكرة سيكون رئيس الجستابو المحلى من بين المدعوين فى مساء الغد وتصرفاته غريبة فهو يشرب ويأكل مثل الخنزير وهو فظ ماديا ومعنويا . وأنا أفكر جديا فى أن يكون جارك على المائدة فهو قد يقوى من شهيتك على الاكل ويعطى صـورة لحكاية : الذئب والحمل ! وكم سأتمتع بمنظركما وأنا أفكر فى أن الوثيقة لا تبعـد عن رئيس الجستابو سوى ثلاثين سنتيمترا ! ولكن خذ حذرك لانه اذا كان فظا وسوقيا فان سرعة البداهة لا تنقصه ، فادفعه لان يتكلم ولن يكون ذلك عسيرا وسآمر رئيس الخدم لويجى Luigi بألا يمنع عنه كل مايريده من نبيذ فهو يحب الشرب وخاصة ما كان معتقا من الخمر وهذا هو أهم سبب لحضورى هنا أما السبب الآخر فهو أنا شخصيا كما تكرم باعلانه لى ولكننى اعتدت أن أدافع عن نفسى فلا تكترث لأى تصرف يأتى من جانبه .

ـ اعملى كما تشائين فلابد أن يكون خيرا ولكن احرصى على أن تباعدى بعد المشرقين بين العجوز «ل» وبين فريتز من جهة وبين صديقك الفـظ اذ أنهم يختلفون فى المشارب .

ـ لقد رتبت ذلك وسوف يجلس «ل» مع فريتز يتحدثان عن طوابع البريد وهو موضوع فى غاية البراءة والآن حان وقت الذهاب الى الفراش بقدر حاجتك الى حفظ الوثيقة كلمة كلمة .

وانسحبت هذه السيدة العجيبة وكأن بالها غير مشغول بأدنى شىء . وذهبت لأنام وحاولت حفظ الوثيقة كما قالت لى ولكننى لم أتوصل الى تركيز كل اهتمامى عليها لان أفكارى كانت تسبح دوما الى الاحداث التى وقعت خلال الايام الاخيرة . وكانت تأملاتى يشوبها الخوف مما قد يحدث خلال الايام القادمة . وكنت أعترف بأن الحظ خدمنى وكانت التجـارب تعلمنى أن القدر لابد أن يلعب دوره ويقلب ظهر المجن . وفى اليوم التالى قضيت معظم النهار فى غرفتى أو فى الشرفة لأن رئيس الخدم لم يترك لى سوى معطف بألوان غير مستحبة وكان الماركيزة قد قررت الاحتفاظ بالزى العسكرى استعدادا لحفل المساء . وبعد قليل من الساعة ١٩ وصل «ل» و فريتز وكان فريتز أقرب الى المرح وتغير حاله تماما ولم يكن يأسف على شىء بل على خلاف ذلك كان يشعر بسرور كبير أن يسهم فى اسـقاط النازى وكان يقول لنا بدرجة دفعتنى أنا والماركيزة الى نصحه بالاعتدال أما «ل» فيبدو أنه كان قد تغلب على عصبيته البارحة واسترد هدوءه .

الباب الثانى عشر

وكان أول من وصل الى حفل العشـــاء كولونيل وجنرال من الجيش الايطالى وكانا فى بشاشة وقد اعتادا على ارتياء المجتمعات الراقية والتحدث الى مضيفتنا فى مودة غير متكلفة ٠ وفي أعقابها دخل ضابط برتبة ميجور ينتمى الى بعض تشكيلات القمصان الســوداء وكانت الانحنـــاءات التى صاحبت التحية بين ضابطى الجيش وبين ضابط القمصان السوداء رغم ما تتسم به من أدب تدل على مدى التوتر بين السلاحين ٠

وحضر بعد ذلك اثنان من الالمان الاشداء الاصحاء ويبدو لاول وهلة أنهما محرومان من الفكاهة والبشاشة ٠ وأخذت أراقب فريتز وعندما لم أجد على وجهه رد فعل أدركت أنهما ليسا من أعضاء الحزب ومع ذلك لم يكن هذا الخليط الايطالى الالمانى يبشر بشىء غير عادى ٠

ومر رئيس الخدم بصينية عليها كوكتيل الخمر الذى لم يســبق لى احتساؤه وسرعان ما أحتد الحديث ثم ظهر آخر مدعو ٠ وعند دخوله ساد السكوت على الفور ٠ وعبست كل الوجوه بما يقرب من العداوة ٠ وكانت الدلائل تشير الى أنه الشخص الذى حدثتنى عنه المركيزة رئيس الجستابو المحلى ولم يكن حسن المنظر ٠ فكان فارع الطول أكثر من ستة أقــدام عريض المنكبين وهو وحده كان يشغل حيزا كبيرا من « المجال الحيوى » فى الوجود ٠ فترى رقبة قصيرة مثل رقبة الثور وأوداج منتفخة تدلت مؤخرتها بحيث غطت معظم مؤخرة عنق القميص وعلى هذه الرقبة ترتكز رأس غريبة فى شكل الكثرى ٠ وكان يظهر لاول وهلة كما لو كان أصلعا مثل البيضة ولكن عند تدقيق النظر يلاحظ أنه « مغطى بورق من زجاج » كما كان الجنود الالمان خلال الحرب العالمية الاولى ٠ وكانت عيناه فى لون الصلب (لا تعرفان الابتسام) تحت حاجبين كثيفين سوداءين أشعثين وكان ذوانف كبير عريض من طراز المغول بهما فتحتان واسعتان ينبعث منهما شعر واقف ٠ وكان الفم واسعا والشفتان غليظتان وعندما يلتهم الطعام تظهر أسنان قوية صفراء وأكثر من هذا كانت أذناه أشبه بآذان الوطواط ينطلق من ورائها جذاذة شعر غليظ ٠ وكان هناك شعر يغطى ظهر يديه مما يذكرنى بنوع من القرود ٠

وكنت أتحدث مع فريتز عندما دخل وأحسست بأن فريتز سيقوم بعمل شيء لان وجهه صار شاحبا وأخذ يتمتم بكلام لم أفهم منه سوى « هذا القرد اللعين » Verfluchte Affe ! فغمزت بكوعى في جنبه وأخذته جانبا أتوسل اليه أن يحتفظ بهدوئه وقلت له بالانجليزية :

ـ كن هادئا أيها الصديق العجوز والا أفسدت كل شيء · وفعلا أحس بصدمة وهو يراني أتكلم بالانجليزية والقى الى نظرة مشدوهة وقبل أن يتكلم نادتنى المركيزة بقولها :

ـ برونو ! تعالى من فضلك لاقدمك الى الكولونيل ستام Stamm

وفى الوقت الذى كنت أتقدم فيه التفتت الى هذا الاخير وهى تقول :

ـ هذا هو ابن عمى برونو Bruno يقضى أجازة وقد تذكر أخيرا وجودى · وأنت يا برونو أقدم لك الكولونيل ستام رئيس الجستابو والذى قام بتنفيذ الاعمال العظيمة فى فلورنسا وخذ بالك منه ! الا تقل يا كولونيل ما اذا كنت تعرف روايات المهرجين جيلبر Gilbert وسوليفان Sullivan

ـ كلا فنحن فى ألمانيا لا نستسيغ المهرجين ! وكنت أود أن أرد عليه بقولى : « ومع ذلك فانتم تدعون أنفسكم لحكم مهرج ! · بل وقلت كلمة ·· ومع ذلك ··· عندما ربتت المركيزة على ذراعى قائلة :

ـ ومع ذلك كما يود برونو أن يقول يوجد أناس لديهم أفكار بدائية ويعجبون بهذه الروايات اعجابا شديدا وهو شيء يؤسف · له · ولست متأكد ما اذا كنت يا برونو على قدر كاف من المرح ·

وأحسست بوخز التأنيب وكنت غاضبا على نفسى بسبب عدم ضبط أعصابى ازاء ملاحظة أبداها ألمانى ولكننى كنت أحب كثيرا روايات المهرجين جيلبر وسوليفان · وفى هذه الاثناء كان ستام يركز كل اهتمامه على رئيس الخدم وأخذ يعب كؤوس الطلى واحدا بعد الآخر وكانت هوايته معروفة لانه كان يوضع تحت تصرفه كأسا ملآنا بمجرد أن يفرغ الكاس الاولى فى جعبته وما أن أعلن أن المائدة أصبحت جاهزة حتى صار كالدب الذى صحا من سباته فى موسم الشتاء ولا أقول ظهرت عليه معالم المودة القلبية لان رجلا مثله لا يمكن أن يكون له قلب · وجلس ستام على يمين المركيزة

وجلست أنا عن يسارها بينها وبين ضابط ألمانى برتبة ميجور • وفى خلال الجزء الاول من الطعام ركز ستام اهتمامه على مضيفتنا وتجاهلنى تماما ولم يكلمنى الا عندما استطاعت أخيرا أن تتحدث مع الجنرال الايطالى جاره من اليسار • ورأيت أنه من الافضل أن أجعله هو الذى يوجه الحديث لانه أصبح كثير الكلام وكنت آمل أن أحصل منه عن طريق حثه من هذا الجانب أو ذاك على معلومات عن ماضيه وعقليته لانه رغم فظاظته أثار اهتمامى •

ومع ذلك فلم يسر الحديث حسب الخط التقليدى بل اتخذ طابع الاستجواب وقررت على الفور أن أرد على أسئلته الشخصية بمثلها • وكنا ولو فى الظاهر من رتبة واحدة ولهذا كان من حقى كما هو من حقه أن القى الاسئلة • وبعد أن تبادلنا الاسماء للمرة الثانية على الطريقة الالمانية اذ ربما لم يفهم اسمى عند التقديم بدأ استجوابه فقال :

ـ هل أنت من أهالى هذا الاماكن •

ـ كلا بالتحديد فأنا مولود فى ليجورى Liguria وأنت ياهر أوبرست Herr Oberst ما هى بلدك الاصلية ؟ •

ـ من برلين وهى بلد جميل ! عاصمة امبراطورية كبيرة ! هل تعرفها ؟ •

ـ لقد ذهبت اليها مرة أو اثنين • وهى من ناحية الفن المعمارى تبدو حزينة ثقيلة ولكن الطقس كان رديئا وربما هو الذى جعل هذا الانطباع يرسخ فى ذهنى •

ـ ربما ولكن أنتم يا أهل الجنوب تعيشون فى دعة وفى شمس وتتمتعون أكثر من اللازم • وبرلين هى رمز قوة الرجولة فى ألمانيا ! وبديهى أنتم لا تستطيعون أن تقدروها حق قدرها • والآن ماذا تفعل •

ـ لدى ترخيص بأجازة لبضعة أيام •

ـ هذا مالا أقصده وانما ما هو المنصب الذى تشغله ؟ •

ـ مجرد كولونيل أركان حرب وأنت ؟ ولكن ما كان لى أن ألقى هذا السؤال ؟ فقد قدمتك المركيزة على أنك رئيس الجستابو • أليس كذلك ؟

ولابد أنها وظيفة مثيرة للغاية وقل لى هل تقصر نشاطك على مواطنيك أم تتعاون كذلك مع البوليس السرى الايطالى ؟ ٠

ـ آه ! ان واجبى هـو كشف الخونة أيا كانت جنسـيتهم ما داموا يتآمرون ضد قضيتنا المشتركة وما أكثر هؤلاء الخونة فى البلاد ٠ فأنت مثلا من الجائز جدا أن تكون فاجورا للانجليز وهـذا بقدر ما يظهر لى ! واذا كنت أتكلم اليك بهذه الطريقة فلانك قريب للمركيزة التى هى من خير أصدقائنا وأنا لا أثق فى انسان ٠

ـ لا تقل يا سـيدى الكولونيل أنك ترتاب فى واحـد أو أكثر من المدعوين ٠ فلا شك أنك تتضايق من الجلوس مع شخص من واجبك أن تقبض عليه ٠

ـ هذا لا يضايقنى بتاتا ولكن قيام المركيزة بدعوتهم هو خير ضمان لهم وأنت الشخص الوحيد الذى لا أعرف عنه شيئا ٠

ـ وهكذا تضعنى فى قائمة المشبوهين دون اجراء أىشىء آخر وبطريقة آلية ؟ ٠

ـ ليس بطريقة آلية ولكن هل تتكرم أن تذكر لى فى الحقيقة ماذا تفعل ؟ وأية وحدة تخصصت فيها ؟ وما هو التشكيل الذى تنتمى اليه ؟ ٠

ـ أستطيع بداهة ولكن أرجو المعذرة اذا التزمت الصمت فى هذا الموضوع فانتم أيها الالمان علمتمونا قيمة وضرورة الكتمان وأظن أن قيام تلامذتكم باستيعاب الدرس لا يمكن أن يضيركم ٠ فان تخصصى من الامور التى لا يدور عنها الحديث كثيرا ولهذا أدع لك مهمة التخمين ٠

ـ آه وعلى ذلك فانت واحـد منـا ٠ ولهـذا لن أقول كلمة بعـدها يا كولونيل ٠ وربما فيما هو يشبه جهاز القسم Abteilung Sieben V أيام القيصر ؟ اننى أفهم جيدا وأرجو المعذرة اذا كنت أبدو فى نظرك غير حريص ٠

ولم يكف رئيس الخدم Luigi لويجى عن الاهتمام بستام Stamm واعطائه النبيذ كأسا بعد الآخر حتى وصل الى درجة من الضعف فتختلف

تماما عما كان عليه مظهره عندما دخل علينا أول مرة ٠ وكنت أرتاح كثيرا لوصفه لى بأننى من جهاز القسم Abteilung Sieben V الذى كان فى عهد قيصر والذى أنشأ الخدمة السرية للقيصر وكان جهاز قويا جدا لا يعرفه سوى الاقلون حتى فى أوساط البلاطوكم أعجبنى أن أوصف بهذا الوصف ازاء الملكية الايطالية ٠ وهكذا كانت اجابتى الدفاعيــة قد أتت ثمــارها بدرجة فاقت الآمال وكلما احتفظ ستام بهذه الفكرة حتى كلما كان أفضل

وانتهزت فرصة اختلست فيها النظر الى المركيزة التى كانت تبتسم عندما عملت على تخليصى من ستام وفهمت أنها سمعت ملاحظاته الاخيرة وأن كل لفظ خرج من فمه لم يشرد عن ذهنها وكان يبدو أنها ارتاحت للتحول الذى اتجه اليها حديثنا ٠

وفى خلال بقية الطعام اهتمت مضيفتنا بستام Stamm وربما رأت أن حديثنا وصل الى درجة يحسن معها تغيير الموضوع مع تقوية الانطباع الذى رسخ فى ذهنه عنى عن طريق بعض الملاحظات الصــادقة ٠ وكنت اسمع بين الحين والآخر كلمة « هو غامض جدا » و « هو لايسر ولا يبوح بما فى نفسه حتى لى » وبهذا كانت المركيزة تروى البذرة التى وضعتها فى نفس ستام عندما قدمتنى له بأننى رجل غامض وطبيعى هذا حسن بشرط عدم المغالاة ٠

ثم صار الحديث ذو طابع عام وأقل شكلية بحيث انتقلنا الى الشرفة لاحتساء القهوة والسوائل وكانت البشاشة تبدو على الجميع وهو ما لم أكن أتوقعه فى بداية القهوة ٠

وأخذ فى ستام جانبا لمدة نصف ساعة قبل أن يغادر المكان ، وكان فى غاية الانشراح وصمم أن يكون ودودا مع الجميع ليس بسبب جودة النبيذ فحسب والذى أخذ يعب منه عبا ولكنه حسب المسكين ! أنه يستطيع أن يعتقد كذلك فى أنه أحرز تقدما فى مغازلة المركيزة ٠ وغاب عن باله أن محاولته فى أن يكسب قلب مضيفتنا الجميلة هو أمر فوق كل ما يملك من قوة ٠

ووصل الحديث الى الحرب العالمية الاولى فذكرت أننى خضتها بصفتى ضابطا صغير فى آلاى من مشاه الجيش الايطالى (وأخذت اسم الآلاى كما ورد على ذهنى لا لسبب آخر سوى قريبة من ذهنى) ورد ستام على سؤالى

المضاد بأنه حارب فى الجبهة الغربية ضد الفرنسيين والبريطانيين • وكان رأيه فى الفرنسيين غير جليل ولم أعرف السبب وربما يرجع الى المقت الموروث الذى كان يعلم للالمان طيلة سنوات ضد العدو المزمن • أما عن البريطانيين فقد كانت وجهة نظره قاطعة فهم وحوش غلاظ يجهلون دقائق الفن الحربى وأنه لم ينقذهم من الهزيمة سوى التدخل الامريكى • وكان يكره الكنديون بصفة خاصة وتساءلت عن السبب مع أننى أعرف أنهم هجموا على خنادقهم والكنديون معروفون بخبرتهم فى فن القتال وجها لوجه وقد أخذوه عنوة من مخبأه مع عدد من أصحابه وزادت سرعة اجلائهم عندما ألقيت عليهم بدقة بضعة قنـابل يدوية وأقتيد اقتيادا الى منطقة الحياد دون مراعاة لرتبته وشخصه • وعندما وصل الى الخطوط المقابلة كان استقباله بدرجة من السخرية المشينة التى لا تتفق مع كـرامة ضابط بروسى • وهو لم يذكر لى ذلك بهذا التعبير لانه كان كلما حاول التعبير كلما ازداد حنقا ، ومن أجل هذا لم يغفر للكنديين هذه الاهانة التى نالت من كبريائه •

واستأذن فى الانصراف بعد قليل معبرا عن أمله فى أن يرانى ثانية • وأظهرت نفس الرغبة وأنا أتساءل عما اذا كان من المناسب رؤيته بعد ذلك وقررت أن آخذ رأى المركيزة فى هذا الشأن • وربما كان يفيد أن أراه للمرة الثانية طالما استمر على تصديقه لما أتظاهر به ولكننى أخشى أن تبدر منه حركة أو كلمة طائشة تثير شكوكه •

وبعد ثوان من مغادرته اقترب منى فريتز وكان فى غـاية الانفعـال وأخذنى جانبا وهو يقول :

ـ وكيف يتسنى لك أن تظهر مثل هذه المودة مع ذلك الوحش ولماذا كلمتنى بالانجليزية ؟ •

ـ لاننى كنت أخشى أن تبادر فى انفعالك فترتكب بعض الحماقات • وكنت آمل عندما أتحدث باللغة التى كانت تتحدث بها والدتك أن يساعدك هذا على أن تسترد صوابك •

ـ نعم فقد ترتب على كلامك بالانجليزية تغيير اتجاه أفكارى • وكانت لهجة كلماتك تذكرنى بلهجة شخص ما لست أتوصل الى تحديد شخصيته•

وقالت المركيزة عند ذلك :

ـ كفى حديثنا الآن ٠ ولسوف تأتى فى مساء الغد ٠ وسأقدمك الى صديق قديم ٠ ولن يكون هنا ستام فعد الآن الى منزلك ياصديقى لكى تستريح وقد قمت بدورك بدرجة عظيمة فى عمليتنا الصغيرة وعسى ألا يترتب على عداوتك لبعض الإشخاص افساد وجهودك وجهودنا وبعد ذلك انصرف كل الى وجهته ٠

وقلت لها : ماذا العمل الآن ؟ أينبغى التردد على ستام أو تفاديه ؟ ٠

فقالت دون تردد :يجب عليك أن تتفادى رؤيته ! ويبدو أنه الآن واقع تحت تأثير أقوالك عن حالتك ولكنه يفكر فى الامر سوف يفتح تحقيقا وسيكتشف أن الكولونيل كانافيس قد تقرر عدم معرفة مصيره المجهول في افريقيا وعند ذلك سيحاول ستام أو زميله الايطـالى معرفة المزيد عنك ٠

ولكننى قلت بصوت عال :

ـ وهل من المعقول أن يفتش عن جميع ما يتعلق بمن يصادفهم هذا جنون ! وليست لديه أية أسباب تدعوه لان يشتبه في أمرى وهو قد صرح بذلك فى العشاء ومهما يكن من شيء فان اسم كانافيس ليس من الاسماء النادرة فى ايطاليا ! ٠

ـ في الحقيقة لن نجد كثيرا من أسماء كانافيس فى قائمة كولونيلات هيئات أركان الحرب الايطال ومن السهل أن تعدهم على الاصابع ٠ ولو كان قابلك عندى فى ظرف عادى لما أعارك أى اهتمـام ولكنه من الآن سيحاول أن يتأكد من أنك حقيقة صاحب المظهر الذى تحاول أن تظهر به ولقد أفلتت منه كلمة أو كلمتين خلال الحديث ٠ أليس كذلك ؟ وربمـا يراوده القلق فيقدم على العمل وربما يفعل شيئا وهو ما يعقد عليه الامل٠ وعلى أية حال يلزم بعض الوقت للحصول على معلومات وينبغى أن تعد نفسك لترك البلاد فى خلال ذلك ٠

ـ حسنا ولكن ماذا يصنعون معك ؟ الا يحضرون ليغمروك بالاسئلة عندما يتحققون من اختفائى ؟ ٠

ـ لا تقلق من ناحيتي ولا تنسى أنني لا أجهل شيئا من هـو سـتام أما فيما يختص بشخصى فلا زلت فى نظرى ونظر الجميع قريب من أقربائي الذين لم أرهم منذ خمسة عشر عاما • واننى لم أتعرف عليه عند الوهلة الاولى وأنا أجهل الوظيفة التى تشغلها ولم أكلف نفسى حتى مشقة سؤالك عنها وأنا أتمتع كما ترى بسمعة الفراسة التى تحيط من زهرة وبغير كثير من الذكاء • وكل كذبة وخدعة تبدو منى لا تثير الدهشة بل تبدو على العكس طبيعية •

وقلت : لابد أن تكونى على جانب كبير من الحكمة التى تختفى وراء تظاهرك بالشقاوة لكى تنقذين بها حياة الكثيرين •

ـ أوه ! لست مستاءة لذلك ويعلم الله أنهم يدينون لى بالكثير •

ويبدو أنها أرادت أن تقل شيئا ثم احجمت ومدت لى يديها فى قليل من السرعة لتتمنى لى ليلة سعيدة وذهبت أنا فى سبيلى •

وفى اليوم التالى رتبت مع المركيزة تفصيلات انتقالانى • ووضـع البرنامج وسلمتنى خطابات التوصية اللازمة لايوائى لانه لم يكن من السهل أن تجد غرفة فى ايطاليا كما فى أى بلد آخر فى آخر لحظة •

وكانت الليلة التالية منبدايتها أكثر حرية وبهجةمن تلك التى حضرها ستام وساعد على ذلك غيابه • وكانت تشمل ضابطين ايطاليين برتبة كابتن وضابط ألمانى والعجوز و فريتز •

ووصل فريتز قبل المدعوين بنصف ساعة لكى يرى هذا الصديق القديم الذى تحدثت عنه المركيزة والذى لم يتوصل الى تحديد شخصيته فى ذاكرته رغم كل استغراقه فى التأملات •

وبعد التحيات التقليدية والكوكتيل قامت المركيزة وهى تقول :

ـ اننى أود أن أقوم لاداء واجباتى كربة بيت تاركة صديقين قديمين يتحدثان لبعضهما •

وقلت لفريتز :

ـ فريتز يا صديقي الحميم لم أستطع أن أتعرف عليك الا عندما ذكرت اسم بلد في قصتك حتى تمكنت من استعادة صداقتنا ٠

ـ أي بلد ؟ ٠

ـ كاتوفيس ٠

وبدت عليه الحيرة ٠

ـ أيمكن أن تكون قد نسيت الليالي التي قضيناها في العشاء ولعب البوكر ؟ والطريقة التي كنا نمازحك بها عن صورة زوجتك وابنتك التي كنت تخرج بها في كل وقت ٠ لقد كانت أوقاتا جميلة أليس كذلك ؟ ٠

وبعد فترة من الذهول عادت الذكريات الى ذهن فريتز ووجدت كل مشقة في محاولة تهدئته واعادته الى صوابه ولو أن فرحه الصاخب طغى على كل شيء وبعث في نفسي السرور وكان يسعدني حقا أن أتحدث الى بصفتي الحقيقية وأعبر له عن تجاوبي العميق عن الظروف العسير الذي يخوصه الآن ومرت نصف ساعة بسرعة قبل أن يفد المدعوون الآخرون وقال لي فريتز :

ـ سأظل بعد ذهاب الآخرين لنتورث من جديد ٠

أليس ذلك ؟ ٠

وكان في سؤاله نداء حارا أدركت معه كم هو في حاجة الى من يبثه لواعجه ومخاوفه ويتحدث بها الى من يستطيع أن ينتظر منه الشفقة والتفاهم اللذين لم يجدهما لدى أبناء جنسه فتقبلت على الفور ولكن بنهته الى ضرورة عدم نسيان اسمي الظاهري ورتبتي لان أية كلمة طائشة من جانبه سيترتب عليها وأخم العواقب ومن المحتمل أن يرتكب هذا الطيش وهو في هذه الحالة المعنوية ٠ وشعرت المركيزة بذلك فأخذته الى جانبها واهتمت به خلال الطعام ٠ ولم يحدث ما يؤسف له وهو ما كنا ننشده ٠

وظل فريتز بعد ذهاب لآخر موعد وتبادلنا الذكريات حتى بعد منتصف الليل . وغرق فى الماضى ناسيا الحاضر والمستقبل ولو لفترة ولم ينتبه الا عندما قالت المركيزة له أنه قد حان وقت الانصراف فصاح :

ــ ولكن يا الهى ! أنت انجليزى وما الذى تفعله تحت هذا الزى ؟ .

فتدخلت المركيزة على الفور :

ــ الزى العسكرى ! أهو الزى الذى يساوى كل شىء ! انك تحدثت مع صديق وليس مع زى وماذا يهم الزى واذا كان للزى أهمية فى نظرك فلماذا لم تصبح صديق ستام ؟ نحن نعمل من أجل هدف واحد ولا يهم نوع الملابس التى ترتديها . وهدفنا ازالة أناس من طراز ستام وكل ما يحتلونه ــ ووضعت يدها فى حنان على كتفه ــ معذرة يا فريتز ولكن يبدو أن أعصابك فى غاية التوتر الآن . هيا اذهب لتستريح ولا تفقد أى أمل . وسنحاول أن نحصل لك عن أخبار بهذه الطريقة أو بتلك وربما كانت أفكارا أفضل مما تتصور ولابد من وجود وسيلة طالما كان هناك وقت وصبر .

وسلمنا بحرارة على بعضنا وقلت :

ــ لقد عاونتنا كثيرا وشكرا على كل ما فعلته ولعلك تسمع أخبارا طيبة قريبا . وفى خلال ذلك حاول أن تنسى أحداث الايام الاخيرة وتصرف كما لو كان أى شىء لم يحصل وأملنا أن نتقابل فى ظروف أسعد .

وانصرف ولو أنه لم يتخل عن همومة تماما الا أنه كان أكثر راحة وأهدأ بالا عما كان عليه فى المرة الاولى .

الباب الثالث عشر

وفي صباح اليوم التالى غادرت والمركيزة الفيلا حوالى الساعة ١١ فى سيارة كانت تقودها وعند ركوبى فى هذه السيارة ذات المقعدين قلت أنها تشبه سيارات السباق ذات السرعة الجنونية ووافقتنى المركيزة وهى تقول :

ـ لدينا عشرون دقيقة قبل أن يصل القطار الذى سيقلك ولا شيء يدعونا الى الاستعجال ٠

ونسيت مع ذلك أن تقول لى أن المحطة التى كان عليها أن تنزلنى بها تقع على مسافة ثلاثين كيلو مترا ! ٠

وكان الطريق الى بولونيا فى غاية الوعورة وكان القطار يتوقف فى كل محطة بضعة دقائق مع ازدحام المسافرين من هنا وهناك وخاصة فى عربات الدرجة الثالثة ٠ ولحسن الحظ كانت الدرجة الاولى التى أجلس فيها بعيدة عن مثل هذا الازدحام الا فيما يختص بالكمسارية الذين يبدو أنهم بكثرة لا يمكن حصرها ٠ وكان كل كمسارى يترك علامة على التذكرة التى أقدمها لها حتى ضاعت معالم التذكرة نفسها عندما قمت بتسليمهـا فى شباك تذاكر بولونيا ٠

ومن الملل أن أقضى كل رحلاتى بالسكة الحديد فهى تجرى كلها على وتيرة واحدة رغم أن بعضها قد تكون أطول مسافة من الاخرى ولكنها دائما فى النهار حتى لا تثير حولى الشبهات واتبعت خط السير الذى وضعته المركيزة : من بارم Parme الى ميلان Milan ومن ميلان الى تورسين والعودة فى اتجاه الاسكندرية وفى اليوم السـادس كنت فى ما يشـبه البانسيون العائلى على مشارف المدينة أحاول أن أتصور الطريقة التى أرجع بها الى فاراتس فى مساء الغد وقررت العشاء قبل أن أركب العربة الى ضواحي ميعادى فى المكان المعلوم ٠ وقبل أن ينتهى البرنامج بأربع وعشرين ساعة أى قبل أن يتم النجاح اتجه تفكيرى ما ذكرتـه المركيزة عن سـتام Stamm فربما يكون قد فتح تحقيقا فاذا أسفر عما لا يرتاح اليه فانه

سيعيد ولا شك نظرته الى وفى هذه الحالة سيقوم بمراقبة جميع المحطات الكبيرة ولكننى كنت أميل الى الاعتقاد بأننى سأغادر البلاد قبل أن تنظم عملية لمطاردتى ولم يكن لدى ما يدعونى الى أن أسفر بأننى مطارد وأن وجودى فى فلورنسا يثير الشبهات٠ فكيف أثبت ذلك؟ لقد اتخذت سلوكا علنيا ودخلت بيتـــا من أشهر بيوت فلورنســـا حيث يرتاده كثير من العسكريين ٠

وفى اليوم التالى فى حوالى الساعة الثامنة حضر مدير البانسـيون ليخطرنى أن سيارة عسكرية وقفت بالمنزل وبها لفتنانت وسائق ويريدان الافطار ٠ وستذهب السيارة الى جنوة فهل يطلب من السائق توصيلك ٠ وبدت لى الفكرة رائعة ورجوت أن يفاتح اللفتنانت فى الا مرورجع ليقول لى أن اللبفتننانت يرحب بشرط أن أكون مستعدا للسفر بعد نصف ساعة لان عليه أن يكون فى جنوة قبل الثانية عشر ٠ وكان هذا يلائمنى كثيرا ونزلت ولم أبين اسم كانافيس مفضلا عدم اظهاره ، هذه المرحلة وخاصة وأننى لم أنجح تماما ، التخلص من مخاوفى التى راودتنى بالامس ٠

وفى خلال الرحلة كان اللفتننانت رفيقا ودودا فى السفر على خلاف معظم مواطنيه ٠ وربما يرجع ذلك الى رتبتى ٠ وكان يتحدث كثيرا عن نفسه ثم شكرته كثيرا ونزلت عند ملتقى الطرق فيا روما ووصلت الى فندقى القديم من شوارع جانبية بالقرب من المحطة وأظهر صاحب الفندق ترحيبا قلبيا عند رؤيتى ٠ وفى خلال حديث بينى وبينه فى غرفته الخاصة قال أن أحدا لم يلق سؤالا عن كولونيل أركان الحرب ، خلال غيبتى رغم فحص سجلات الفندق كالمعتاد ٠ ولم يكن لذلك أهمية نظرا لعـدم ذكر اسمى فى هذه السجلات ولم يتمالك صاحب الفندق نفسه عن سؤالى :

ــ هل مر كل شيء فى سلام ٠

ــ نعم وأفضل مما كنا نتوقع ٠

وظهر الارتياح على وجهه ٠

واستطرت أقول : سوف أرحل نهائيا بعد ظهر اليوم ولكننى أود أن أقابل قبل السفر صديقى مدير البنك فهل أسـتطيع أن أتصل به تليفونيا ؟ ٠

ـ أوه ! كلا اطلاقا ! فقد شددت الرقابة على التليفونات منذ خمسة عشر يوما بل وعلى كل اتصالاته • وهو حتى الآن لا يوجد ما يدينه ولكن الويل له اذا أخطأ ! ولكننى أعدك بأننى سـأبلغه أخبارك فاطمئن من ناحيته •

ـ ما هى أفضل وسيلة للوصول الى فيرانس بعد ظهر اليوم ؟ لعل القطار يكون مناسبا والمحطة قريبة • فهل تظن أننى أستطيع ركوبه أم أن البوليس سيزيد من رقابته ؟ ولو فرض وقبض على البوليس فى اللحظة الاخيرة فانها تكون كارثة حقا ! •

وتحدثت اليه سريعا عن ستام الذى قد يفتح تحقيقا ففكر لحظة ثم قال :

ـ لقد ذهبت الى المحطة من ساعتين وكان كل شىء فيها عادى ولماذا لا تذهب مبكرا لاخذ التذكرة والقاء نظرة ؟ فاذا ما شعرت بالارتياح ركبت القطار واذا لم يكن الامر كذلك فعد الى هنا وسأتكفل لك بسيارة توصلك الى جزء من الطريق وعلى أية حال الى ما بعد قرية سامبيردارينا

وتركته قبل الساعة ١٦ بقليل لاذهب الى المحطة ومعى حقيبة صغيرة وكنت على وشك أن أدلف الى القاعة الكبيرة من باب الدخول عندما لمحت شخصا جعلنى أتوقف فجأة • ولست أدرى ما اذا كان يمكن للقلب أن يتوقف ولكن قلبى توقف حقا فى هذه اللحظـة • فكان يقف أمامى فى وسط القاعة على بعد خمسة عشر مترا ضابط ألمانى ضخم يرتدى الحلة العسكرية وكان يدير ظهره لى ويتحدث مع شخص مدنى تتمثل فى وجهه كل ملامح « القاتل » ولم أخطأ فهذه المناكب العريضة والراس التى تتخذ شكل الكمثرى وأوداجه المتدلية من أعلى عنق القميص وآذان الخفـاش فوق عنق ثور كل أولئك كنت أعرفه وهكذا كان هذا الرجل يقف عنـد نهاية الطريق الذى كنت أوشك أن أقطعه بنجاح • وكان من العسير تفسير السبب الذى من أجله جاء الى جنوة ولكن الباعث على حضوره كان يبدو لى جليا وربما يرجع ذلك الى محض المصادفة ولكننى لم أكن فى حالة أستطيع معها خوض أية مجازفة • وربما كان من الافضل أن أذهب لكى أربت على كتفه ولكن من الجائز أنه ينبغى الا أفعل هذه الحركة أبدا ولم أجد القوة التى تدفعنى الى القيام بها • وفى أقل من لمح البصر كنت فى الشارع متجها بكل قوتى الى المكان الذى أتيت منه • وكان شكلى يدعو الى الضحك وأنا

فى اهتمامى بأن أجعل أكبر قدر من المسافة بينى وبينه فى أقل زمن ممكن وما كنت لاهتم الا بمقاومة محاولة الالتفات الى الوراء حتى لا أرى هــذا الستام البغيض ٠ وحتى الآن كنت بعيدا عن مدى بصره الا اذا كان قد غير مكانه ولكن كان لابد لى من عبور الشارع الرئيسى الذى يلتصق بفناء المحطة ومن المحتمل أن تقع عيناه على عرضا وكان لابد من الالتفات يمينا ويسارا قبل العبور لان السائقين فى جنوة لا يحترمون المشاه بتــاتا ٠ وانتهزت الفرصة لالقى نظرة سريعة الى المحطة وكان ستام لا يزال يتحدث مع زميله ورأيتهما يتقدمان ببطء نحو الارصفة وهكذا فهما لن يركبــا القطار ٠ وعندما عدت الى الفندق لاهث الانفاس شرحت الحالة الى المدير الذى استمع الى بتجاوب وتفاؤل يبعث على الارتياح فقال :

ـ ما يزال أمامك كل الوقت ولابد من تفادى محطة سابيردارينا التى يحتمل أن تكون مراقبة هى الاخرى كذلك ويستطيع أحد أصدقائى أن يقودك فى سيارته الى كورنيليانو Cornegliano ومنها تستطيع أن تستمر فى طريقك بالقطار أو بالسيارة ٠وسوف أنظر الىمواعيد القطارات وكل شيء سينظم بالتالى ٠ والسيارة هى أكثر الوسائل أمنا ما لم يكن صديقى يعرف أحدا فى كورنيليانو يستطيع أن يحملك الى ما هو أبعد ٠ وعلى فكرة فهذه السيارة التى أحدثك عنهــا ليست متينة وهى عتيقة جدا ٠

ـ يا صديقى لا يهمنى مظهر السيارة طالما فيها محرك قوى وأربع عجلات ٠

وذهب ليعود فى وقت قصير جدا مع السيارة والسائق وفعلا كان مظهر السيارة قديم ولكن سائقها الفخور أكد لى أنها جيدة جدا فى سيرها٠ وعند السفر قال لى مدير الفندق : ادفع له مبلغا كبيرا ٠

وركبت السيارة ٠ ولم تتبع خط السير العادى بل ظللنا نجرى داخل الاراضى ولم نصل الى الطريق الساحلى الا قبل قليل من جهتنا المقصودة ٠ وسألنى السائق ماذا كانت المناظر قد أعجبتنى ٠ وكان هذا هو السبب الذى ذكره له مدير الفندق عن رحلتى ٠ وأجزلت العطاء للسائق وتأكدت من أنه لا يعرف أحدا من أهل المكان يستطيع أن يذهب بى الى أبعد من ذلك وانصرفنا بعد أن ذكر لى أن عربة ركاب ستمر بعد عشرين دقيقة ودخلت الى مقهى مجاور فى انتظار العربة ٠ وكانت العربة هى الوسيلة

الوحيدة التي استعملتها من الآن في تنقلاتي لان القطار كان يترتب عليه أخطار أي أخطار ! • وكان هدفي الوحيد هو أن أصل الى فيرانس دون اثارة الانظار وأن أظل بها حتي يحين موعدى مع قائد الغواصة • فاذا ما عنت لستام فكرة تفتيش هذه العربات فلسوف يفعل ذلك في نهاية الخطوط وليس في خلال الطريق لان كل الدلائل تشير الى أنه يظن أنني ما زلت في جنوة أو على وشك أن أصل اليها • وهذا هو الارجح والا لما كان ستام ينتظر في المحطة •

وأتت عربة الركاب وكانت مملوءة لنصفها واتخذت مقعدى في الخلف بحيث أستطيع أن اتفرس في وجوه المسافرين ولكنني لم أرى شخصا يبدو عليه أنه من محترفي مطاردة الكولونيلات وفي فاراتسبه نزل معي أربعة من مسافرى عربة الركاب وعندما نزلت آخر راكب ولاحظت أنهم من رجال الاعمال الذين لا يثيرون حولهم الشبهات وذهبت الى الفندق حيث كنت أنزل به أول مرة •

وكان مدير الفندق يقف على بابه • وعندما لمحني دخل فتبعته الى مكتبه حيث أعلنت له نجاح مهمتي الامر الذى أظهر معه سعادته القلبية وأخطرته أن من المرجح كثيرا أن يكون هناك من يقتفى أثرى • وذكرت له الاسباب موضحا تأكدى من عدم مطاردتي عند حضورى الى فندقه والا لما كنت أتيت

والصفة المشتركة التى تتجلى في جميع هؤلاء العملاء هي : الهدوء التام والتفاؤل الذى يبعث على الارتياح وهي فضائل لا أكاد أملكها في بعض الاحيان ولم يكن مدير الفندق هذا يخرج عن قاعدة هؤلاء العملاء وقال :

ـ الساعة الآن ١٨٫٣٠ ولابد أن تكون في موعدك الساعة ٢١٫٣٠ ولهذا يجب عليك أن تبدأ السفر في الساعة ٢١٫١٠ • واذا كانت هناك مطاردة منظمة فمن المحتمل أن تصل الى هنا ولحسن الحظ سيكون الوقت ليلا وسأقرضك معطفا لا يتسرب اليه المياه تستطيع أن ترتديه ثم تسير على طول امتداد الميدان وتنحنى الى اليسار عندما تصل الى الطريق الكبير ثم تسير ببطء حيث آخذك من هناك في سيارتي وليس من العقل أن أسير معك من هنا لان البوليس المحلى يعرفنى وسيتركنى أمر ولكنه سرعان ما يتعرف على اذا ما أخطر بضرورة مطاردتي • وفي خلال ذلك ستتغذى

فى غرفتى ثم تخرج بعد ذلك من الباب الخلفى · ولا تخشى شيئا من الموظفين فهم أمناء ولكن كلما قل من يقابلك كلما كان هذا أفضل ·

وتحدثنا بعدها خلال ساعتين ونصف وفى الساعة ٢١ كنت أكثر من مستعد وبعدها بدقائق خرجت من الباب الخلفى وأنا أحمل معطفى الذى يكاد يكون مستهلكا ولكن ميزته هى فى اخفاء الزى العسكرى وسرت حسب خط السير المقرر ·

وصادفت كثيرا من الناس وكان الظلام دامسا ولهذا سرت دون اثارة أى انتباه ولم أجد أى نشاط غير عادى للبوليس · وبعد بضع دقائق ، وقفت سيارة بجوارى وعرفت السائق · وركبت معه وتقدمنا ببطء لانه كان هناك متسع من الوقت مالم يقع حادث · وبعد ربع ساعة وصلنا الى المكان الذى يبدأ منه السلم الذى يهبط بدرجاته الى الشاطىء الصغير ·

وأوقف صديقى سيارته ودعانى الى أن أنزل منها بلهجة شعرت بأنها سريعة قليلا · ولم يكن حولنا شىء ، ولا فى أى اتجاه · وظننت أن تعجلنا كان المغالاة · وربما كان خموله مصنعا وشعرت بما يكاد يقرب من الارتياح وأنا أحس بأننى من التجلد أكثر من غيرى وبسرعة أعطيته المعطف وألقيت اليه بتحية سريعة وهبطت الى السلم وهو من جانبه انطلق بكل سرعة وربما كان يقصد الى اقامة الدليل عند وقوع أى حادث ·

وما أن وصلت الى أسفل السلم حتى بحثت عن مخبأ لكى أقضى فيه النصف الساعة التالية لان الشاطىء كله كان مكشوفا لكل من يقف على الدرجات الأخيرة من السلم أو من ينظر اليه من عال · وأخذت أبحث عن مكان أمين أختبىء فيه حتى لا ينكشف أمرى فى هذه الساعة وهذا المكان وكان هناك حوالى مترين من الحصى بين السلم وبين المياه ورأيت عندما استدرت الى اليمين أى فى اتجاه البحر وجدت فيما يقرب من تحت درجات السلم مباشرة تجويفا عميقا من أربعة أو خمسة أقدام كله جاف ويحتمل أن تكون عوامل النحات هى التى حفرته · وكان هذا التجويف يتواجد تحت الدرجة الخامسة من السلم اذا عددنا الدرجات من أسفل وفيها قبعت وأضأت شعلة لاكتشف المكان فوجدت خشبا طافيا ومحار ولم أكترث بهم فقد كان المكان هو المخبأ المثالى ولم يكن أحد على الارض ليستطيع أن يشاهده ولكن اذا انبعثت اشارة من المكان فان من فى البحر يستطيع أن يراها · ومكثت أنتظر ولم يقطع السكوت سوى خرير المياه أو ضوضاء مرور سيارة عابرة ·

وبعد عشر دقائق توقفت سيارة من هذا السيارات التي كانت تسير بسرعة جدا وسمعت صوت جهاز الايقاف وتساءلت ـ ترى ما الذى يجعلها تقف في مثل هذا المكان المهجور وربما يرجع السبب الى عطب أصـاب المحرك أو ثقب طرأ على العجلة ولكننى أحسست فى قرارة نفسى أن هذا ليس هو سبب توقفها لان كل شيء في العملية سـار كأحسن ما يكون ولا يمكن أن يستمر الحال على هذا المنوال حتى النهاية وتزايد قلقى عندما سمعت خطوات تهبط السلم وتقف فوق رأسى مبـاشرة • ولا شك أن شخصا بفحص الخليج بمصباح كهربائى لانى رأيت انعكاس الاشعة على الصخور • واستمر الحال دقيقتين كانتا فى نظرى مدة الابد • وبديهى كان لابد من التزام السكوت ولكننى أحسست بحاجة قصوى الى السعال ولست أدرى كيف توصلت الى التغلب عليها • وعلى أية حال فقد كان بينى وبين السعال قيد شعره •

وجاء من بعيد صوت مرتفع رد عليه الشـخص الواقف فوق رأسى :
Niemard da أى لا أحد هنا يا سيدى الكولونيل ! •

وهكذا كان الالمان يقتفون أثرى ولم يكن الكولونيل المذكور سوى ستام • فكيف نجح في أن يتوصل الى اقتفاء أثرى حتى جنوة Gênes وما هى المعلومات أو الالهام الذى قاده الى أن يستكشف هذا الركن المجهول من الساحل ؟ أننى حتى اليوم أجهل السبب ولكن المعلومات والدقة التى تصلان اليا فى سرعة تدعو الى العجب •

ونادى ستام مرة أخرى ورد عليه الرجل •

ـ حسنا يا سيدى الكولونيل •

وسمعت خطوات الرجل مبتعدة وهى تصعد السلم وبعد خمس دقائق تردد صدى محرك السيارة وهى تبتعد •

وتنفست الصعداء وكانت ساعة ميعادى تقترب • وفى أقل من ربع ساعة ستظهر اشارة من البحر أرد عليها بثلاث طلقات وتنتهى كل متاعبى • ولكن ربما كان هناك شخص لا يزال على الطريق يراقب القطاع وكان فى ذلك مجازفة ما كنت أود أن أخوضها على الاطلاق • وكان التجويف الذى اختبأ فيه هو المكان الامين الوحيد فى جميع هذه المنطقة وكان من الجنون

الخروج منه قبل آخر لحظة • ووردت على ذهنى فكرة أخرى تحتوى على خطورتها • فالى متى سيواصل ستام بحثه نحو الغرب ؟ ولابد أن يكون لديه الاعتقاد بأننى موجود فى الجهات المجاورة • وربما يعود القهقرى ويقطع على انسحابى خلال هذه الدقائق الخمس عشرة الحاسمة • ولم يبق أمامى سوى أن أنظر الى ساعتى التى كانت تبدو لى أنها وقفت عن الحركة وأن أضرع الى السماء لكى يحضر قائد الغواصة فى موعده •

ولحسن الحظ تقوم البحرية بتربية ضباطها تربية حسنة فى هذا الصدد • فبينما كان فكرى يسرح فى المواعيد التى كانت ستضيع على بسبب تأخر زوجتى فى ارتداء ملابسها ظهر خط طويل منير فى البحر وعلى الفور أطلقت اشارتى بل وكررتها • وكان الليل حالك السواد ومضى وقت قبل أن استمع الى صوت المجاديف فأضأت شعلة لكى أجعلها فى هذه المرة منارة• وفجأة ظهر القارب أمامى فقفزت فيه على التو وانطلقنا • وقال البحار :

ـ مساء الخير يا سيدى •

وكان هو نفس البحار الذى أنزلنى الى البحر منذ ثلاثة أسابيع خلت وعندما سرنا فى اتجاه الغواصة انفجر فجأة ضاحكا وسألته بغير أدب ولا شك ما سر هذا الضحك فقال :

ـ عندما أوصلتك فى آخر مرة قال لى أحد زملائى ويدعى توم لن ترى هذا الرجل بعد الآن فقلت له « لا تقل ذلك فسوف يكون فى المكان كما هو متفق » فأجاب :

« كلا ، لقد رأيت الكثيرين يذهبون مثله بهذه الطريقة ولا يعودون ! ومن جهة أخرى أنا على استعداد أن أراهنك جنيه مقابل عشر شلنات ! » فقلت له : حسنا اتفقنا •

وهذا هو ما جعلنى أضحك فقد كسبت الجنيه وأنا تواق الى أن أرى وجهه عند عودتنا •

وفى خلال كلامه كنت أصيخ السمع وسمعت صوت سيارة أدركت بعدها فجأة أنها توقفت فقلت له :

ـ هل كنت يوما قائد قارب من قوارب السباق ٠

ـ كلا ولكن لماذا ؟ ٠

ـ لان هناك سيارة وقفت على الطريق خلفنا واذا لم أكن أخطأت كثيرا فان بضع رصاصات ستأتي من هذا الاتجاه ، فاذا أردت أن تحفظ فى نفسك رمقا للحياة فضع كل ما فى وسعك من نشاط فى التجديف كما لو كنت تسابق فرقاطه ولا يكن لديك أى خوف من مجاوزة حد السرعة ! ٠

وفهم ما أريد واستلهم السماء لتمده بقوة واندفع بسرعة حميدة ٠ وكان لا يزال هناك وقت ! وانطلقت صرخة من الارض ثم اتبعتها النيران وطلقات الرصاص ٠ وأحسست كما لو كان هناك مسدسات ينطلقان بالرصاص فى وقت واحد هما ولا شك مسدس ستام والشخص الآخر الذى هبط السلم ٠ وكانا يطلقان الرصاص فى اتجاه صوت المجاديف ولحسن الحظ لم يستعملا البنادق لان مداها أطول ٠

وانقطع الضرب اما لنفاذ الذخيرة واما لانهما أدركا عدم جدوى ارسال القذائف على غير هدى عبر الليل ٠ ولم أسمع سوى صوت البحار وهو يلهث من أثر المجهود ٠ وما كدت أقترب من الغواصة حتى قفزت اليها سعيدا بأن أرى نهاية هذه العملية وكنت أعيش فى حالة من الاعصاب المتوترة منذ اللحظة التى لمحت فيها ستام فى محطة جنوة وكان يزيد من انفعالى شعورى بأنى أحمل الوثيقة فى جيبى ٠

واستقبلت فى الغواصة بالتهانى ٠ وحلت النكات على رأس البحار من جانب رفاقه وكانوا يتسلون كثيرا وهم يسردون قصة تعرضه للنار وحماسته فى الهرب على خلاف مبادئه وعاداته ٠

الباب الرابع عشر

ولم يحدث أى شيء فى الفترة ما بين صعودى الى ظهر الغواصة وعودتى الى لا فاليت وكنت مولعا بهذا الهدوء لانه أتاح لى أن أستعيد فى ذهنى ما جرى من أحداث وأن أتخذ الملاحظات بصدد الوقائع والاشخاص تمهيدا لما يلقى على حتما من أسئلة حولهما ·

وكان المتجر المالطى على نفس مظهره عندما دخلته وكذلك صاحبه لم يظهر انفعالا ولا دهشة عندما رآنى بل أشار الى السلم لـكى أصعـد الى غرفته الانيقة · وعندما وصلنا اليها تغير موقفه وأظهر بشاشة بدرجـة جعلتنى أحس بابتهاجه لرجوعى الى متجره ولم يلق على الفور أسئلة عن مهمتى وربما قرأ ما يريد أن يعرفه على وجهى ·

فوضعت حقيبتى على المائدة وفتحتها وأخرجت محتوياتها وقلت :

ـ هذه هى الاقلام التى استعرتها فهل تتكرم بأن نتحقق بأن كل شيء على ما يرام · ولكننى أريد قبل كل شيء نظارتى هذه النظارة التى تشبك فى الانف تسبب لى آلاما شنيعة ! فذهب لاحضار نظارتى من أحد الادراج وبعض الحاجيات الشخصية مثل خاتمى الكبير ومفكرة ·

وقلت : شكرا واذا فتشت فى جيب هذا القميص فسوف تجد مظروفا يهمك ولا شك هو ليس سوى صورة ولكننى أضمن صحتها بكل نقطة وشولة لان كل كلمة كتبتها بيدى هذه ·

ولاول وآخر مرة فى اجتماعنا رأيته يظهر شيئا من الانفعال · فهرع الى القميص بنشاط استغربت له بسبب بدانته · وانتزع المظروف من القميص واستغرق فى قراءة الوثيقه بينما أخذت أدخن سيجارتى الاولى اللذيذة منذ أكثر من ثلاثة أسابيع وعندما انتهى من قراءتها أخذ يقرأها ثانية بعناية حتى ليبدو أنه احفظها عن ظهر قلب وقال :

ـ نعم انها نفس ما نريده ! ويبــدو أن كل شيء صــحيح ومع ذلك يلزمني قبل أن أنقلها الحصول على تأكيد بشأن نقطة · هل أنت متأكد من أن الاصل الذى كنت تنقل منه هو الاصل الحقيقى ؟ هذا هو ما أريده · ونحن لا يمكن أن نستبعد احتمال اكتشاف أمرك منذ البــداية وأنه قــد أعطيت لك وثيقة مزورة والافضل الاعتراف بأنك أخطأت بدلا من السير على هدى معلومات خاطئة ·

ـ كلا فالوثيقة التى بين يدى شرعيــة والآخرون يجهلون أنهــا فى حوزتى وهذا اعتقادى الراسخ · ودعنى أسرد عليــك القصــة من أولها لآخرها لكى تستطيع أن تستوثق بها من نفسك · وهذا يستلزم بعض الوقت ولكنه ليس بوقت ضائع اذا ما شاركتنى نفس الاعتقاد ·

وسردت عليه القصة بتفاصيلها التى ربما كانت غير مفيدة وما جرى خلال الاسابيع الثلاث التى خلت · وكان يستمع الى فى صمت دون أن يوقفنى حتى أحسست كما لو كنت أكلم نفسى · وعندما انتهيت من سردها قــال :

ـ بقى شيء واحد فأنت كما تقول أفصحت عن رغبتك لهذا الميجور فريتز فى الحصول على هذه الوثيقة قبل ثمانية وأربعين ساعة من ذهابه لاحضارها لك · وهذا يعطيه الوقت الـكافى لاحضــار رؤســائه الذين يستطيعون أن يضعوا ورقة مزيفة لكى يضللوك بها فما هو رأيك فى هذا الاحتمال ؟

ـ اننى أستبعد هذا الاحتمال بتاتا لان فريتز يؤيد مائة فى المــائة أولئك الذين يعملون ضد النازى · ولا يمكن أن يرد على ذهنه لحظة أن يخوننى ولو كنت شاهدت وجهــه واستمعت الى قوله لتــأكدت مثــلى · ولا تنسى أنه سرد علينا قصته قبل أن يعرف الاهمية التى نوليها لهــذه الوثيقة · وبغض النظر عن حالة فريتز هنــاك موقف ســتام ففى خلال الثمانية والاربعين ساعة لابد أنه وصلته معلومات بشأنى ولو كانت الوثيقة التى معى قد اكتشفت لقيل له ألا يحول بينى وبين أن اغادر ايطاليا ومعى وثيقة مزيفة بل وأن يساعدنى ! فقد كان يقتفى أثرى لا عن اعتقاد بأن معى معلومات خاصة ولكن على أســاس أننى لست الشــخص الذى كنت أحــاول أن أتظــاهر به وكان يود بكــل قلبــه أن يحصــل على المزيد من

المعلومات ! ولم يكن لديه أدنى شك بشأن الوثيقة فهى صحيحة وكان الخصم يجهل أننا نملكها . ونفس المركيزة تثق فى فريتز كل الثقة وأنا أكن لهذه المرأة كل احترام .

ـ وهل تراها مثيرة ؟

ـ انها أكثر من مثيرة . فقد تركت انطباعات فى نفسى تشير الى أنها فى غاية الكفاءة وتتمتع بمواهب الذكاء والتجارب الاجتماعى بحيث تفوق المعتاد . وهى تجذب نحوها جمع من الضباط الالمان والايطاليين . بل وسلطت سطوتها على ستام الذى هو أشنع ما وقعت عليه عيناى وهى تستطيع أن تجعله يقفز وسط حلقة من الورق . وكم أود أن أحصل على المزيد من المعلومات عنها .

فابتسم وهز رأسه قائلا :

ـ آسف ولكن ليس الان وربما تعرف أكثر فيما بعد والمثل يقول « طالما لم يثبت عليه شيء فلا عقاب ! » .

ـ وماذا عن ستام ؟ هل تعرف الكثير عنه ؟

ـ لدى قدر طيب وليس فى صالحه . فقد كان ضابطا خلال الحرب العالمية الاولى ثم أنزل من رتبته بسبب وحشيته والحكاية التى قصها عليكم ليست صحيحة الا فى أسرة من الكنديين ثم أصبح واشيا يتلصص على الناس وبعدها خاض فى معيشه مريبة من بينها الاتجار فى الرقيق الابيض وسرعان ما انضم الى الحزب النازى واكتسب شيئا من السمعة بوصفه أحد جلاديه . وينسب اليه على الاقل ثلاثة اغتيالات ويشتبه فى ارتكابه حادث آخر أو حادثتين وانى أقسم أن نهايته سوداء سواء بهذه الطريقة أو بتلك .

وعلى فكرة لابد من التخلى عن شخصية كانافيس هذه بعد ما أجرى حوله من تحريات ولا يمكن أن يظهر ثانية فى عمليات من هذا النوع » .

وقضيت بعد ظهر اليوم التالى مع صديقى وكان يلقى على أدق الاسئلة بصدد تجاربى خلال الاسابيع الثلاث هذه وكان يستعلم عن موقف العملاء وروحهم المعنوية وعن زيادة تعريفات السكك الحديدية وثمن أربطة الحذاء

(لانني ذكرت أنني اشتريت بعضا منها) بحيث شعرت برأسي تدور ٠ ومع كوني متعودا على الاستجوابات الا أنني لم أتعرض لمثل هذه الدقـة فى القاء الاسئلة وأخيرا انتهى الى قوله بأنه يشعر الان بالارتياح وأخـذ يقوم بدور المضيف المرحب ٠ وأخذ يقص علي كثيرا من الحكايات وتحـدث عن الكريكيت وراجبى Ragby وخلاصة القول أن الليلة مرت كأحلى ما تمر الليالى لانه أعد لى عشاء ممتازا ٠ وقبل أن أغادر المكان أثرت مسألة مستقبلى العاجل وما أعد له وأدهشنى أنه كان قد دبر لكل شيء أمـره وقـــال :

ـ حجز لك مكان فى طائرة ستسافر فى مساء الغد الى القاهرة كما حجزت لك غرفة فى فندق الكونتننتال ٠ ولسـوف تسـافر بعـد ذلك بالباخرة الى انجلترا وتنتظر التعليمات ٠ فتعالى غدا لتأخذ التذكرة الى القاهرة ٠

وفى اليوم التالى تزودت بالاوراق اللازمة وتركت هذا الرجل العجيب الذى مازلت أجهل اسمه حتى اليوم والذى لا أزال أكن لذكائه وكفاءته كل احترام ٠ وقلت له :

ـ ترى ماذا ينتظرنى عندما أعود الى انجلترا ؟

ـ لا تقلق ٠ فسوف نجد لك شيئا جيدا واذا كان العجوز يحتـاج اليك فهو يعرف كيف يجدك ٠

* * *

وقضيت ثلاثة أسابيع أنتظر فى القاهرة أمر الابحار وأخيرا سافرت مع قافلة من السويس ولا أذكر الا القليل عن الرحلة وازدحام المركب ٠ وفى منتصف ديسمبر سنة ١٩٤٣ استقبلتنا ليفربول بالرذاذ ، وكانت الارصفة قائمة ليس بها أحد ولم نكترث بشيء لان الارض كانت لا تزال يابسة ٠ ولم يقل حماسنا عندما أعلنت لنـا فتـاة جميـلة أن العشرين سيجارة سيصبح ثمنها من الآن نصـف كورونة ٠ وكان فى نظرنا أن التبغ الذى يساوى نصف كورونا أفضل من الخليط الشنيع الذى يقدمه الجيش من لفافات التبغ سواء من ناحية المزاج أم ناحية الصحة ٠ وكان

رجال الجمارك يختلفون كثيرا عن زملائهم فى وقت السلم لدرجة لم نعد نتعرف عليها بها بحيث لو أعلن شخص أنه يريد أن يبوح بشيء لما وجد من يصغى اليه فى هذه الهيئة المحترمة ٠

وفى مساء اليوم التالى وصلت متأخرا الى القيادة العامة لهيئة المخابرات Intelligence Corps بالقــرب من روترهام Rothenham لاستيفاء جميع الشكليات ولكنها لم تتم الا فى الصباح وعندما أخذت بطاقة ركوب السكك الحديد واذن التصريح لمدة شهر أجازة أوليت وجهى شطر البيت وعندما ضغطت على الجرس فتح ابنى الذى بلغ السابعه من عمره وعندما احتضنته وقبلته قال :

ـ هل أنت والدى ؟

وربما خاب ظنه عندما رآنى وعلى أية حال فقد كان يعلق فى ذهنه شيء خلال غيابى عنه طيلة ثلاث سنين ٠ ولكنه صدق قولى وأظهر التحية اللازمة ٠ وعندما عادت زوجتى من جولاتها الصباحيــة بدد موقفهــا معى آخر شك تبقى لدى ابنى فى أننى والده ٠ وفى خلال اجازتى أجريت مقابلات كثيرة غير مجدية فى وزارة الحربية وتوابعها وكان يصدمنى عدم الاكتراث بما سأذهب اليه مستقبلا ٠ وأخيرا عينت ضابط لجمع المعلومات من الاسرى فى معسكر يضم أسرى ايطاليين فى هابندن Happenden فى لاناركشاير Lanarkshire حيث قضيت شهرين ممتعين ٠ وكم كان أسفى عندما نقلت الى معسكر أكثر أهمية فى لودج مور Lodge Moor بالقرب من شيفيلد Sheffield حيث كانت حال الاسرى والمسكن تتطلب الكثير ٠ وتلقيت أمر بالمثول الى وزارة الحربية دون تأخير وأعطيت مظروفا قيل لى أن أذهب الى العنوان الموضح به وكنت أعرف من سأقابله فى هذا العنوان ٠

الباب الخامس عشر

وعنـدما دخلت الى مـكتب « العجوز » أذهلنى التغـير الذى طرأ على مظهره · فقد مضت ثلاث سنوات على آخر مقابلة بيننا ولكن هذا لا يفسر مثل هذا التغيير الكبير · فقد علت وجهه تجاعيد أكثر وهبطت عيناه أكثر عمقا وأحسست بأن المرض أو الارهاق أو القلق كل ذلك أحاله الى ظل ولو فى الظاهر على الاقل غير أن صوته بقى على حزمه ونظرته لا زالت على نفاذها مع ذلك التعبير الابوى وظهرت عليه كذلك معالم الكثير من الانسانية التى لم أكن أعتقد أنه يتسم بملئها قبل ذلك · ولاحظ ما أفكر فيه فقال :

ـ هل تغيرت الى هذا الحد ؟ انك تنظر الى كمـا لو كنت تنظـر الى شبح !

فتمتمت : ليس تماما ·

ـ نعم لقد كبرت وصحتى بدأت تشغلنى ولكن ليس هذا هو أهم سبب لتهورى ··· لقد كنت تحسبنى دائما رئيسا قاسيا لا يهتم بمصائر مرؤسيه طالما هو ينال منهم ما يريد · ولقد راودتنى هذه الفكرة وكان لابد منها لكى أحثك على أداء المهام ولكى أثبت على أننى لست على حق عندما اتهمك بالعجز وعدم الكفاية · وكنت أتغاضى عن نجاحك حتى لا تصعد نشوته الى رأسك وكم كان يزداد تأثرى عنـدما كنت أضـطر الى شطب اسم من الاسماء التى أدونها فى القائمة · ومنذ مقابلتنا الاخيرة وقعت احداث كثيرة ولم يكن من الصالح أن يكتمها الانسان فى نفسه·· وربما كنت استخدمك بمثابة صمام أمن ··· ومهما يكن من شىء فنحن نقترب من نهاية الطريق · ويلزمنا الان بذل مجهود لنصل الى المراد وفى نيتى أن أكون هناك لعمل اللازم ·

وسكت هنيهة ثم قام وفتح صوان أخرج منه زجاجة وسكى واناء من مياه سيلتز Seltz وكأسين وقال :

ـ هذا لكى تكون الجلسة ممتعة · آه ! لقد نسيت أنه تفضل المياه العادية !

وابتسم عندما لاحظ دهشتى وقلت :

ـ مازالت ذاكرتى متقدة وأنا أعرف ذوق أصدقائى ولعلك تجد هذا الويسكى أفضل مذاقا من براندى السكاب الذى تضطر الى شربه حتى الحبشة !

وهنا أخذت الهواجس تنتابنى من هذه الملاحظات الدقيقة وكأنه قرأ ما يدور بخلدى على وجهى لانه قال على الفور :

ـ لا تعجب على اهتمامى بهذه التفاصيل لان أقل التفاصيل تفيدنى فى تقدير قيمة من يساعدوننى · ومع ذلك فان ما يتعلق بل أصبح من الان فى عداد الماضى ولنعد الى الموضوع · لقد هزم الالمان عسكريا وهم لا يستطيعون بعد الان كسب الحرب ولكن النهاية قد تتأخر شهرا أو ستة وأصبح لدى سلاح الطيران الالمانى من المشاغل ما يصرفه عن القيام بأعمال (انتقامية ضد بلادنا ومع ذلك فلا يزال لدى اعدائنا كثير من الاسلحة التى قد تسبب الكثير من الشر والمتاعب اذا ما استعملوها بكميات كافية· وأنا أريد أن أتحدث عن برنامج الصواريخ ٦ V I و ف ٢ V 2 التى أعدها الالمان وصاروا على استعداد لاستخدامها ضد بلادنا بحيث يطلقونها من القارة · ونحن نعلم أن انتاجها يزداد وكان وسائل الاتقان قد تجعل هذه القذائف أشد تأثيرا وان استخدامها على نطاق واسع سيكون مسيئا جدا ولو بالنسبة الىلندن واقليمها ولقد قرر الالمانأن يستخدموها ضدنا· ولم تكلل الجهود التى بذلت للقضاء على قواعد الصواريخ من الجو بكثير من النجاح لاسباب مختلفة منها أن هذه القواعد قد أخفيت وضربت حولها حماية بدرجة تجعل من غير المحتمل تسديد أية ضربة مباشرة اليها فضلا عن كون مهاجمتها بالطائرات يكلفنا الكثير من قاذفات القنابل وأرواح الطيارين ونحن فى أمس الحاجة اليهم فى أماكن أخرى · ومن أجل ذلك يجب محاولة تدمير هذه الاسلحة أو عناصرها فى نفس مصادرها أى فى مصانع تركيبها أو خلال نقلها الى قواعدها فهل تفهمنى ؟

ـ تماما يا سيدى وكل هذا جميل ولكن أين يوجد دورى ؟

ـ سأقول لك • هذه هى قائمة بالمصانع وبعضهـا حديث والبعض الآخر قديم • وربما نخطأ فى بعضها ولكن يجب فحصها كلها ولقد عبأت جميع رجالى من أجل هذا الغرض • وهذه المسألة لها الاولوية عما عداها من أية مسألة أخرى •

وأخذ يتتبع بأصبعه أسماء المصانع المدونة فى قائمة وكان قرين قيد اسم كل مصنع الحروف الرمزية المبينة له وتوقف عند اسم وقال :

ـ ها هو المصنع الذى اخترته لك وهو صغير ولم يحصل التعرف عليه بعد ولكنه يستحق المجهود الذى يبذل من أجله • فتعالى لتنظر الى هذه الخريطة •

واقتربنا من خريطة كبيرة لالمانيا ووضع اصبعه على موقع المصـنع وقـال :

ـ انه يقع كما ترى على طريق السكة الحديد بين بيلفيلد Bielefeid وهانوفر Hanovre فى المكان آلذى تتصل به هانوفر بالنهر • ويوجد طريق طويل • وعلى هذا الطريق يوجـد ارتفاع مفاجىء عنـد قاعـدته شوهدت مداخل عديدة بعضها يرجع الى ما قبل الحرب والبعض الآخـر حديث جدا ونحن نعرف أن ثمة نشاط كبير يجرى فى هذه المنطقة منذ بضعة أشهر • ويوجد كذلك معسكر كبير للعمال المدنيين الذين يعملون بالاكراه ويقع على مسافة ثلاثة أو أربعة كيلو مترات ومن المعتقد أن الذين يشغلون المعسكر لهم علاقة بالعمل الذى يجرى تحت المرتفع من الارض وهو عمل لا يتوقف ليل نهار مما يتخذ طابع الاستعجال عسكريا • وفى هذه الفترة من الحرب لا يسرف الالمان فى اليـد العاملـة المدنية لاغراض سلمية ! وليس لدينا سوىخبر واحد : هو أنمعظم المعتقلين منالفرنسيين رغم وجود جنسيات أخرى • وما أريده منك هو أن أدخلك فى زمرة من زمرات العمال اما عند دخولهم أو عند خروجهم وان تسلك كما يسلك الاخرون وسأزودك بالاوراق اللازمة التى تثبت بها شخصيتك وبالملابس المناسبة وعندما تصل الى هناك فلن تصادف أية صعوبة فى كشف مايدور هناك بدقة اذا ما فتحت أذنيك وعينيك وعرفت ما اذا كان هذا المصنع يستحق اهتماما وهذا هو ما أريد أن أعرفه وعلى فكرة كيف حالك فى اللغة الفرنسية ؟

ـ في غاية السوء ! ولا يمكن أبدا أن أنجح فى الظهور بمظهر الفرنسى !

ـ يا للاسف ومع ذلك فلابد من المجازفة ولعل الحراس أن يكونوا غير متخصصين في هذه اللغة • فاذا تحدثوا اليك فما عليك سوى أن تتظاهر بالصمم وليس هذا عسيرا !

نقلت : ولكن هناك شيئا آخر فقد يدهشون لوجود عامل اضافى وليست هذه المعسكرات معسكرات صيفية وقد يرتابون فى محاولة دخولى المعسكر •

ـ كلا فالرقابة خفيفة جدا • وعدد العمال يختلف دائما • ووجودى خلاف فى الرقم سوف ينسب الى خطأ سابق ولن يظنوه تسللا•والمضايقة الوحيدة تأتى من ظهورك فى صحة جيدة وتعودك على الغذاء الوافر على خلاف بقية العمال ولسوف تتكفل بعمل التغيير والتستر اللازم لكى تتخذ مظهر العامل ولا يكون هناك فرق بينك وبينهم ولن يستغرق هذا وقتا طويلا •

ـ طبعا لن يستغرق وقتا طويلا اذا ما اكتشفوا أمرى !

ـ لا تكن فى مثل هذا التشاؤم فكل شىء بسيط وواضح ولا شك أنك ستصادف متاعب مادية جسيمة ولكنك ستعود بعد خمسة عشر يوما وما أريد أن أحصل عليه هو اما « نعم » واما « لا » لمعرفة المكان الذى يستحق اهتمامنا وكذلك ما تستطيع أن تجمعه من معلومات • وعليك أن تعود الى لودج مور حيث سأبعث اليك بالتعليمات بمجرد اعدادها •

ووصلتنى هذه التعليمات فى مظروف مغلق ومختوم بالجمع الاحمر وكانت دقيقة ومستفيضة وفى غاية العناية • وكان على أن أتبعها حرفيا دون أن أحيد عنها قيد أنملة وأن أعدم المظروف ومحتوياته بمجرد حفظى للتعليمات • وكان مع التعليمات بطاقتين لتحقيق الشخصية احداهما باسم فرنسى من آرا Avras ولا أستخدمها سوى داخل المعسكر المدنى والاخرى تظهرنى بمظهر عامل فى السكك الحديدية الالمانية وكان اصطلاح Eisenbahnbeamter ينطبق على وظائف كثيرة وهذه البطاقة تعفى صاحبها من شراء تذاكر وتقلل من فرص التعرض للاكتشاف • وكانت هناك وثيقة أخرى تبين أن الاسم الذى سأتخذه فرانز ريشير يقضى غالبا

أجازة بتصريح الامر الذى يسمح لى أن أرتدى ملابس مدنيـة عادية أى لا تحمل أية شارة تشير الى حالتى لكى أتفادى الاسئلة العويصة التى قد يلقيها على المسافرين ۰ وحسب التعليمات تواجدت فى مساء اليوم التالى فى قاعة كاليدونيان أوتيل Cledaonian Hotel فى ادنبرج Edinbourg وفى الساعة ٢ر٣٠ اقترب لفتنانت بحرى منى وبعد التحقق من الشخصية أخطرنى أن عليه أن يحملنى فى مركب ليرسو بها فى فيرث أوف فورت Finth of Forth وقال : هل أعمالك هناك ؟

ورددت عليه بسؤاله :

ـ ما نوع الباخرة التى سأركبها وأرجوك ألا تخبرنى بأنها سـتكون احدى غواصاتكم المقدسة !

ـ هذا فى الواقع هو ما سأقوله لك ۰

واستطرد مبتسما ـ ألا تحبها ؟

ـ بالطبع لا !

ـ يا للاسف لانها أسوأ من معظم الغواصات الاخرى ولكنها ليست كبيرة جدا وسوف نسافر فيها كما نسافر فى قفاز ۰

وكنت أخشى دخول ألمانيا بهذه الوسيلة ولكن لم تكن هناك وسيلة أخرى الا بالمظلات التى عارضت كثيرا فى اتباعها ۰ وتحدثنا بعض الوقت حتى حانت ساعة السفر وقادتنا سيارة وكانت الابواب تفتح أمامنـا ووصلنا الى رصيف كان يبدو لى مهجورا لان رفيقى لم يشر الى شىء أراه وأخيرا قال :

ـ ها نحن هؤلاء فى المكان وسأوصلك حتى ظهر السـفينة لاقدمك للقبطان فهو رجل فى غاية الاناقة ۰

وكان اللفتنـانت على حق فيمـا قال ۰ وعنـدما أصبحت والقبطان منفردين سألته عن موعد السفر فقال :

- بمجرد أن يحضر المسافر الآخر ولابد أن يكون هناك قبل نصف ساعة • وهكذا لا تفتقر القارة الى زوار !

- هل تقوم أنت بمهمة التوصيل غالبا ؟

- غالبا جدا • فهذا النوع من السفن يتلاءم جدا مع هـذه المهمـة فأستطيع أن أذهب الى أماكن لا تستطيع أنواع السفن الاخرى أن تذهب اليها وبدأت أعرف الجهات ومع ذلك فهناك دائما مجازفة ولابد أن يقف الحظ في جانبنا وأحسب أن نفس الشيء الذى يتعلق بالغواصة يحـدث بالنسبة لك •

ثم أصاخ السمع وقال :

ها هو الراكب كما أعتقد •

وعلى الفور ظهر ضابط بحرى يرتدى ملابس مدنية • ولم يكن سنه فى نظرى يتجاوز الثلاثين وكان قوى البنية ولكنه كان من العصبية بحيث لا تدعو حالته الى الثقة • وقدمه القبطان على أنه رفيق السـفر دون أن يذكر اسمه وعمل ما فى وسعه لكى يجعل الوافد الجديد هادىء البـال ولكن كان من المحال أن يتوصل الى ذلك تماما وتركنـا القبطـان لاداء واجباته • وحاولت بدورى أن أشيع الثقة فى الرجل على اعتبار أن توتر أعصابه سيزول اذا ما أسر بما يجول فى خلده الى رجل من نفس طرازه يستطيع أن يقدر ما يجتازه من روح معنوية بل ولربما أسدى اليه نصائح استخلصها من تجربته الخاصة •

وقضينا ساعات كثيرة معا خلال ما يشبه اعتقالنا فى هذه السفينة غير المريحة نتحدث عن مسائل تدخل فى مهنتنا واستفاد كل منا من هذا الحديث على ما أظن • ولم يكن للزمن حساب فى هذا الحيز الضيق ويبدو أننا كنا فى مساء اليوم التالى عندما حضر القبطان ليخبرنا بالاسـتعداد للنزول بعد حوالى ثلاث ساعات •

وبعد تناول الطعام ذهبت الى مقصورتى اذا صح تسمية ذلك الحيز الضيق لكى أغير من ملابسى وأحمل متاعى • ونظرت الى رئيس الخـدم الذى أخذ ينظر الى ما أرتديه وأبدى تعجبه وقال :

ـ هل تزمع أن تسير بهذه الملابس على الارض ٠

ـ ولم لا وما هو اعتراضك ؟

ـ مثل هذه الملابس لا تليق بضابط من رتبتك لان السترة مرصعة بالبقع الزيتية والسروال ليس له ثنايا ولقد عملت خادما ولم أشاهد مثل هذه الملابس !

ـ ان الانسان يكتسب كل يوم معلومات جديدة واذا كانت هذه الملابس تساعدنى على العيش فلماذا ألفظها ؟ وماذا ينبغى على ارتدائه فى رأيك ؟

ـ زى كولونيل تستطيع أن تدخل به حيث شئت أما فى هذه الملابس فسوف يطردوك من كل مكان !

ـ أنت على حق بوجه عام ولكن ليس فى هذه الحالة بالذات وهذا يلائمنى فلا تقلق ٠

ـ لست قلقا والحظ معك ولقد رأيت الكثير وأستطيع أن أتكهن سلفا بمن سيفوز فى مهمته ولكننى أفكر فى الرفيق الآخر ويبدو أنه فى حالة شنيعة من التوتر العصبى وأنا لا أعتمد بتاتا على فوزه ومع ذلك فأملى أن أكون على غير حق أما أنت فلكى آمل فى أن ننجح يا سيدى ! وسأحتفظ لك بالزى حتى ترجع ٠

وكانت آخر مقابلة مع قائد الغواصه قصيرة ومحددة قال :

سوف أنزلك على الساحل الهولندى ٠ وبعد أربعة عشر يوما سأعود لاحملك فيما بين الساعة ٢٣ ومنتصف الليل وهذا يتوقف على الاشارات التى أتلقاها من الارض وهى ليست من اختصاصك ٠ فاذا دلت الاشارات على تواجدك فسآخذك والا فسأرحل هل فهمت ؟

ـ لا شىء أوضح مما تقولواننى أود ساعة اضافية احتياطىللمفاجآت

ـ سنرى ذلك عندما يحين الوقت وحسب الظروف وأنت بالطبع تدرك أننى لا أستطيع أن أضحى بالسفينة فى سبيل فرد ·

ـ انك لا تضحى من أجل فرد بل من أجل المعلومات التى قد يحملها هذا الفرد ! ولابد من الانتظار أطول مدة حتى يضطرك الجزر أو أى سبب آخر للابتعاد عن الشاطىء !

ـ حسنا ولا تنفعل ! سنسير بقدر المستطاع حسب التعليمات وحسب احتياجاتك · الى اللقاء فى مقابلتنا القادمة !

وقادنى قارب من المطاط الى الشاطىء وانطلق نور لمدة ثانيـة اتجه اليه البحار الذى أرسى القارب على الرمال وهو يقول « حظ سعيد » ثم عاد بقاربه من حيث أتى ·

الباب السادس عشر

وانتظرنا لحظة · وظهر النور مشعا ثانية وتقـدمنا نحوه حيث كان هناك كوخ ذو مظهر أنيق يشغله شخص بلحية قليل الجاذبية ·

وكان هذا الرجل الغزير الشعر يتاجر فى السمك بين مدينـة Z الصغيرة وبين جرونبنج Groningue وتقع على بعد ثلاثين كيلو مترا حيث كان يزمع توصيلنا اليها بالسكة الحديد اذا لم يكن لدينا مانع من الصعود فى احدى عربات بضاعته وكانت المدينة تقع فى نهاية السكة الحديد ودخلنا محطتها قبيل الفجر بقليل · وكانت مهجورة ولكن كانت تملأها سـلات السمك التى تبعث رائحة شديدة · وساعدنا فى نقلهـا الى العربة حيث صعدنا بدورنا · وعند وصولنا الى جرولنج انهمكنا فى المساعدة فى نقل هذه السلال ذات الرائحة الكريهـة الى مبنى ملاصق · وبعـد ذلك قادنا الرجل الى مطعم على الرصيف حيث طلب لنا ما يؤكل · وسرعان ما فتـح الباب وأقبل واحد جديد · وقال الرجل :

ـ آه ! ها هو أحد أصدقائى الذى سيتكفل بكما · وقدم لنـا رجلا قصيرا بدينا يرتدى سترة نصف بحرية كانت جديدة منذ وقت طويل · واحتفلا الهولنديان بلقائهما باحتساء البـيرة وقدما لى قدحا فرفضتـه معتذرا ·

وأخيرا قال الرجل الاول :

ـ ابتداء من الآن سيتكفل بك صديقى هذا وهو رئيس صندل سيبحر بك حتى رين Rheine حيث سيتركك ـ وتحول الى رفيقى قائلا :

ليست لدينا تعليمات بصددك ومسئولياتنا سوف تنقطع فى رين ·

ـ هذا صحيح وسوف أعود من طريق آخر ·

وتحول الرجل الاول يقول لى :

ـ أما حالتك أنت فهى مختلفة اذ يجب أن تعود الى رين أيا كان المكان الذى نذهب اليه وتتصل بصديقى وسيذكر لك متى وكيف نفعل ذلك ولسوف يعود بك وسنتواجد فى المقهى التى قابلنا فيها Z وفى هذه المرة لن يكون علينا نقل الاسماك !

وكأنه لم يغفل عن اشمئزازى من مهنة بائع السمك واستطرد يقول :

ـ فاذا فرض ولم أتواجد فى المكان فلا تقلق وسوف أعود بك فى آمان اذا كان كل شىء على ما يرام من جانبك ٠

فشكرته بحرارة ولكنه أبدى حركة اشمئزاز وقال :

ـ نحن نعمل من أجل قضية واحدة وأقل ما نعمله لا يستحق مثـل هذا الشكر ٠

وتكفل بنا الرجل الآخر وقادنا نحو الصندل الذى يتجول فيما بين جرونينج وفيما وراء الرين وقال :

ـ ربما لا تتعرض للرقابة الا عند موقع على الحدود ولكننى معروف جدا والمخاطر قليلة ٠ ومع ذلك لدى أوراق لكما أنتماالاثنان فأنت (والتفت الى صاحبى) يمكن أن تظهر بمظهر الهولندى ولهذا يجب أن تبقى على ظهر الصندل على اعتبار أنك صبى بحار وهذه هى بطاقتك ٠ أما أنت (ووجه كلامه لى) فنظرا لانك لا تتحدث لغتنا فسوف تكون مريضـا وتنـام ٠ والانفلونزا عذر من بين الاعذار ٠ واذا ما ألقيت على أسئلة فسأقول اننى سأنزلك فى رين على سبيل الاحتياط وسأظهر لهم أوراقك اذا لزم الامر ولكنهم لن يقتربوا منك حتى لا يأخذوا العدوى ٠

ومر كل شىء فى سلام حتى اذا ما اقتربنا من موقع الحدود نزلت الى داخل الصندل وخلعت بعض ثيابى واستلقيت عـلى الفراش ٠ وكانت الحرارة قائظة وسرعان ما أخذ العرق يتصبب منى الامر الذى يؤكد ادعـاء صاحب الصندل ٠ وعندما توقف الصندل كانت هناك صيحات متبـادلة بين صاحب الصندل ومن فى البر ثم سمعت أصوات أحذية ثقيـلة فوق

رأسى • فتساءلت ما اذا كان قد حدث شيء غير عادى • وسمعت أصواتا أخرى كما لو كانت أشياء تنقل وأخيرا سمعت أصوات الزوار وهم يغادرون الصندل • وبعد قليل ظهر صاحب الصندل ومعالم الهموم فى وجهه قلت :

ـ هل حصل شيء ؟ هل يرتابون فى شيء ؟

ـ كلا ولكن جاء رئيس جديد للموقع وألح فى فحص بعض سلع الشحنة وهذا هو سبب التأخير •

وكان يبدو أنه فى غاية الحنق من التشكك فى حسن نيته لدرجة جعلتنى أنفجر ضاحكا وسألته :

ـ هل شحنتك على ما يرام ؟

ـ نعم بكل تأكيد ! ترى ما الذى يظنه عنى هذا الرجل ؟

ـ أنت لا تستطيع أن تدلى بنفس التأكيد عن شحنتكالبشرية والافضل أن يركز اهتمامه على الشحنة الاخرى •

ـ يا له من غبى ! ولكننى سأعلمه كيف لايعود اليها فهذه هىالوسيلة الوحيدة لتربية هذا الطراز من الرجال فاذا ما أظهرت لهم أنيابك يصيرون أكثر ودا • ومن السهل سد القناة ! ولكن هذا يؤدى الى انتقام ولم تحن الساعة بعد ووصلنا رين قبل الليل وقادنا صاحب الصندل الى فندق ذى مظهر وضيع كى نأكل فيه وحجز لنا حجرتين وقدمنا الى صاحبة الفندق وهى امرأة ضخمة بدينة فى حاجة الى طبيب أغذية وسألتها أن تحجز لى غرفة عندما أعود بعد ثمانية أيام • فردت قائلة :

ـبا لتأكيد واذا كان من العسير العثور على غرفة فى زمن الحرب الا أن السيد يستطيع أن يتأكد بأنه سيحصل على واحدة •

فشكرتها بحرارة ومن أجل توثيق الرابطة عرضت عليها عربونا قبلته بطريقة تكاد تكون غير لائقة فى اندفاعها ولكننى تأكدت من امكان الحصول على مأوى لمدة ليلة أو ليلتين • وتركنا صاحب الصندل بعد

قليل . وكان من المقرر أن أعود في وقت عودته لـكي أقابله على نفس الرصيف فاذا لم يكن هناك أذهب لانتظره فى الفندق وتسير نفس الظروف فى جروينج .

وفى اليوم التالى استخدمت بطاقة شخصيتي كعامل فى السكة الحديد وتمكنت من المرور الى المحطة أمام جماهير المسافرين وأخذت مقعدى فى الرحلة الطويلة حتى أوسنا بروك Osnabruk وكان لانغمارى وسـط هذه الامواج البشرية ميزة جعلتنى أكثر حرصا . وقبل مغادرة الفنـدق اتخذت أنا وصاحبى لحسن الحظ الاحتياط بحمل خبز أسـود وسجق لا يثيران الشهية وتركت صاحبى على أمل أن أعثر عليه يوما ما وغالبـا ما كنت أسائل نفسى عن مصيره .

وفى أوسنا بروك سمعت صيحة Alles Ousteigen فلينزل الجميع ! وهكذا وصل القطار الى الجهة المقصودة على خلاف ما كنت أقصده فأخذت أبحث عن قطار آخر لكى أذهب الى بيليفيلد Bielefeld وأفادتنى بطـاقة السكة الحديد كثيرا جدا اذ أننى اكتسبت بفضلها عطف مستخدمى السكة الحديد التى كانت فى حاجة ماسة الى اصلاحات كثيرة .

وانتظرت خلال ثلاث ساعات وراودتنى فكرة النـوم فى نفس المكان وعدم السفر الا فى اليوم التالى لاننى ما كنت أرتاح للسفر مرة أخـرى فى قطار مزدحم . ومع ذلك تخليت عن هذه الفكرة لعدم توفر أى مكان أمين فى أوسنـابروك فى الوقت الذى يوجد من يتكفـل بى فى بيبلفيلد والوقت من جهة أخرى يعتبر عاملا هاما ولا أستطيع بتاتا أن أسمح لنفسى بتضييع يوم .

ولست أحتفظ لبيلفيلد بذكريات جميلة لاننى عندما وصلتها كانت تمطر ليلا وكانت الشوارع مبتلة أقرب الى القذارة والجو قاتم . وعنـدما اكتشفت أخيرا العنوان الذى كنت سأذهب اليه شـعرت بالملل معنـويا وجسديا . وفتحت لى الباب خادمة وعندما تأكدت أن الهر شنيدر Schneider موجودا هناك سلمت الخادمة ورقة قلت لها أن توصلها اياه بدون تأخير وانتظرت . وسرعان ما ظهر الهر شيندر شخصيا وكان استقباله لى من الحفاوة بحيث بدد كل ما كان يساورنى من مخـاوف وأدخلنى فى قاعة بهيجة ولاحظ أن ثيابى مبللة بالماء فأعطانى معطف دافىء بينما أخذت الخادمة ملابسى لتجففها وقدم لى كأسا من الكحول لم أرفضها كما فعلت فى جروينج

وكان رجلا بدينا فى بداية الخمسين من عمره عله مظهر المزارع الثرى ٠ وبسبب أعماله التى تضطره الى الذهاب بعيدا فهو يملك سيارة عتيقة ولكن أمينة ويبدو أن لديه القدر الكافى من البنزين ٠

ولم نتحدث حتى نهاية الوجبة المقبولة التى تناولناها سويا الى فى موضوعات عامة رغم ما كان يبدو عليه على خلاف العملاء الآخرين من رغبة جامحة فى معرفة سبب حضورى ٠ وعندما ذهبت الخادمة وانصرفت نهائيا غمرنى بسيل من الاسئلة من أين أتيت ؟ وبأى طريق ؟ وما هى نيتى ؟

فعرضت عليه سبب تواجدى فى أوجز عبارة والطريقة التى آمل الحصول بها على المعلومات المنشودة وسألته :

ـ هل سمعت عن معسكر العمال المدنيين هذا ؟

فرد ضاحكا :

ـ بكل تأكيد ! والقائد المساعد من أعز أصدقائى ٠ ولقد أسديت اليه بعض الخدمات وهو من جانبه أعطانى بعض العمال فى الحقول ٠٠ مقابل مكافأة زهيدة ٠ وهو يستفيد ولكن لا تتكلف المسألة كثيرا كما وأن اليد العاملة عسيرة المنال فى هذه الاوقات ٠ وفى الحقيقة كنت سأبحث من الغد عن جماعة من العمال ولن أجد أية صعوبة فى الحاقك بها ومن المحتمل عدم وجود حراس فهؤلاء الرجال لا يفكرون فى الهرب دون أن يكون معهم مؤونة ومال وملابس مناسبة ٠ أما عن الملابس فستجد عندى كل ما يلزمك لكى تشبه هؤلاء الشياطين المساكين !

ـ كل هذا جميل ولكننى لا أريد أن أضيع وقتى فى العمل بالحقول ويلزمنى أن ألتحق بأحد هذه الجماعات التى تعمل فى الكهوف فهل لديك فكرة عما يجرى هناك ؟

ـ لدى كثيرا من الافكار ولكن ليس معى أى دليل ٠ والشائعات تروج عن الصواريخ والافضل عدم الثقة فيها ٠ ولا تخشى شيئا اذ تستطيع بسهولة أن تتسلل وسط أحد هذه الجماعات ٠ وكل الاسرى يعملون فيها سوى أولئك الذين أستخدمهم وفى الغد سأعمل الترتيبات حتى لا أطلب عددا منهم قبل أسبوع وفى نهاية المدة سأطلب آخرين وأضع اسمك فى

قائمتي . وأستطيع أن أدخلك وأخرجك من المعسكر في اليوم الذى تحدده دون اثارة انتباه أحد . والرقابة تكاد تكون معدومة وسأقدمك لملاحظ العمال وهو فرنسي من لورين على شيء من التعليم ونستطيع أن نثق به كما أعتقد فهو يعرف كل الخيول ويقوم بتسوية كل شيء حتى مسألة النوم فهل هذا يناسبك ؟

ـ عظيم ! ان الامر يبدو أسهل من اللازم !

ـ نعم من السهل ادخالك واخراجك اذا لم يحدث ما هو غير عادى . ولكنك تصبح أقل أمنا اذا اكتشفت شيئا مفيدا خلال اقامتك في المعسكر وأنت لن تكون سوى أداة واذا كان‌هناك نشاط سرى‌فثق أنهم لن يتركوك تقترب منه وخاصة احذر من اثارة الانظار اليك ! واذا أسأت التصرف فأنا سأكون في حل من أن تعمل معى .

فوعدته بأن أبذل قصارى جهدى لكى أكون حريصا وقلت له :

اطلبني بعد أسبوع ابتداء من الغد ويلزمني لكى أحترم برنامجى ألا أمكث أكثر من اللازم ولابد من توفر بعض الساعات مواجهة للطوارىء .

ووعد بدوره أن يقوم باللازم وذهبنا ننام . ولم أجد مثل هذا الفراش الوثير خلال مدة بعد ذلك . وذهبنا قبل الفجر بقليل وبعد أن تجولنا مسافة عشرين كيلو مترا ووصلنا الى مجموعة من حظائر السيارات والمباني الملحقة التي يبدو أن أحدا لا يسكنها وفتح شنيدر احداها وأشار الى جرار أو جرارين وأدوات الزراعة ولورى كبير وكان في أحد أركان المكان ملابس زرقاء للعمل .. مع قذارة لكى تلاءم الاحوال السائدة ودعاني مضيفي لاختار رداء منها . وفي الواقع لم يكن هناك خيار الا بالنسبة للقامة وسرعان ما أصبحت عاملا من عمال الحقول .

وقال شنيدر : هذا طيب .

وأخذ يفحصني ويستطرد بقوله : ـ بديع جدا أن تركت لحيتك تنبت لان رفاقك لا يميلون الى الحلق كثيرا . وسأحتفظ بردائك الاصلى لحين عودتك . والآن سأبحث عن الرجال باللورى ولن أتغيب أكثر من نصف ساعة . وفي خلال ذلك خذ لك حذاء من هذا الكوم من الاحذية وضع

حذاءك الخاص فى السيارة • ولا تتعب نفسك فى مسحها ! ولا تنسى أن أبناء العمل يحملون مظاهرة على وجوههم فاجعل وجهك متسخا وأيديك قذرة لتتجاوب مع البيئة ونفذت تعليماته وانتظرت •

وعند عودته دخل شنيدر المبنى مع ملاحظ العمال الفرنسى وقدمنى اليه • ولابد أنه يثق به الى حد ما لان الوافد الجديد حيانى ببشاشة وأظهر استعداده لان يسدى الى خدمة دون أن يلقى أسئلة • وتحدثنا خلال فترة ثم خرجنا هو مع الجاروف وأنا مع عربة اليد ذات الرجل الواحدة لا لشىء الا لاقحامى وسط جماعة العمال الزراعيين • وبينما كانت جماعة العمال تمشى خلال الحقول مع الحارس نادانى الملاحظ شوكيه Shoquet • وأخذنا نحتسى مع شنيدر قليل من القهوة ونأكل الخبز الاسود • وبعد هــــذه الوجبة الزهيدة تركنا شنيدر وقال أنه سيعود قبل أن نقوم من مكاننا • وسألت شوكيه •

ـ ماذا سنعمل الآن ؟

ـ يا صديقى لدى احساس بأن شنيدر يريد أن تنهك نفسك فاجلس هادئا وفكر فى المستقبل • وهذا الكوم من القش يساعدك على التأمل أما بالنسبة الى فلابد لى للأسف لاذهب من وقت لآخر لارى ما اذا كان العمل يتقدم ولكن غيابى لن يطول • وليس فى هذا العمــل ما يثيرنى ولــكن شنيدر صديق ولديه ضميره الصغير • وقد طلب منى آن أهتم بك وهو ما سأفعله جهد امكانياتى وأنت كما ترى لست غبيا فان أحدا لا يأتى الى هذه المعسكرات لمجرد التسلية ؟ فما السبب اذن ؟ بديهى لاكتشف شيئا مثيرا • وما هو المثير فى هذه المعسكرات ؟ ليس عدد الجرذان والقمل ! ولكن ماذا يعمل الأسرى ؟ انهم يعملون صباح مساء ويسيرون مســـافة كيلو مترين ليحفروا كهوفا وانفاقا فى التل • وما هو هدف هذا النشاط ؟ أليس هذا هو ما تريد أن تعرفه يا صديقى ؟

وأعجبنى هذا الفرنسى الذكى وأنا أعترف دون تردد بأن تعليله مفحم وأسبابه مقنعة وقد ارتاح عندما أزجيت له هذا المديح عن دقته واستطرد يقول :

ـ عندما رأيتك قلت فى نفسى ليس هذا الشخص فرنسيا ولا بولنديا وليس فى المعسكر جنسيات أخرى وهو ليس روسيا ولهــذا فهو ينتمى

الى أحد البلاد التى تحارب ألمانيا والتى تهتم باكتشاف أسرارها ويبقى الولايات المتحدة وانجلترا وكانت طريقته فى الكلام تنفى كونه أمريكيا فلا بد أن يكون انجليزيا فهل أخطأت يا صديقى ؟

ـ كلا فأنت على حق مرة أخرى وهكذا كنت تحت رحمته ولو شاء أن يكشف أمرى لما كنت أستطيع أن أعمل شيئا • ولم يكن أمامى سوى السير فى الطريق الى النهاية وطالما كان شوكيه يعرف مثل هذا القدر من المعلومات فما الذى يمنع أن أثق به ولم يكن من المؤكد أن تسنح فرصة أعظم من هذه وفجأة صرخ :

ـ يا الهى ! كم أنا غبى ! اننى لم أفهم سوى الآن أنه ما دام شنيدر هو الذى يقوم بادخالك الى المعسكر فهو يعلم تماما من أنت وبالتالى فهو يقوم بدور العميل البريطانى ! فلماذا يفعل ذلك ؟ ليس من أجل المال بكل تأكيد فهل لديك فكرة ؟ •

ـ كلا فقد قابلته مساء أمس لاول مرة وأجهل كل شىء من ماضيه ولكننى متأكد من امكان الثقة به وربما كان مثل الكثير لديه أسباب لمقت النظام النازى وقد شوهدت أمثلة من ذلك •

ـ هذ محتمل ، ألم تفكر فى احتمال أن يكشف أمرك لدى القائد المساعد ؟ فهما على ثقة وثيقة كما تعرف •

ـ أعلم ذلك وأظن مع ذلك أننا نستطيع الثقة بالصديق شنيدر ولو الآن على أية حال •

ـ فعلا كما أن مخابراتكم ذات سمعة قديرة ولا بد أنك على حق •

وتغيب Choquet مرتين خلال النهار ليتفقد العمل • وعند الظهر حضر العمال للغذاء والراحة • وكان الطعام يتكون من (يخنى) توزع بسخاء على العمال والعيش الاسود وكان هذا الطعام أفضل على أية حال من الطعام الذى يوزع فى المعسكر وهكذا كانت السفرة شعبية • وكان ثلثا العمال بولنديين والباقى فرنسيين يختارون قبل كل شىء حسب صلاحيتهم

للاعمال اليدوية وليس لاسباب سياسية · وكانوا يستريحون لمدة ساعة ثم يعودون الى الحقول بينما انسحب أنا وشوكيه الى الحظيرة لنبحث الحالة وسألت شوكيه :

ـ أخبرني عما يحدث يوميا ؟ ·

ـ في منتهى البساطة ! بعد تناول ما يسمى الافطار يخرج كل جماعة من كوخها لكي تصل الى باب المعسكر وأذكر لك عرضا أنني رئيس كوخنا· ولا يوجد جهاز تنبيه وانما أجد أن رجالي جميعا في المكان ويقوم أحدهم بالتأكد من أن الاكواخ خالية وتركها الرجال الى العمل ونحن نعمل بالتناوب ليلا ونهارا ونسير مسافة كيلو مترين حتى مكان العمل · ومعظم الرجال يستخدمون في حفر الانفاق ونقل الانقاض الى عربات صغيرة يقوم عمال آخرون بتفريغها على بعد بضعة أمتار وسأعمل جهدي على أن نقوم بهذا العمل لانه أقل الاعمال مشقة ويمكنك أن تحصل على مزيد من السهولة في ملاحظة الاشياء · ولكن توجد انفاق محرم الاقتراب منها بتاتا ومدخلها يقف عليه حراس شداد ومن الخطر محاولة التسلل اليها وأنا لا أعرف ماذا يجرى فيها · ولا يدخلها سوى الالمان وبعض المدنيين المزودين ببطاقات المرور · وفي خلال الليل يخرج من وقت لآخر صناديق كبيرة يتولى جنود المان وضعها في لوريات ولم يحدث أبدا أن اشترك أحدنا في هذه العمليات ولا في حمل أصغر الصناديق التي ترد بصفة دورية · ولاشك أن محتويات هذه الصناديق هي الرد على تساؤلك ومن العسير تحديد طابع تلك المحتويات ·

ـ بالتأكد حتى ولو كانت الصناديق تشتمل على قطع مفصولة فلن ادرك المراد منها · وآخيرا لابد من الاعتماد على الحظ · وما أبغيه هو الحصول على فكرة وأملي أن أحصل عليها خلال الايام القادمة ·

وعاد شنيدر في نهاية اليوم وتحدث معي هنيهة وسألته : كيف حال صديقك ·

ـ على ما يرام ويبدو أنه ذكي جدا على خلاف الآخرين وأشعر بأننا على تفاهم وود فيما بيننا ·

ـ عظيم ! وسوف ينفعك كما آمل وسأستدعيكما سويا في خلال ثمانية أيام وعشمي أن يمر كل شيء كما تريد في خلال هذه الايام ·

وصعدنا جميعا الى اللورى الذى كان يقوده بنفسه . وبعد ربع ساعة أنزلنا أمام باب المعسكر . وابتداء من هذا الوقت لم أترك شوكيه كما هو المتفق عليه وكان يقف حارس على باب المعسكر ولكن أحدا لم يفحص متاعنا وذهب كل فرد من العمال الى كوخه وقادنى شـوكيه معه وكان بسكن فى بناء طويل منخفض يكاد يكون شاغرا ومعرضا لتيارات الهواء بسبب كسر النوافذ من الجانبين . وكان هناك موقد كبير يحتـل وسط المكان ولكن الموقد لم يكن ليوقد فى هذه الفترة من السنة وعلى كل جانب يصطف خمسة عشر فراشا ترتبط بالحائط بعوارض خشبية وترتفع قليلا. وكان حوالى ثلثى الافرشة مغطاة بأغطية والاخرى بدون أغطية بما يدل على أنها غير مشغولة وكان فراش شوكيه يقع بالقرب من الباب وأشار شوكيه الى أحد الافرشة الشاغرة القريبة وهو يقول :

ــ نم على هذا الفراش وسآتى لك بالاغطية .

وأخرج من خزانة خشبية فى الحائط أغطيات ثلاث مهلهلة ولاحـظ نظرة اشمئزازى فقال :

ــ نعم أنت تجد أفضل منها فى ريتز Ritz ولكنها نظيفــة وأنا أحتفظ بها للشتاء . وهنا لا أحد يخلع ثيابه ليلا وفى هـذا الوقت من الافضل أن تجعلها تحتك لان الارضية شديدة البرودة .

ثم ذهبنا الى كوخ آخر أكثر اتساعا وتستخدم كمطعم وكان يشغله عمال ويملؤون نصفه ولم يعيروننـا وهم يأكلون بصخب أى اهتمـام . وذهبنا الى أحد الاركان نأكل الطعام المعتاد (اليخنى) والعيش الاسود . وكانت (اليخنى) تصب لنا فى طبق من الزنك تثير نظافته الظنون . والكمية ربما كانت كافية ولكن الصنف وجودة الطعام يحتاج الى كثير من العناية كما أن القيمة الغذائية ليست كبير . وكانت توجد بعض أوراق الكرنب التى يبدو أنها لم تغسل جيدا القيت وسط الطعام ولم تكن لتثير الشهية . وطيلة مدة أقامتى لم يتغير هذا اللون من الطعام وربما كان هنا أفضل من أى مكان آخر !

وبعد الاكل ذهب شوكيه الى أحد المكاتب ليتلقى تعليمات بصـدد اليوم التالى . ووقفت أنا فى انتظاره خارج المكتب . وعينا للعمـل فى المغارات والكهوف خلال النهار واقترح شوكيه أن نذهب لننام على الفور لانه كان علينا أن نستيقظ فى الخامسة صباحا .

الباب السابع عشر

وفى صباح اليوم التالى اتخذنا سبيلنا بعد احتساء القهوة وأكل الخبز الاسود كالمعتاد وبعد أن تزودنا بخبز أسود وسجق أشد سوادا وسرنا لنعبر مسافة الكيلو مترين • وكان الجو رائعا فكانت الطبيعة تبتسم وأخذت أملأ ناظرى وأتمتع بما حولى على خلاف رفاقى الذين لاشك قد انتهوا الى أنه ليس فى الحياة سوى الاشجان والاحزان • وكانت الهموم تتجسد على وجوههم لدرجة بددت عنى بسرعة كل ما كنت أشعر به من ابتهاج بالطبيعة •

ووصلنا الى المرتفع الذى ينبثق من السهل وأحطنابه لكى نصل الى النقطة التى قيل لى عنها أنه يلتقى بها الطريق والسكة الحديد والنهر • وبعيدا لمحت قرية كانت تتدثر بوشاح الصباح • وكان جزء من التل مقتطعا ربما لتوسيع الطريق وكانت أكوام الاحجار ترتفع لتكون جدارا يرتفع الى حوالى متر وعشرين سم ويمتد سمكه حتى المدخل • وسرعان ما خطرت لى فكرة امكان وجود مكان رائع خلف هذا الجدار لقضاء ساعة أو ساعتين بعد ظهر أحد أيام الصيف لان هذا الجدار سيخفى المكان عن جميع أنظار المارة فى الطريق ولم أستطع الاسترسال فى التفكير لاننا دخلنا المدخل الاول وتقدمنا بعد أن اجتزنا مسافة كبيرة •

وكانت هناك مصابيح كهربية فى السقف المرتفع جدا تنير النفق الجيد التهوية • وكان على كل جانب من النفق قضبان سكة حديد يبتعد عن حيطان النفق قليلا • وقادنى شوكيه Choquet مع اثنين من البولنديين الى أحد عربات السكة الحديد الفارغة • وقال لى شوكيه أنه اذا انطلقت أشارة نقوم نحن بدفع العربة الى داخل النفق ونشحنها ثم نسير بها الى الطريق الآخر حتى المدخل حيث تأخذها جماعة أخرى من العمال لتفريغها وهلم جرا ad infinitum وطبيعى لم تكن مهمة شاقة لانها فى حدود طاقتى وكنت أشكر شوكيه من أعماق نفسى لترشيحى لهذا العمل •

ولم أتمكن من الملاحظة الا فى المرحلة الثانيـة من بدء العمـل لانني انهمكت خلال المرحلة الاولى فى أداء العمل · ولاحظت عدة أنفاق جانبية تبدأ من نفقنا الى اليمين والى الشمال وعلى كل نفق كلمات « الدخـول ممنوع » وكان يقف على مدخل كل نفق حارس لتحريم الدخول ولم أشأ أن انتهك هذا التحريم ومع ذلك فقد توقفت عربتنا لمدة دقائق أمام أحد الحراس وتجاسرت بالقول لاحد الحراس :

– Guten Tag صباح الخير !

فنظر الى نظرة منعتنى من معاودة ذلك مرة أخرى · وكان اليوم قاتما كما قلت ذلك الى شوكيه فرد باسما بقوله : آه ··· انك لاتجد المسألة سهلة ؟ ولكننى اعمل هنا منذ وقت طويل ولدى أمورا قد تهمك · والالمان يسيرون على وتيرة واحدة ولا يخرجون عن الروتين · ولا يوجد عمل مساء كل جمعة لايقصد اعطائنا راحة ولكن لان جماعات من الالمان تحضر الى المكان فى هذا اليوم وهم لا يريدوننا أن نرى ماذا يعملون · واليومالتقطت مايقوله اثنين من الحراس الالمان « سيحضر ليو Leo يوم الجمعة وهو رجل شهم Ein gutur Kerl ويجب أن نعتنى به فى صباح اليوم التالى بعـد العمل » ورد الآخر بقوله « بالتأكيد » وسنكون أحرار فى صباح السبت نفعل مانشاء واذا أصابه دوار فالغلطة غلطته !

وقلت لشوكيه :

– هذا خبر رائع · ولكن ما أهميته بالنسبة الى ؟ فالجماعة التى تأخذ دوريتها فى الصباح سترحل فى المساء وتحل محلها جماعة عسكريةألمانية تذهب هى الاخرى عندما نأتى نحن فى الصباح · فهل تقترح أن أحصـل على زى عسكرى لست أدرى كيف أحصل عليه لكى أندس بين هؤلاء القوم لاعرف مايعملون ؟

– كلا ! ولكنهـم يرتدون ملابس خاصـة تختلف عن الملابس التى يرتدونها فى المعسكر · ولهذا يكتشف أمرك على الفور ·

– اذن لماذا قصصت على قصتك ؟

ـ لاشيء ولكن أية معلومات يمكن أن تقودنا الى شيء ومايصنع هنـا لا يرسل الا فى ليلة الجمعة عندما لايتواجد أى أجنبى وعليك أن تكتشف الموضوع بوسيلة يتفتق عنها ذهنك ولا أستطيع أنا أن افعل شيئا • وأنا اتسلى بالتكهن ولكننى أمقت القيام بأى عمل •

وكان هذا الحديث فى مساء الاثنين وتتابعت الاحداث فى طريقها المعتاد خلال الايام الثلاث التالية • وقام البولندیان معى بدفع العربة دون أن نقترب من أى منفذ قد يوصلنى الى حل المشكلة • وكان على شنيدر أن يحضر يوم الأحد لاخذى سواء عثرت على حل من عدمه ولم يعد أمامى فى العمل سوى يومى الجمعة والسبت •

وفى صباح الجمعة عندما سرت بحذاء الحائط القائم عند مدخل النفق أحسست بأن فى هذا المكان عند التصاق الحائط بالتل الذى لا يبعد سوى ثلاثين سنتمتر من المدخل الذى يجتازه يوميا يوجد مركز ممتاز لاستراق السمع ويمكن الاستخفاء فى الزاوية التى يتقابل فيها الجـدار مع التل لاستماع الى ما يدور بل ومشاهدة ما بين الصخور • وكاد الوقت المحدد لى أن ينتهى وأحسست بأنه لو ذهبت هذه الفرصة فلن تسنح لى مـرة أخرى • وعند فترة راحة الظهيرة همست فى أذن شوكيه بأننى لن أذهب فى المساء مع الآخرين ولكننى آمل أن أكون بين أولئك الذين سيعودون للعمل فى صباح السبت • فاذا ما أحضروا لى مزيدا من الزاد فأننى أرحب بذلك وفى المساء عند الرحيل كان من السهل على أن أسير فى أعقـاب طابور من الرجال لانهم كانوا يتقدمون بغير نظام وعندما وصلت الى نهاية الحائط على اليمين انفصلت عن الطابور دون أن أثير الانظار ووصلت الى مدخل النفق من الناحية اليسرى وأخذت اتسلق على أربع حتى وصلت الى نقطة اتصال الجدار بالتل على بعد بضعة أقدام من المدخل وانتظرت وأنا فى وضع صعب أنتظر الاحداث •

وسرعان ماظهر نشاط وأمكننى أن ألاحظ عبر شق فى الجدار مايجرى فقد أضيئت أنوار المصابيح التى لم أكن أرتاب فى وجودها وأنارت المكان كما لوكان فى وضح النهار • وهذه الاضاءة تلاها وصول لوريين نزل منها أربعين جنديا • وكنت اتساءل عن ليو Leo هذا وأخذت أعبر عن أملى فى أن يتقابل مع اصدقائه فى الصباح • وظل كل شىء هادىء لمدة طويلة •

وكان الجنود قد دخلوا الى النفق ومضت ساعة لم يخرج فيها صوت من الداخل · وانطلق اللوريات وحل محلهما جرارات مع ساحب طويل منخفض ومكشوف يستطيع أن يحمل حملا ثقيلا ·

وربما كانت الساعة ٢١/٣٠ عندما لمحت حركة جر طويلة وعربة صغيرة يدفعها الجنود الذين ظهروا من النفق وهم يحملون صندوق كبير · وصاح صوت :

ـ أين الجماعة المقدسة المكلفة بالشحن ؟

وعلى الفور ظهر ستة من الجنود الذين كنت أجهل تواجدهم حتى هذه اللحظة وتسلطت عليهم أنوار المصابيح وأخذوا يحملون الصندوق وهم يلعنون ويسبون لكى يضعوه على الساحب · وكان من الواضح أن الصندوق ثقيل جدا · واستطرد الصوت يقول :

ـ ادفعوه الى النهاية لان هناك صندوقين آخرين · وفى الواقع جىء بالصندوقين ووضعا بنفس الطريقة وتساءل صوت :

ـ اين هذا الياور ·

فرد عليه آخر : رهن اشارتك ياسيدى اللفتنانت ! وهكذا كان هناك ضابط يدير العملية الامر الذى يدل على أهميتها اذ كان يكفى صول لادارة هذا النوع من السخرة وبالتالى تكون محتويات الصناديق ثمينة وتعمل السلطات على ألا يقع لها أية أضرار ·

وقال الضابط الذى عرفت صوته :

ـ سأذهب مع هذه الجماعة لاتولى الشحن فى القطار · وسوف نعود لنبحث عن الباقى · واذا كانت هناك صناديق أخرى جاهزة أشحنوها فى هذه الاثناء وانتظروا عودتى · وبحق السماء أناشدكم غاية الحذر لان أقل ضرر يصيبها سيكلفكم الكثير ·

وأكد الصول أنه سيبذل قصارى جهده للمحافظة عليها وسار الجرار فى اتجاه طريق ثانوى يبعد مسافة اربعمائة أو خمسائة متر · وقد لاحظت هذا الطريق من أول يوم ولكن لم أكن أربط بينه وبين ما يجرى داخل التل ·

وترتب على ذهاب اللفتنانت عودة الهدوء وقل التوتر الذى كان سائدا وكان الصول وسائق الجرار الثانى اصدقاء قدماء كما يبدو من مظهرهما · ونزل السائق بناء على دعوة الصول ليأخذ سيجارة · وحمل الهواء دخان السيجار الى ناحيتى ولم أحسده على الرغبة فى التدخين لان الله وحده كما قال شوكيه يعلم مم يتكون هذا الذى يشربونه كأنه تبغ !

وجلسا على الاحجار على مسافة مترين تقريبا من المكان الذى كنت اختبأ فيه وتحدثا أولا عن شئونهما الخاصة وصحة عائلاتهما وعلمت أن الصول متزوج وله ولد أما السائق فلازال أعزب · وبعد تبادل الذكريات والتأسى على الايام الخوالى التى كانت تمر فى مرح وبدون هموم والتى يريان أنها لن تعود أبدا استرسلا فى حديث عاطفى كان يخشى أن يتحول الى حديث ممل لاننى كلما سمعت أحد الالمان يتحدث عن العاطفة انتابتنى رغبة جامحة بأن ألقى على رأسه حجرا · ولم أكن لاجازف بالقعود فى جلستى الشاقة هذه لاسمع مثل هذا الهراء ! ولكننى لم أكن لاستطيع توجيه حديثهما الى الوجهة التى أريدها وكان على أن اتحمل الصبر ومع ذلك فقد أصخت السمع عندما طرق أذنى هذا الحوار :

ـ لعل الامر على مايرام ياصديقى العجوز فأنت أعزب أما أنا ففى عنقى زوجتى وولدى ولست أدرى مايحدث لهما عند حدوث الغارات المتواصلة ليل ونهار وأصبحت وسلدوف Düsseldorf أقل أمنا ولست أعرف مكانا أمينا ابعث بهما اليه · والقلق يعصرنى عصرا · وهذا هو مايسود الناس فى جميع انحاء ألمانيا فلم يعد هناك أى مكان أمين ·

ـ على أية حال تستطيع أن تعزى نفسك بأن نفس الشىء يحصل للانجليز !

ـ ليس من التعزية الظن بحدوث مذابح مشابهة للاطفال الانجليز آ واذا هلكت عائلتى فلن يعيدها الانتقام الى الحياة ·

ـ أنت على حق في هذا ! وكم أشعر بالانفعال كلما تذكرت هذا الغبى جورنج عندما كان يقسم بأن أية قنبلة لن تسقط في البلاد ! وهذا الوغد لابد أنه يتخذ من الاحتياطات مايكفل به درء أي ضرر عنه ! وليس عليه أن يقف في صف طويل ليصرف التموين ثم لايحصل في نهاية المطاف على شيء كما قالت لى والدتى في رسالتها الاخيرة ٠

وسمعت احتكاك عود الثقاب فأدركت ان الدخان ستأتى الى مرة أخرى وخشيت أن أسعل فينكشف أمرى ولهذا أخرجت منديلى لمواجهة هذا الاحتمال ولحسن الحظ لم يحدث مكروه ٠ وسمعت بقية الحوار :

ـ وبصدد الانتقام هل تحسب أن الأشياء المقدسة التى يكلفوننا بشحنتها بكل هذه العناية ستنجدنا ؟ ان الانتقام يجلب الانتقام ٠ ولن يترتب عليها سوى زيادة الغارات علينا الا اذا كان لدينا سلاحا جديدا فتاكا ٠

ورد السائق :

ـ آه آ اننى أود أن أسألك عما تقوم بشحنة بالتحديد ليلا ؟

ـ أسكت هاهم آخرون يحضرون وأشعر كما لو كان الجرار الآخر سيحضر فأذهب واصعد الى مكانك بسرعة ! فألقى الاثنان سيجاراتهما من فوق الحائط وسقطت فوق رأسى ولحسن الحظ لم تظلا مشتعلة مثل السجائر الانجليزية بل انطفأت على الفور وقبل أن تلمسانى ٠ وسمعت أنا كذلك صوت عربة السكة الحديد الصغيرة وهى تخرج من النفق وصوت الجرار وهو يتقدم ٠ وكم ساءنى أن يتوقف الحديث في اللحظة التى كنت على أحر من الجمر لمعرفة حقيقة مايقومون بشحنة ٠ وأخذت اسب والعن وعدت الى الانتظار كأول مرة ٠

وبدأ الشحن ثانية على جرار السائق الذى كان يتحدث والذى ذهب مع اللفتنانت وبعد بضعة دقائق راحة عاد الجنود الى النفق بينما ظل الياور في الخارج مع السائق الآخر ويبدو أن مهمته كانت في مجرد الاشراف ٠

ومرة أخرى أخذ يتحدث ولكن حديثه كان ذو طابع رسمي ولو أنه لم يخل من أهمية فى نظرى وكان السائق الثانى ينظر الى الدنيا بمنظار أسود بحيث ينبى عن انطفاء جذوه الروح العسكرية التى ربما كانت تملأ قلبه من قبل . وتساءل :

ـ كم بقى من عمليات الشحن ؟

ـ أربعة بعد هذه ؟

ـ فى هذه الحالة سأنتهى حوالى الثالثة صباحا لاننى بدأت فى الاول فهل استطيع الانصراف بعد ذلك ؟

ـ كلا اطلاقا ! اذ يجب على الرجال ان ينتظروا فى الداخل لامان العمل فى المعسكر وأنت تعرف ذلكولكن ربما شعرتم يا صاحب الفخامة بالتعب؟ فضى هذه الحال لا تتردد فى أن تقول ذلك ! فسوف اتصل على الفـــور بالفوهرر الذى يبعث اليك بسيارته ! ويســعده أن يســدى اليك هذه الخدمة البسيطة !

وتوقفت لحظة تم بصق بعنف واسترسل يقول :

ـ انتم ايها الشبان لا تفكرون الا فى انفسكم . ولايهمكم أن تخسر الحرب طالما انكم مرتاحون ! ياقذرين !

وبيدو أن الآخر لم يتحرك ولكنه رد بقوله :

ـ اذا طلبت رأيى فقد خسرنا الحرب وسوف نعقد الصلح سريعا وهذا أفضل .

ـاخرس ! ولو نطقت بكلمة واحدة بعد الآن فسألقى القبض عليك ! ما اسمك ؟

ـ ماير ليو Mayer Leo

ـ سأضع عيني عليك ! والآن أصعد لتجلس فى معقدك ولا تتحرك من مكانك الا عندما تكون هناك حاجة اليك ! وبديهى توقف الحديث عند هذه النقطة · فهل كان هو ليو Leo الذى كان الحارسان يزمعان تقضية نهارا ممتعا معه ؟ وفى هذه الحالة كان يخشى أن يفقد المتعة ويقضى نهارة فى زنزانة · ولابد أنه كان يفكر فى ذلك لانه صعد وجلس فى مقعده دون أن ينبس ببنت شفه ·

ومن وجهة نظرى الشخصية علمت من الحديث الوقت الذى ينتهى فيه العمل ليلا · واذا كانت آخر جرارة تعود فى الساعة ٤/٣٠ فان عمال السخرة يرجعون على أكثر تقدير فى الساعة ٤/٤٥ وكما يقول شوكيه لا يبدأ العمل ثانية الا فى الجمعة التالية وبعد انصراف الجنود كان من السهل على أن أصل الى طريق الجاراج طالما كان الليل دامسا لكى أفحص القطار واعرف وجهته والساعة التى سيتحرك فيها · ومن المفروض أن تكون طريقة الالمان فى العمل تسير على وتيرة واحدة كل أسبوع حتى ينتهى تفريغ الشحنات من القبو ·

وبعد أن وضعت هذه الخطة لم يكن أمامى سوى أن انتظر عودة السائق صديق الياور على أمل أن أحصل منهما على معلومات أخرى من حديثهما ·

وعندما عاد علمت أن اللفتنانت كان غاضبا جدا لان اثنين من « الاغبياء » سقط منهما صندوق عند الشحن وهو يخشى التأنيب لوحدث للمعدات أضرار · ودهشت لموقفه لانه لوحدث هذا لضباط انجليزى لما أعار للامر أدنى اهتمام واكتفى بعدم ذكر الحادث حتى تنسب المسئولية الى غيرة · وغادر الجرار الثالث المكان مع هذا الضابط الحريص وساد السكون مرة أخرى حتى نزل السائق ليتحدث مع صديقه الياور من نفس النقطة التى انتهيا فيها فبدأ السائق يقوله :

ـ قل لى بربك ما الذى يشحن فى هذا القطار ؟ لقد ترك عاملان صندوقا يسقط وقد ظننت أن اللفتنانت سيطير عقله وقد هددهما بأشد العقوبات فهل فقد عقله أم أن الصناديق تحتوى على القيمة التى تستحق كل هذه المبالغة ؟

ـ أستطيع أن أقول لك ياصاحبى فأنت تعرف أننا على وشك أن نطلق صواريخ على انجلترا أولا ف ـ ١ V. 1 ثم ف ـ ٢ V. 2 ويبدو أن

الطراز الاول ف ـ ١ ليس قوى التأثير فهو بطيء سريع الانكسار ومن السهل ايقافه · أما ف ـ ٢ V ـ 2 فلا يمكن ايقافه كما دلت التجارب الاولى ويقال ان اطلاقها غير محدد ولايمكن أن يحقق أضرارا جسيمة اذا كان الهدف كبيرا مثل لندن وهذا بقدر عدم توفر كميات كبيرة منه ولاشك أنه سوف يستخدم طراز ف ـ ١ ، ف ـ ٢ أما التى ستصل فستؤدى الى اضرار ولكنها لن تكون شديدة الفعالية أما بعد ادخال وسائل الاتقان الجديدة كما فهمت من الحديث الذى كان يدور بين مهندس وكابتن وحدتنا عندما كنت فى مكتب السرية فان الحالة ستتغير تماما فبدلا من صاروخ واحد نستطيع أن نطلق مائة ولا يستطيع أى بلد أن يصمد أمام هذا السلاح وقد يؤدى الى صلح على أساس حل وسط ويترتب عليه التعجيل بانهاء الحرب بأكثر مما نأمل ·

ـ هل تريد أن تقول أن الصناديق التى تشحنها ملئى بالاسلحة الجديدة ؟

ـ كلا على الاطلاق ! ولكننى اعتقد كما سمعت أنها تحتوى فقط على بعض الاجزاء الاساسية ولكنها دقيقة الصنع والتى بدونها لايمكن انهاء صنع الصواريخ ولكن أين يتم التركيب ؟ لست أدرى · ربما كان بالقرب من قواعد الاطلاق على الحدود الفرنسية والبلجيكية أو الهولندية ولكن اذا حدث تأخير فى ارسال الاجزاء فلاشك أن النتيجة كارثة والضابط يعلم ذلك وهذا هو مايفسر سر غضبه عندما رأى هؤلاء الاغبياء وهم يسقطون الصندوق ·

ـ ولكن ما سبب انشاء هذه الورش تحت هذا التل فى حين توجد مصانع اخرى يمكن أن يجرى فيها العمل بطريقة أسرع وأسهل ؟

ـ لا أدرى ولكن المصانع الاخرى توجد على سطح الارض وبالتالى تتعرض للتدمير بالغارات الجوية أما هذا المكان فهو سرى ولا يمكن لاضخم القنابل أن تصيبه بأى ضرر · وفضلا من ذلك توجد مداخل كثيرة بحيث اذا سد واحدة منها لا يتعطل العمل · وانيذ انعاملة الاجنبية متوفرة · والتل سبق استغلاله وقت السلم باعتبار أنه محجر ولم يستلزم اعمال شاقة لتحويله الى مصنع · وليس هناك ما يخشى على المكان وليس هناك

مخاطرة الا عند النقل الى مكان التجميع الذى لابد أن يكون موجودا فى مكان سحيق غرب الرور Ruhr لانه من الغباء الاحتفاظ بمثل هذه الاجهزة الثمينة بعيدا بأكثر من الوقت اللازم وكانت محطة هام Hamm تتعرض مثلا لتهديد شديد ٠

ـ هذا مثير جدا وأملنا أن ينهى هذا الاختراع الجديد الحرب سريعا فقد بدأت أسأم ٠

ـ وأنا كذلك ولكن بحق السماء أسكت ! فلست أحب ولا انت أن تنتهى حياتى رميا بالرصاص أمام بلاتون من الجنود ٠

ـ لا تنفعل ! فانى أعرف كيف أسكت ٠ وتحول الحديث بعد ذلك الى مسائل شخصية ٠ واستعرضت فى ذهنى الحالة على ضوء المعلومات التى أدلى بها هذا الياور المفيد معترفا بأن على أن أثق بكلامه لعدم استطاعتى التحقق من تبيان صحتها وعلى ذلك تكون المعلومات كالآتى :

أولا : تصنع عناصر حيوية تدخل فى تركيب الصاروخ الجديد ٠٠

ثانيا : بعد أن توضع هذه العناصر فى الصناديق ترسل الى مسافة تبعد حوالى خمسمائة كيلو متر على طريق جاراج حيث تشحن بعناية فى قطار وتنفذ العناية القصوى أما بسبب دقة الاجهزة أو خطورتها ٠

ثالثا : تجرى هذه العملية فقط فى ليلة الجمعة بين الساعة ١/٣٠ الساعة ٤/٣٠ أما فيما عدا ذلك فان النشاط يظل سريا ويعتبر بعيدا عن منال الاعداء ٠

رابعا : القطار لابد أن يرحل بعد الساعة ٤/٣٠ الى الغرب الى مكان التركيب الذى يقع خارج منطقة الرور المهددة ٠

خامسا : للعمل ضد هذه الشحنة الثمينة لابد من العمل بعد تكوين القطار فى المحطة المحلية أو بعد ذلك بسرعة حتى يسهل التحقق من معالمه وبمجرد أن يدخل القطار شبكة الرور للسكة الحديدية لا يعثر عليه فى حين يسهل التعرف عليه عند بداية انطلاقه ولم أجد أى قطار آخر يمر خلافه عند نقطة البداية ٠

وأخذت أقلب فكرى فى هذه المعلومات وأنا خلف الجدار متذرعا بالصبر . وكنت آمل أن تنتهى العمليات سريعا حتى أذهب لالقاء نظرة على عربات السكة الحديد وهى رابضة بالليل . وبديهى أتعرض للخطر لو بقيت حتى الصباح ولم تكن بى أية رغبة لان أدع نفسى لاية مباغته .

وتمت عمليتى الشحن الرابعة والخامسة كالمعتاد لدرجة كنت اعرف مقدما ماسيقع فقد سمعت السائق يتذمر بأن عليه أن ينتظر ساعة أخرى وكان يقول .

ــ لم تصل الساعة الثالثة ولسوف نرحل فى الرابعة . ومع ذلك فهذه الشحنة الاخيرة كانت تشمل ستة صناديق صغيرة جدا وضعت بسرعة وانصرف الرجال بعد ذلك بثلاثين دقيقة والكل يشعر بالارتياح وأنا معهم . وشعرت بالملل من نشاط الليل وفى الوقت الذى كان سيتمتع فيه هذا السائق ببضع ساعات من الراحة لكى يستأنف نهاره ببشر كان على أن أقوم بتحريات أخرى لمحاولة الحصول على مزيد من تفصيلات ثم كان على قضاء يوم عمل مع شوكيه وصحبه .

وبعد رحيل آخر جندى بدأ المكان مهجورا فجأة ولم يبق ديدبان أو حارس عند مدخل النفق المجاور لمخبىء وانطفأت المصابيح . وكان الانتقال من النور الى الظلام ومن الضوضاء الى السكون بدرجة شديدة حملتنى على الاعتقاد بما اذا كان فى الامر شراك لاخراجى من مكمنى وهذه فكرة تافهة ولا شك لانه لو كان لدى الالمان أدنى ارتياب فى وجودى لما تورعوا عن الالتجاء الى الطرق المباشرة . وعندما تخليت عن هذه الافكار وجدت أنه لم يبق أمامى متسع من الوقت . فصعدت الجدار واتجهت باحتياط الى طريق الجاراج ومررت أمام أربعة مداخل للنفق واتبعت الجانب الآخر من الطريق لتفادى مقابلة الحراس الذين يمكن تواجدهم من الداخل وفى الحقيقة لم أكن اتصور أن الرقابة قد زالت تماما حتى بعد رحيل الاجهزة الثمينة . ومع ذلك وصلت الى طريق السكة الحديد دون حادث . وكانت السماء ملبدة بالغيوم وكان القمر يسطع بين آونة وأخرى فيشع ضوءا أهتدى به من وعثات الطريق . وكانت هناك اسلاك شائكة تفصل السكة الحديد عن الطريق . فانزلقت تحت أدناها متفاديا لمسها خشية أن تكون متصلة باشارة

تنبيه · ولم أعثر على أى أثر للحياة الا كوخا للعمال يمكن أن يأوى أحد الحراس ولكنه كان شاغرا كما تأكدت من ذلك وأنا التزم الحرص · وانطلقت أشعة من وراء نافذة المحطة المغلقة وكانت هى الاضواء الوحيدة فى المنطقة ·

وكان طريق السكة الحديد يتكون من ثلاث طرق يتواجد فى أحداها خمس عربات مكشوفة ليس هناك غيرها ولم يكن من العسير الصعود اليها فذهبت الى أوسطها حتى لا أتعرض للانظار وصعدت على أحد طاسات التصادم وراودتنى فكرة مفاجأة اذ قد يكون فى هذه العربات حراس مختفين · فلماذا لم أفكر فى الامر قبل الآن ؟ وربما كان اختفائهم داخل العربات هو ما يفسر الاهمال فى عدم وجود حراس · ومضت بضع دقائق وأنا لا أتحرك مرهفا الاذن أتلصص لاقل حركة ولكننى لم أسمع شيئا · فأخذت اطمئن نفسى بأنه لو كان هناك حراس حقيقة ولم يراودهم النعاس لشاهدونى اما فى وضعى هذا واما من الطريق · فتشجعت وأحسست بمرور الوقت وعزمت على أن اتحقق من هذه الفكرة · فوضعت يدى على حافة عربة البضاعة ورفعت جسمي حتى أرى ما بداخلها وكانت العربة تحتوى على ثلاث صناديق تحتوى كل المكان ولاتدع مكانا لحارس كي يختفى بينها · وتسلقت فوق احدى الصناديق وأخرجت من جيبى مصباحا كهربيا من النوع الشائع الاستعمال خلال الحرب فى لندن بحيث لا يخرج المصباح سوى بقعة صغيرة من الضوء وهذه البقعة الضوئية ربما لا تكفى فى لندن ولكنها مناسبة جدا هنا لفحص الصناديق وحتى لا يشاهد الضوء من الخارج ولم يكن على الصندوق الاول أية كتابة واذا كان هناك شيء منها فلابد أنها على الوجه المقلوب ·· ولكننى كنت أسعد حظا مع الصندوق الثالث فقد قرأت بالحروف الكبيرة VBER HAMM أى طريق هام وهو مايدل على أن هذا القطار يعبر محطة الفرز الكبيرة · والى جانب هذه الجملة كانت هناك بعض الحروف الهيروغليفية التى لم أفهم منها شيء ولكننى نقلتها بعناية على قطعة من الورق على أمل أن يعرفها أهل الذكر من ذوى الاختصاص ومهما يكن من شيء فلم تكن هذه اللحظة هى لحظة التخمين أما الصندوق الثالث فهو لايحمل أى رقم وكان من المستحيل نقل الصناديق أو زحزحتها لارى ماهو مكتوب على جوانبها ·

ومع ذلك ذهبت لاجرب حظى فى عربة أخرى · ولاحظت تشابه الحروف المكتوبة على الصناديق الموجودة بها مثل تلك التى شاهدتها فى العربة الاولى وفجأة سمعت صفيرا من بعيد ينذر بقرب وصول القطار الذى

ربما سياخذ هذه العربات ولما لم تكن لدى أية رغبة فى التعرض لاكتشاف أمرى أو السفر الى هام أسرعت فى الابتعاد والعودة الى مكانى الاول خلف الجدار • وراودتنى فكرة الانتظار لارى ما اذا كان وصل العربات بالقطار يجرى بالتمام ولكننى عدلت عن هذه الفكرة لانه كان من السهل ملاحظة رحيل القافلة • وللاسف لم يكن معى ساعة حتى لا تجذب الى الانظار • ولم يكن موعد الفجر بعيدا عندما عدت الى المخبأ • ولم أجد أى حارس عند مدخل النفق واستخلصت من ذلك أنهم بالداخل وهو يلائمنى كثيرا • ولم أحس سوى رغبة واحدة هى محاولة النوم قليلا ولو لحوالى ثلاث ساعات لانه كان على أن ألحق بالعمال عندما يحضرون فى الصباح • واكتشفت بقعة من الارض رخوة قليلا فارتميت اليها وكانت آخر فكرة راودتنى قبل أن ينتابنى النعاس هو الامل فى أن يحضر شوكيه فى الصباح ومعه بعض المأكولات والمياه لاننى كنت أحس بجوع وعطش شديدين ولكن حاجتى ورغبتى الاولى هى النوم •

واستيقظت قبل وصول الجماعة وشاهدتها وهى تقترب فى عدم نظامها المعتاد • وكان الرجال يتقدمون ورؤسهم منكسة الى الارض الامر الذى أعاد الى ذهنى نصيحة أول من دربنى العسكرية :

ـ ارفع رأسك وانظر الى الامام ! انك لن تعثر على جنيهات فى الارض فلا تتعب نظرك فى البحث عنها !

ولم أجد أية صعوبة فى اللحاق بهم قبل دخول النفق ودخلت فى الصفوف حتى لا أكون آخر من يدخل • وكان شوكيه فى مركزه فأشار الى بأن ألحق به • وكان يتحرق شوقا لمعرفة ما وقع لى وما أن اختفى آخر رجل حتى غمرنى بالاسئلة • ولم أكن فى حالة تسمح لى بأن أشبع رغبته فى المعرفة ولم أحس برغبة فى أن أعطيه سردا كاملا عن أحداث الليل ومع ذلك وخشية أن أسىء اليه عرضت عليه موجزا لما وقع •

فكان مهتما للغاية وشعر بالاغتباط لصدق حدسه والهامه الذى جعله يرشدنى الى الطريق الصحيح • ولم أتردد فى أن أزجى اليه أن كل ما حققته من نجاح انما يرجع فى الواقع اليه وأخذت أكرر هذه الحقيقة مما جعله منشرحا جدا وأخيرا سألته ما اذا كان قد أحضر معه شيئا يؤكل ويشرب •

ـ نعم يا صديقى • أو تحسبنى غبيا لقد أحضرت لك ما يكفيك حتى ساعة الاكل تعال معى •

وتقدمنا تحت النفق وسلمنى قطعة خبز أسود وبعض الامعاء المحشوة باللحم وشيئا من الجبن اللذيذ ووعاء مملوء بالقهوة الدافئة •

وسألته : كيف أمكنك أن تحصل على كل ذلك ؟

قال : لقد سرقته من أحد الحراس الذى لم يلاحظ اختفـائه ! فكل بأسرع ما يمكن والق بالاناء عندما نخرج من النفق ولا تجعل أحد يلاحظك .

وأسرعت بالعمل بهذه النصيحة الغالية • وأخفيت الاناء فى أحـد العربات المزمع تفريغها ووضعته بين الانقاض وقال شوكيه :

ـ آسف اذا كان عليك أن تعمل طيلة النهار بعد ليلتك البيضاء ولكن لابد من ذلك حتى لا تلفت اليك الانظار فمثلا تستطيع الاعتذار بالمرض حتى نستطيع غدا أن نذهب الى شنيدر وأن تكون هناك • ولم يكن أمامى سوى اتباع هذه النصيحة ولكنها بدون حماس • ويظل هـذا اليوم فى ذاكرتى من أسوأ أيام حياتى فقد عملت فيه وأنا متعب وأخيرا وصلنا الى المعسكر فاغتسلت سريعا وأكلت على عجل وذهبت لانام على الفور ليس بسبب الانهاك فحسب بل وكذلك خشية أن يطالبنى شوكيه وهو لاشك سيفعل اذا ما أتيحت له الفرصة بأن أسرد عليه المزيد من التفصيلات •

وليس من الراحة بحال النوم على عوارض خشبية ومع ذلك فقد نمت ما يقرب من تسع ساعات وكنت أستطيع أن أسترسل فى النوم لولا ما خطر ببالى من قرب مغادرتى المعسكر أخـيرا فانتفضت قائمـا وكنت من أوائل من ينتظر شنيدر ونظرا لنفاذ صبرى فقد أفصحت لشـوكيه عن مخاوفى من تأخيره •

ـ شنيدر دائما يحضر فى موعده واليوم هو لن يدعك تسقط •

وفعلا وصل اللورى فى هذه الاثناء وصعدنا فيه ولم نتبادل أية كلمة حتى مكان العمل • وفى الوقت الذى كان يغادر فيه الآخـرون الحقـول دخلت أنا وشوكيه وشنيدر الى مخزن الغلال لنحتسى قليـلا من القهوة التى كانت حلوة المذاق •

الباب الثامن عشر

وكان شنيدر قد أحضر ملابسى القديمة وموس الحلاقة وصابون ومنشفة بحيث استطعت بفضل قليل من المياه الدافئة أن أحلق لاول مرة منذ أكثر من أسبوع ٠

وبعد أن انتهيت من الحلاقة أخذ يتفحصنى شنيدر بعناية ليتأكد ما اذا كنت لا زلت على مظهر عامل من عمال السكة الحديد ٠ وكان يبدو على شوكيه أنه يريد من صميم قلبه أن يتحدث مع شنيدر ولكن شنيدر ابتدرنى بقوله :

ـ اذا كنت مستعدا فالافضل أن تسرع على الفور اذ يوجد تأخير فى الخط ويحسن ألا يتركك القطار ٠

وأسرعت بتنفيذ هذا الاقتراح لانه كان يلائمنى ٠ واستأذنت من شوكيه وانطلقنا ٠ وقال شنيدر :

ـ لدى رغبة فى أن أقوم بتوصيلك حتى أوسنابروك وهى بعيدة ولكن من الافضل ألا تظهر معى فى هذا الوقت ٠ وستسلك طريقا لولبيا ولكنك تستطيع أن تلحق بالقطار دون المرور على بييلفيلد ٠ وأنا معروف هناك ٠ ويمكن التساؤل عما يجعلك تمشى فى صحبتى فقلت :

ـ ماذا حدث خلال الاسبوع ؟ هل تظن أنهم يرتابون فيك ؟ فقال : أقول لك الحق أنا لا أستطيع أن أجزم فقد حضر البوليس فى غيابى ولكن لم يقم بالتفتيش وهو لن يجد شيئا من جهة أخرى ! وأنت وحدك الدليل ضدى ! ٠

ـ أليس من الافضل لك أن تنزلنى فى مشارف بييلفيلد ؟ فسأجد الطريق سهلا حتى المحطة ولكن يراك أحد معى ولن يكون الامر كذلك اذا ما ذهبنا سويا الى أوسنابروك ٠

ـ هذا لن يحصل اذا ما سلكنا الطريق الذى سأتخذه ووصلنا الى المدينة وأشار الى بالطريق الذى أتبعه الى المحطة وقال : فى حوالى ساعتين سيأتى قطار يأخذك الى الراين قبل الليل · ولدى أعمال هنا ولابد لى من أخذ الاسرى الى المعسكر وعلى ذلك أتمنى لك حظا سعيدا وعود حميدا · وعسى أن نتقابل فى ظروف أفضل ! ·

وتصافحنا ·

وكان على حق بصدد حضور القطار بعد ساعتين ولم يكن مزدحما كالعادة · واستمرت الرحلة حتى رين مريحة نسبيا ونزلت فى فندق المحطة كما هو متفق · وأخبرتنى المضيفة أن بحار السفينة ربما لا يحضر الا فى صباح اليوم التالى ·

وظهر الصندل بعد ظهر اليوم · وأوضح لى صاحب الصندل أنه كان عليه تفريغ شحنته وأن يأخذ شحنة أخرى وأنه لن يرحل الا فى اليوم التالى عند الفجر · وقال عندما رأى سحنة وجهى ·

ـ لا تنشغل بخصوص هذه المسألة · فسوف نصل فى الميعاد فى جرونينج وسأسلمك الى صديقنا الاسير · والرئيس الجديد لموقع الحدود يعرفنى جيدا الآن ولن تظهر صعوبات ·

وفى الغذاء أخبرنى بنبأ اساءتى :

ـ قام البوليس المحلى بالتحرى عن عمال الصنادل · وهذه هى أول مرة تحدث ولست أعرف السبب · ولكن البوليس لم يطلب رؤية أحد وبالطبع قدمت أوراقك من بين الاوراق الاخرى · وسنتبع الطريقة البدائية بحيث تبقى فى الفراش متظاهرا بالمرض اذا ما أرادوا مقابلتك · وفى خلال ذلك سأجعلك تصعد خفية على ظهر السفينة عندما لا يوجد أحد فى الرصيف ·

وقلت : أننى لا أحب كثيرا جو صاحبة الفندق البدنية ·

ألا تظن أنها تستطيع أن تشى بى ·

ــ كلا فهى تعرف جيدا أننا نستطيع أن نشى بها ارتكانا على جميع أسـبـاب المخـالفات ومع ذلك فنستطيع أن ننفحها ببعض المـال قبـل السفر ٠

وعندما أخذت متاعى ذهبت لاقابل هذه المرأة البغيضة وسلمتها مبلغا يفوق كثيرا ما استحقه ٠ فلم تزد عن ذكر كلمة الشكر دون أية حرارة ٠ ولقد ترددت فى مد يدى لاصافحها وهى الاخرى عندما وضعت النقود فى جيبها وتأكدت منها لم يكن بها رغبة سوى أن ترانى أرحل ٠

وكان الرصيف خاليا وصعدنا على ظهر الصندل وسرعان ما اختفيت بداخله حتى صباح اليوم التالى بناء على طلب البحـار ٠ وقضيت بعض الوقت فى رسم الحروف التى لم أستطع قراءتها على الصناديق التى كانت تحتوى الاجهزة على أمل أن يتمكن صاحبى من فك طلاسمهـا ولكنه لم يستطع وخاب أملى ٠

ومضت الرحلة الى جرونينج دون حادث ٠ ولم تكن هناك رقابة على موقع الحدود وفى المساء اجتمعنا فى المقهى الصغير وقابلت الاسير الذى ألح على أن نرحل دون تأخير الى Z لان جرونينج ليست مكانا أمينا وليس من المناسب قضاء الليل بها ٠ وكان هو وصديقه يتحدثان بالهولندية التى لا أفهم فيها حرفا ٠

ووصلت المحطة بعد قليل من طريق منعرج وصعدت الى عربة السكة الحديد وأنا أكاد اختنق من رائحة السمك الذى كان من الواضح أنه ليس طازجا ٠

ووصل «Z» ومضى من الوقت حوالى نصف ساعة ثم أتى الينا أخيرا صديقنا ذو اللحية وقال :

ــ تستطيع أن تنزل الآن ٠

فسألته :

ــ ماذا سنفعل الآن ، وهل سنبقى هنا ؟ ٠

· — كلا اطلاقا فقد وقعت أمورا غير عادية خلال الايام الاخيرة اذ قامت فصيلة صغيرة من البوليس الهولندى والالمانى بتفتيش القرية والمحطة · وفحصت جميع البطاقات الشخصية بعناية · ولا يدرى أحد السبب · ولم يفصح رجال البوليس عن سبب تحرياتهم · أما أنا وأنت فيسهل علينا أن نعرف السبب · وقد زاروا الصندل الذى يمخر بنا عباب الماء وطبيعى لم يجدوا فيه شيئا · ومن الافضـل أن نرحل الآن · وعليك ألا تخرج نهارا على الاطلاق لانه لا يجب الا يراك انسان ·

وكان الصندل يتواجد على بعد خمسمائة متر فقط غير أننا لم نذهب اليه مباشرة بل قادنى صاحبى الى مسافة تبعد عن يمينه مائة متر وقال لى أن أرتمى على الارض لحين عودته وبعد ذلك عاد أدراجه واستمعت الى خطواته وهو يتقدم فى ثقة بين المحطة وكوخه ويتسم بمظهر بدا لى وكأنه حتى فى هذه الظروف لحن ونغم · وكان هنـاك ما يبرر حرصـه كمـا ذكر لى لانه ما كاد يفتح باب كوخه حتى سلطت عليه أضواء الكشافات التى يحملها ثلاثة من رجال البوليس الذين ينتمون الى فصيلة لا يعرفها وجذبوه الى الداخل وبينما نحاه أحدهم جانبا أخذ الباقون يفحصـون المكان ليفتشوا عما اذا كان هناك من يرافقه · ولم تشفع احتجاجاته على سوء المعاملة ولكن عندما اتضح أنه لا يرافقه أحد أبديت له الاعتذارات الكافية ·

وفعلا كنت استمع وأنا ملقى على الارض الى جلبـة من داخل الكوخ وكانت تظهر أضواء متلألا ، ولكننى لم أعرف السبب · وأخيرا راودتنى المخاوف عن احتمال القبض على وتعذر وصولى الى الغواصة فى مساء الغد أو عدم امكان الرد على اشاراتها · ولم أستطع أن أتذكر نوع الاشارة التى كانت تستعملها الغواصة ولم أكن متأكدا الا من شىء واحد هو أننى اذا كنت أسير على الطريق المستقيم فسوف تأتى الغواصة لتنشلنى من ورطتى والا فسوف تتركنى لمصيرى التعس · وكانت البطارية الكاشفة الصغيرة التى أخذ زجاجها يسود قد بلغت من السوء درجة لم تعد معه نافعة · وفى خـلال ذلك أضـاء مصباح فى الكوخ وعـاد الرجلان اللـذان كانا يستكشفان ما بالكوخ بعد حوالى نصف ساعة وعقدا اجتماعا اشترك فيه صاحبى ذو اللحية ومكثت فى مكانى ملقى على الارض بعيدا عن الانظار

فى الوقت الذى استمر فيه الاجتماع الذى عرفت فيما بعد أنه كان بصدد محاولة رجلى البوليس الاستعانة بصاحبى بسبب معرفته بالمكان في البحث عن اثنين من الاجانب يود البوليس استجوابهما بعد أن دلت التحريات على وجودهما ، وأخذت أحس بزيادة البرد لان الرمال كانت مبللة وشعرت بآلام المفاصل ٠

وكم أسعدنى رؤية باب الكوخ يفتح ويخرج منه رجال البوليس الثلاثة قاصدين المحطة وتسبقهم أضواء الكشافات من البطاريات الصغيرة التى فى أيديهم ٠ واستمر وقت طويل دون أن تبدو من الكوخ أية مظاهر للحياه اللهم الا نار المصباح وهى مستمرة فى الاستقبال٠ وفجأة أحسست بحركة خفيفة خلفى فتملكنى الذعر ورأيت هولنديا يهمس فى أذنى بقوله بالانجليزية :

– اتبعنى وافعل كل ما أبديه من حركات ٠

وانصعت للامر وكنت أضطر أحيانا عند الاقتداء به الى الزحف أو السير منحنيا فى طريق متعرج وتوقفنا مرارا لنصيخ السمع ٠ ومضت ثلاثون دقيقة وصلنا بعدها الى الكوخ من الناحية المواجهة للبحر أى المقابل للباب ثم تسللنا من فرجة فى جدار الكوخ ٠

ولم يكن ما بداخل الكوخ كما ظننت حقيرا عندما مررت به أول مرة بل كان يبعث على الارتياح بخلاف مظهره الخارجي وشاهدت به منضدة يكسوها بساط وسريرا ذا مظهر لين فى أحد الاركان ثم ثلاثة أو أربعة مقاعد مريحة تماما وموقد بل وكان على الارض بساط ولو أنه غير فاخر الا أنه يوحى بالدفء ٠ وأظهر لى صاحبى شيئا لم أكن أتوقعه عندما فتح بابا جانبيا يكاد لا يرى وقال :

– هذه هى خزانة المؤونة (النملية) وحجرة أصدقائى ٠ فاذا أحد تختفى فيها وتتمدد على الا رضفتجد فراشا وثيرا ومكانا كافيا ٠ وفضلا عن ذلك توجد على الارفف أطعمة كافية مما يبعد الظنون لكل من يستفسر عن المكان ٠ ولا يستطيع الشخص الذى يلقى نظرة سطحية أن يلاحظ الاختلاف فى الطول بين الجدار الداخلى والجدار الخارجى فادخل لتفحص فراشك ٠

ودخلت لارى هذه الخزانة المعدة للاطعمة والتي لا يتجاوز عرضهـا عن ستين سنتيمترا : وكانت الارض مغطاه بمرتبة تعلوها مباشرة ثلاثة أرفف · وكانت جيدة التهوية لان الارض كانت مكسـورة عنـد رأس (أو أسفل) الفراش بحيث يدخل الهواء بأكثر من اللازم · وقال صاحبى الهولندى :

ـ والآن عندما أذهب نتناول الطعام ثم ننام والباقى يمكن ارجاؤه الى الغد عندما لا نكون فى حاجة الى مصباح ورحبت بهذا البرنامج ولكننى لم أستطع أن أمتنع عن الاستفسار عن الزوار السابقين لهذا المكان ·

وفى خلال تناول الطعام ذكر لى أن هناك من وشى الى السلطات عن وجود شخصين أجنبيين وقال :

ـ وطبيعى هذين الشـخصين همـا أنت وصاحبك الذى يتحـدث الهولندية واننى لأتساءل عمن وشى بكما لاننى أقسم بأنه لا يمكن أن يكون فى «Z» من يستطيع أن يرتكب مثل هذا العمل· وقد رفض رجال البوليس أن يفصحا بشىء فى هذا الصدد ولكننى سـوف أعرف المذنب أن آجلا أو عاجلا وحركة المقاومة تعرف كيف تتصرف ازاء الخونة · وأظن أننى قد اكتسبت ثقة رجال البوليس ثانية بعد هذه العثرة ولكنى أرى أن أبعث رسولا ليقول أن هذا المكان لم يعد أمينا لفترة مؤقتة وهذا يضايق ولكن لا يمكن المجازفة بالمخاطر وذهبنا بعد ذلك لننام وفضلت النوم بملابسى حتى أكون على استعداد لاى احتمال ·

وفى اليوم التالى عرض على صـديقى برنامج النهار بعـد تنـاول الافطار :

ـ ستبقى هنا وتركز انتباهك على طريق المحطة · ولا تخرج أيا كان الثمن واذا رأيت أحدا يقترب فانسحب الى خزانة الاطعمة وهذا يستلزم حرصا مستمرا منهكا ومملا واذا لم أتمكن أنا من العودة لسبب أو لآخر فأنا أعطيك مصباحا كهربيا · وبسبب مد البحر لن تتوقع اشارة من البحر قبل الساعة ٢٣ ومن المرجح أن تكون حوالى السـاعة ٢٣ر٣٠ · فاذا شاهدت بريقا فرد عليه بالاضاءة لمدة ثلاث ثوان ثم انتظر · وبمجرد أن يكون القارب بجوار الشاطىء سيظهر بريقا آخر فرد عليه بنفس الطريقة واندفع الى القارب بكل قواك ولا تتمهل فى تأمل القواقع ! ·

وذهبت وبقيت لابدأ الملاحظة المملة ولولا خشسية المباغتة لانصرفت الى غير المراقبة ويعلم الذين يدبرون المؤامرات كم هو شاق على الاعصاب محاولة الخلود الى الراحة · ومضى الوقت وحل الظهر دون أن يظهر لصاحبى أى أثر للحياه وفتحت صندوقا من اللحم المحفوظ وتناولت وجبة الغذاء · ولم يظهر صاحبى الهولندى الا حوالى الساعة ٤٨ وهو يسير ببطء وكأن شيئاً لا يشغله فى هذا العالم وسألنى :

ـ ألم يظهر أحد ؟ ·

ـ كلا ويبدو أن المكان غير مأهول كثيرا فى الصباح فهل جمعت لى بعض القواقع ؟ ·

فعلته ابتسامة شاحبة وقال :

ـ أفضل من ذلك ! فاننى أشعر بأننى اقتفى أثر أحد المازحين ولو وقع فى أيدينا فلن يضحكملء قلبه ·

ولم يذكر لى أية تفاصيل ولم يكن يبدو على ملامحه صفاء المزاج أو أنه من البشاشة بحيث يشعها على غيره وظل جالسا على سريره صامتا وكأنه يكابد آلاما نتيجة ما توصل اليه من معرفه · وتغذينا فى صمت وظللنا نراقب مشارف الكوخ وأخيرا قام فى الساعة ٣٠ر٢٢ ·

ـ سأذهب الى الخلف مع مصباحى الكهربائى وابق أنت فى الداخل تراقب من الامـام · والحق بى على الفور اذا أحسـست بحركـة ولكن لا تنادينى ·

ومضت ثلاثة أرباع ساعة وبدأت عيناى ترى أشياء وهمية وتجد الاشياء الجامدة تتراقص أمامها عندما دخل على فجأة وقال :

ـ لقد انتهى انتظارك يا صديقى وقد تلقيت الاشارة ورددت عليها · وستنطلق اشارة أخرى بعد عشر دقائق وسأرد عليها كذلك وفى خلال ذلك ولكسب الوقت تقدم على الشاطىء واندفع بكل قوتك عندما ترى الاشارة ·

وأشار الى الاتجاه وضغط على بحرارة غير متوقعة وهمس فى اذنى ببضع كلمات ربما كانت بالهولندية فسرتها على أنها « حظ سعيدا ! » وشكرته من كل قلبى على معونته التى لا يمكن أن تقدر وضيافته وذهبت فى اتجاه الشاطىء · وعلى بعد بضعة أمتار من الشاطىء انطلق ضوء كان قريبا جدا عن يسار فنظرت الى الخلف سريعا وشاهدت الرد ولم تمض سوى ثوان ورأيت قارب المطاط ولم أنتظر دعوة البحار وسرعان ما كنت بجانبه وهو يقول :

ـ مساء الخير يا سيدى كم يسرنى أن أراك ثانية · ألم يحضر صاحبك ؟ ·

ـ كلا فهو سيأتى من طريق آخر ·

وعلى ظهر الغواصة لم أجد استقبال رسمى بل ولا حتى أى استقبال على الاطلاق لان قائد الغواصة الذى لم أقابله الا بعد ثلاث ساعات كان يركز كل اهتمامه فى عمله خلال هذه المياه المشحونة بالاخطار ·

الباب التاسع عشر

وفي هذه الاثناء ذهبت الى رئيس الخدم جيمز James الذى سرعان ما أحضر لى زيى الرسمى وأظهره بفخر قائلا :

ــ ويسرني أن أراك ثانية يا سيدى وقد اهتممت قليلا بهذا الزى وانظر الى ثنية السروال والسترة تكاد تبدو وكأنها جديدة وآمل أن أحصل على رضاك ٠

وكم وددت أن أسأله عما اذا كان هذا هو السبب الوحيد الذى يجعله مسرورا لرؤيتى ولكننى اكتفيت بشكره من قلبى وقدمت اليه ورقة من النقود أظهر صعوبة فى قبولها :

ــ لقد أسعدنى كثيرا أن أسدى اليك خدمة وعشمى أن تكون قد قضيت وقتا طيبا ٠

ــ ان كلمة رائع لا تكفى يا جيمز ! ومع أننى لا أحب كثيرا افتراش الارض وألتحف السماء والنوم على البلاط ٠

ــ لقد كان ينبغى عليك أن تفعل كما ذكرت لك من ارتداء زى الكولونيل ولربما صادفت حظا أسعد وما كان يجرؤ أحد على أن يلقى عليك أسئلة ٠

ــ لك الحق يا جيمز وسأتذكر ذلك فى المرة القادمه اذا كانت هناك مرة قادمة وسأهتم بالراحة المادية فهى أساسية فى الحياة المنظمة وخاصة عند تقدم العمر ٠

ــ تماما ففى سنك يجب التمتع بالحياة ٠

وتظاهرت بعدم استماع هذه الملاحظة عن شبابى الضائع وطلبت منه ما اذا كان القائد يستطيع أن يقابلنى ٠

وتمت المقابلة بيني وبين قائد الغواصة الذى أظهر الاخلاص والحرارة ولم يظهر عليه أي انشغال لان الغواصة كانت قد قطعت أخطر ما فى الشوط الامر الذى تنفست له الصعداء رغم ما صادفته من صعاب مادية • ورست الغواصة في المكان الذى كنا قد انطلقنا منه أول مرة • ووجدت الشخص الذى كان قد أوصلنى الى الغواصة ورافقنى الى أبنبرج • وسلمت أحد أركان الحرب ملابس عامل السكة الحديد • واتصلت تليفونيا بلنـــدن لاخطرهم بعودتى وتلقيت الامر بتقديم نفسى دون تأخير •

وفى صباح اليوم التالى كنت أمام « العجوز » الذى استقبلنى بحرارة

ـ اجلس أيها الشاب وقص على ما حدث •

وقدمت اليه تقريرى الذى قرأه من البداية الى النهاية • ولم يلق على أسئلة الا عندما قلب الصفحة الاخيرة ثم استغرقت أسئلته وأجوبتى أكثر من ساعة • وأخيرا أظهر ارتياحه ولو بالقدر الذى بدا منه • وقال :

ـ نعم كل هذا قد يبدو صحيحا وهذا هو ما تعتقده ويعتقــده من أعلموك على الاقل • وأنا لا أستطيع أن أقبل ذلك بناء على شهادتك وحدها ولكن لدى تأكيدات من مصادر أخرى • ونستطيع أن نعمل من الآن وكنت أفضل أن أعرف ما تحتويه الصناديق بالدقة • وسيتولى سلاح الطيران تدمير هذا الخط الخاص من التموين •

ـ نعم يا سيدى أستطيع أن أفترض ••

فقاطعنى على الفور :

ـ ليس لدى سوى الافتراض والاستقراء ولحسن الحظ تقريرك يخلو منها • وعملى هو أن أتولى أنا الاستقراء والافتراض بعد جمع الوقائع • انظر الى التقارير الالمانية ! لدى كثير منها وليس فيها تقرير واحد بسيط موضوعى بل كلها مليئة بالاستقراء والافتراضات التى صبغت فى شكل وقائع وهى معظمها زائفة ! وهذه هى نقطة ضعف العميل الالمانى المتوسط وهى نقطة ضعف جد خطيرة • وهى تقارير مليئة بالثرثرة بحيث لم يعرف على وجه التحديد ما يراد أن يقال ، تماما كما يصوره أحد كبار رجـال الادب عندما كانت العلاقات بيننا وبين أمريكا متأزمة قليـــلا : « انهـم يستعملون ثلاث كلمات بدلا من كلمة واحدة •• وهم ينسون أن الايجاز هو لب الروح وهكذا يسمون بال •• جنتلمان » ولست فى حل من ذكر

الكلمة حتى لا أخدش حياءك ولكن هذه الكلمات تنطبق على جميع التقارير الالمانية التى قرأتها وهذا يرجع الى غريزة المبالغة المتأصلة فى الطـابع الالمانى • وانى مسرور من تقريرك الذى سيساعدنا على العمـل • ولن يضيرك أن نتمتع بعطلة جميلة فى نهاية الاسبوع !

ــ هناك شيء آخر يا سيدى فقد أنذرنى صديقنا من Z قبل رحيلى بأنه حدثت وشاية وأنه اضطر الى ارسال رسائله لكى يعلن بأن هذا الطريق لم يعد أمينا وهو ما يترتب عليه ضرر •

ــ يا صديقى العزيز أنت لست فى الصـورة ! وأنا كذلك تصلنى معلومات وربما يسعدك أن تعلم أن الذى قام بالوشاية قد شعر بالارتباك لانه قدم معلومات زائفة عن أبرياء بقصد الكسب وبالتالى فقد نفى وأرسل الى جهة غير معلومة وتستطيع أن تقول ما شئت عن النظم الاستبدادية ولكنها على أية حال تتسم بالسرعة ولو أنها ليست لمصلحتها كما يتضح من هذه الحالة • ان الطريق الذى تقول عنه أمين أكثر من أى وقت مضى وصديقك يتمتع بثقة رجال البوليس الذين يرون فيه شخصا على استعداد لمعاونتهم وقد أصبح أكثر فائدة لنا عن ذى قبل ! ولدى تحذير لك قبـل أن تعود للراحة فى لودج مور فطبقـا لبعض المعلومات شـكلت منظمة معادية بغرض ابادة بعض أعضاء خدمتنا السرية • وفى خلال الخمسة عشر يوما الماضية وقعت حوادث شروع فى قتل ضد اثنين من رجالى وخابت الجريمتين لحسن الحظ ! وجميع الدلائل تشير الى أنهم سيعاودون العمل ومثل هذه الاعمال لا تتفق مع أية قواعد وتنزل على رأس مقترفيها لعنـة البشرية ولكن هذه هى الوقائع ولا يمكن انكارها وبديهى وضعنـا كل شيء للكشف عن هؤلاء القتله دون أن ننجح حتى الآن • ومن الذى يدبر الامر ؟ ليست لدى أية فكرة ومع ذلك فان عدد الذين يقبلون ارتـكاب هذه الاعمال محدود جدا حتى بين أشد المتعصبين لهتلر •

وقلت ردا عليه :

ــ شكرا على التحذير ولكن ليس عندى ما أخشاه فان أحدا لا يعرفنى فى المعسكر الآخر وبقيت مدة طويلة خارج أوروبا •

ــ يا الهى ! اما أن تكون أغبى مما أعتقد واما أن ذاكرتك ضعيفة • أتظن أن بول رئيس الخدم فى جروسيه كيرفورست فى كولونيا لم يقدم اسمك وأوصافك بل وربما صورتك ؟ ومئات الاشخاص يستطيعون أن

يتعرفوا عليك فى ألمانيا وربما كانت صورتك معلقة فى قائمــة الشرف بجميع مراكز البوليس تحت كلمة « مطلوب البحث عنه » • ثم هناك هذان الرجلان من الجستابو اللذان تتبعاك من فرانكفورت الى كولونيا ولديهم متسع من الوقت لفحص حالتك ! ثم هناك صديقك ستام من فلورنســا ونستطيع أن نتأكد من أن أول شيء سيلجأ اليه بعد هروبك هو الرجوع الى ملفه عن « العملاء الاعداء » وسيجد أن منهم من يوجد فيه شبه شديد مع هذا الكولونيل الايطالى بحيث سيصيح بالالمانية أشسو Ach<o •

ولعله فعل ذلك من قبل الامر الذى يفسر تواجده فى محطة جنــوه ويلقى ضوءا على ما كان منه من اطلاق الرصاص وهل تظن أن ضباطى بلهاء ؟ ولقد تركت خلال حياتك كثيرا من الآثار بحيث يجعل العدو فى دهشه من تعددها ولا يدرى أيها يتبع !

فقلت :

ـ ربما كان هذا صحيحا ولكنه لا يعدو أن يكون افتراض واستقراء وهو ما تصفه بأنه يستحق اللوم !

فصاح وهو يضحك :

ـ لك الحق وضربة بضربة والبادى أظلم ! ولكن انتقادك لا يسرى على حالتى لان مهنتى هى الافتراض والاستقراء ثم ألا تعتقد أن ستــام هو الذى يجرؤ على تدبير عملية ابادة رجالنا ؟ فهو يجمع كل صفات الرجل الذى يقدم على هذا العمل : التجربة وقلة الصبر وفضلا عن ذلك أصبحنا على ثقة من أنه لم يعد يقيم فى ايطاليا • ولم يعد يظهر ولعله هو الذى يدبر هذه الحملة • وكل الدلائل تشــير أنه من الطراز الذى يرتكب مثل هذا العمل طبقا لما أعرفه عنه !

ـ ربما يا سيدى ولكن فى رأيى أنه يعرف الانجليزية قليلا وتقتصر معلوماته عنها عما استقاه ووصل الى اذنيه فى أحد معســكرات الاسرى خلال الحرب العالمية الاولى ومثل هذه العملية تحتاج الى معرفة اللغــة الانجليزية بصفة أساسية •

ـ ليس من اللازم وان كانت معرفتها تنفع كثيرا ويستطيع أن يقتصر على ادارة العمليات دون أن يكشف نفسه أو يعقد اتصال خارج نطـاق مأجوريه •

ـ وثمه شيء آخر يا سيدى فان مظهره من الغرابة بحيث يجـــذب الانظار اليه سريعا لو ظهر عيانا : قامته وعنقه مثل عنق الثور وأذنيـــه التى تشبه آذان الخفافيش ٠٠ الخ ٠ ولا يستطيع انسان أن يخفى اذنيه وأذناه يمكن رؤيتهما من مسافة كيلومتر ! ثم أوداجه المتدلاة من الياقة ٠ واذا جازف وسافر الى الخارج فلن يعدم من يتعرف عليه فهو اما أن يعمل من وراء وسطاء أو لا يكون هو ستام الذى نبحث عنه ومع ذلك يسعدنى أن أراه وراء القضبان وكم أستاء من الخوض فى هذا الموضوع !

ـ حقا فهو غير جذاب ! أما بصدد التصنت والاستماع فهل تعـرف أن صديقتك الماركيزة الجميلة قد انتقمت من أصدقائهـا ؟ اذ لم يمض طويل على رحيلك حتى طغت على ستام عواطفه وكان للمسألة وقع شديد

ـ ان الماركيزة جميلة في الواقع ولكن كان يجدر بأى غبى حتى ولو كان ستام أن يعرف أن الماركيزة لا يمكن أن ترضى عن تماديه فى هــذه الامور فضحك العجوز وهو يقول :

ـ يا صـــديقى العزيز أنك لا تعرف مضيفتك الجميلة حق المعرفة ! وحياؤها الانثوى لم يحل دون صد ما كان يصدر من أعمال غرامية ولو أنها وحشية من جانب ستام وكانت تستطيع بسهولة أن تصدها ولكنها أقنعت بأن يعرف أو يرتاب فى كثير من الامور فرأت أن تهبه نفسها حتى تستطيع أن تشهر به وفعلت ذلك من أجل أمن الجميع ٠ وهذا هو السبب الحقيقى ! ثم تقدمت بشكوى مكتوبة ضد ستام بسبب مسلكه فى بيتها ٠ وقام الجنرال بنفسه بالتحقيق ٠ واستدعى شهود منهم صـــديقك فريتز الذى حرم من منصبه على الفور وبعث مغضوبا عليه الى ألمانيـــا ٠ وذهب الجنرال شخصيا يقدم اعتذاراته الى الماركيزة مؤكدا لها أن مثل هـــذا المسلك المشين بازاء صديقة موالية لن يتجدد أبدا بعد ذلك ٠ وهــكذا فأنت ترى أنه لا يمكن التخلص من ستام وهو الشخصية الخطرة الا اذا توفرت لنا امرأة فى غاية الذكاء وهى ليست فى متناول أيدينا !

وعلى أية حال فأنت تعرف الحالة الآن وعد الى لودج مور واحرص على نفسك ٠ وسوف أتصل بك عند الحاجة اليك ٠

الباب العشرون

وفى نهاية خريف سنة ١٩٤٤ تلقيت مكالمة تليفونية باستدعائى الى مكتب الرئيس . وعندما وصلت الى العنوان المعروف استقبلنى خادمه الخاص بابتسامة ترحاب .

وأنا شخصيا لا أعرف مدى ثقة الرئيس بخادمه ولكن التجربه علمتنى أنه كلما اتسعت ابتسامة الاخير كلما توجست خيفة من قرارات الاول ومن أجل هذا التزمت جانب الحرص . وحضر الرئيس وألقى الى بالتحية وكان المرض يرتسم على وجهه وأثار التعب تبدو عليه وكأنه فقد جانبا من حيويته القديمة وابتدرنى بقوله :

– آسف أن أزعجك فى محل اقامتك الشتوى ! وما كان يوليوس قيصر Jules Cesar يحب أن يقدم على أى عمل فى خلال الشتاء لانه كان من المؤمنين بنجاح حملات الصيف ولكن الزمن الآن تأخر عن ذى قبل وعلينا أن نخوض رأسا فى الموضوع فما هو رأيك فى القيام بجولة جديدة بألمانيا .

– أنا لا أستطيع أن أقول ان ذلك يسرنى وأظن أننى وصلت الى سن التقاعد بصدد هذا النوع من العمل والى جانب الضغط الذهنى هناك التعب البدنى وأنا لست متأكدا من امكان تحمله .

– تستطيع أن تستخدم ذهنك لتوفير قوتك . وسوف أذكر لك ما أريده وعليك التقدير . وهذا أمر بسيط جدا .

وانخفضت روحى المعنوية لاننى أعرف ما وراء هذه الكلمات كما علمتنى التجارب واسترسل يقول :

– انها مهمه من النوع الذى كنت تسميه من قبل مهمة استطلاع . لقد أصبحت نهاية الحرب وشيكة الوقوع ولم أعد أهتم بالالمان أما فى هذه المرة فان الامر يتعلق بأصدقائنا الروس . وأنت تعلم أننا نرتاب قليلا

سواء بحق أم بباطل فى حسن نية الروس وهم جنود ممتازون ولـكن لا يمكن الثقة فيهم لا من الناحية الادبية ولا من الناحية السياسيه • ومن المحتمل أن يسببوا لنا متاعب جمة بعد الحرب • ونحن نعلم أنه قد صدرت تعليمات من الجهات العليا وربما كان من ستالين نفسه بصدد العمليات العسكرية بالنسبة للمستقبل القريب وبصدد الاهداف والمطامع السياسية بالنسبة لما بعد انتهاء الحرب • هل تسمعنى ؟

ـ لا شك يا سيدى ••

ـ حسنا ، لقد حررت هذه التعليمات ولكنها لم توزع حتى الآن ومع ذلك • ولقد أرسلت الينا ثلاث نسخ ولا يهمك الطريقة التى أرسلت بها أو من أرسلها فقد وردت الينا من ثلاث طرق مختلفة منذ ثلاثة أسابيع ومع ذلك لم نسمع أى حديث عنها الا منذ أمس • وعلمنا أن أحد هـذه النسخ وصلت الى رينانيا Rhenanie وما زالت هناك ولقد استدعيتك لانك تعلم هذا الاقليم جيدا ومن العبث ارسال شخص يسأل عن الطريق كل خمس دقائق • ألست معى فى هذا الرأى ؟

ـ بالطبع ولكن من هو هذا الوسيط وكيف يتسنى الاتصال به ؟

ـ سأقول لك • فهو جرسون فى مطعم يعمل فى محل من الدرجـة الثالثه فى بيويل Beuel ويقيم فى غرفة مجاورة وأنت تعرف بيويل أليس كذلك ؟

ـ أعرفها جيدا •

بويك هو المركز الصناعى والعمالى لبون على الضفة الاخرى للرين • وثمة عداوة بين المركزين منذ مد الكوبرى الذى يربطهما وكان كل مركز يزمع أن يسهم فى النفقات العامة بقدر وسائله ولكن مجلس بلدى بويل تنصل فى آخر لحظـة تاركا الممولين فى بون يتحملون كافة النفقـات • وعندما انتهى بناء الكوبرى قام الممولون من بون باقامة تمثال فى وسط الكوبرى يكشر عن أنيابه وهو ينظر شذرا فى اتجاه بويل وثنايا سرواله مهلهلة تعبيرا عما يرمزون به الى جيرانهم •

وقال الرئيس :

ـ يكفى أن ترى هذا الجرسون الذى يعمل فى المطعم لتستلم منه الوثيقه وستعطى القدر الكافى من المال الذى تدفعه اليه ومن أجل تغطية النفقات غير المتوقعة ٠

ـ حسنا ولكن كيف يمكن التحقق من الوثيقة ؟ انها مكتوبة ولا شك باللغة الروسية أى بالنسبة الى مثل طلاسم اللغة العبرية ٠ ويستطيع الرجل أن يقحم فيها ما يشاء دون أن أعرف !

ـ كلا ففى أعلا وعن يسار الصفحة الاولى توجد نجمة صغيرة من خمسة أفرع بالحبر الاحمر وفى أسفل وعن يمين الصفحة الاخيرة ستجد نقطة أو نقطتين أو ثلاث نقط حمراء حسب ما اذا كانت الوثيقة هى النسخة الاولى أو الثانية أو الثالثة ٠ وهذه العلامات تضمن لك صحة الوثيقه فاذا لم تجدها فاعرف أنه حدث اشتباك فى مكان ما وعليك أن تترك البلاد بأسرع ما يمكن ٠ ولكننى أعتقد بأن كل شىء سيصبح منتظما ٠ وعلى فكرة هل تذكر صديقك فلان الذى انتشلته قديما من سجن كولونيا ؟

ـ انه لم يغب عن بالى !

ـ لديك فرصة كى تقابله ٠

ـ كيف تزمع ادخالى الى ألمانيا فى هذه المرة ؟ ان طريقة الغواصات لم تعد تلائمنى فى هذه المرة ؟ وأنا أود أن أقول لك ذلك ٠

ـ لن تستعمل وسيلة الغواصات ! فليس لدينا متسع من الوقت ليس لأن لهذه الوثيقة أهميتها القصوى العاجلة وانما يخشى أن تحوم الشبهات حول الجرسون ومن المستحسن اعفاؤه من هذه المسئولية بأسرع ما يمكن ولهذا فلن تذهب اليه عن طريق غواصة ٠

واستطرد يقول :

ــ ان أسرع وأكثر الطرق الممكنة حاليــا هى فى القائك فى نقطة مجاورة للهدف وثمة أماكن مناسبة غرب الراين فسألته وأنا لا أصــدق أذناى :

ــ أتقصد انزالى بالمظلة ؟ ولم يحدث أبدا أن نزلت بالمظلة الا مرة واحدة وهذا منذ حوالى ثلاثين سنة ! وفوق هذا فان هذا العمل أكثـــر مما أحتمل !

ــ لا تخف ! فهناك المئات من الجنود الذين يهبطون بالمظلات يوميا ! وهو مثل السقوط من السرير وان كان أكثر أمنا ! ولا تقع حوادث عند الانزال بالمظلات · ولكى أزيدك ثقة سأبعث بك الى أحد معسكرات سلاح الطيران فى ويلت شاير Wilt Shire لتقوم بتمرينين أو ثلاث وسوف يعلمونك ما ينبغى وما لا ينبغى عمله وستقودك سيارة من وزارة الحربية البريطانية الى هناك ·

وعجبت من هذا التحول لدرجة لم أستطع معها الحراك وأحسست بأننى لا يمكن أن أتملص من أداء المهمة أمام الرئيس وهو أستاذ فى عــلم النفس ويدرس نفسية « ضحاياه » وعند وصولى الى معسكر سلاح الطيران ذهبت الى قائد المعسكر وقدمت اليه رسالة التوصية وكان على علم بهــا من قبل وبعد ظهر اليوم التالى قمت بأول تجربة للهبــوط بالمظله ولم أغتبط بالتجربة ولو أن مدربى أكد لى أننى سوف أخرج بنتيجة تبعث فى نفسى السرور · ولحسن الحظ لم تشتد الرياح وكم كانت دهشتى عندما نفذت أمر الهبوط ولم أحس حتى بأننى أتحرك وشعرت بسرور كما قال لى مدربى · وفى نفس اليوم قمت بهبوط آخر وخرجت بنتائج مرضية وفى اليوم التالى هبطت بالطائرة ثلاث مرات كانت احداهما فى الليل ، وربما لم يكن الهبوط الليلى متقنــا ، ولكننى لم أصب بشىء ، وشــعرت بالارتياح ، وعلى أية حال اكتسبت الثقة اللازمة · ولم أعد أعتبر العملية انتحارا ·

وعندما استأذنت من القائد قال :

ــ سوف نراك قريبا جدا كما اعتقد وسيتكفل بك طيار من الطراز الاول وما عليك سوى أن تتبع تعليماته ·

وفى الظهر عدت الى لندن وقابلت السيد الرئيس مرة أخرى وقال لى:

ــ هيه ! كيف الحال ؟ ٠

ــ على ما يرام ولكن الظروف كانت مواتية ومن المستطاع بقليل من الحظ أن أهبط بسلام ولكننى أود أن أستعلم عن بعض النقاط ٠

ــ ماذا تريد ٠

ــ أولا اسم وعنوان هذا الجرسون الموجود فى بويل ٠

ــ اسمه كارل بيكر Karl Beeker « وأخرج من أحد الادراج ورقة » وهاهو عنوان المطعم وعنوان منزله فاحفظهما عن ظهر قلب ثم احرق الورقة وماذا تريد بعد ذلك ؟

ــ كيف سأتنكر ٠

ــ الافضل فى نظرى أن تأخذ دور صول تمريض وفى بويل كل الضباط معروفين ولكن الممرضين يتواجدون فى كل مكان ولا يمكن التعرف على الوحدة التى يتبعونها فورا ٠ ولقد جمعت أوراقا لك ومستندا يثبت أنك تمضى دور نقاهة لمدة عشرة أيام وعندما تحصل على الوثيقه المطلوبة من الجرسون بيكر فلا تضيع أى وقت فى العودة الينا ٠

ــ لقد فكرت فى ذلك ! ولكن كيف العودة ؟

وكانت هذه المرة هى الوحيدة التى شاهدت التردد فيها على وجهه :

ــ ايه ٠٠ انها مسألة مربكة وأنا مضطر لان أترك الاجابة فى هذه المسألة لمحض ارادتك فالجبهات متقاربة جدا ٠ ودفاع العدو مركز جدا على الحدود الغربية لالمانيا بحيث لا نستطيع أن نذهب بطائرة لاعادتك وحتى لو نجحت فى الذهاب اليك فلا بد من اسقاطها عند العودة ٠ أما بصدد البحرية فهى لا تستطيع أن تفعل شيئا ٠ ولكنك لن تصادف مصاعب جمة عند اجتياز الخطوط فهى ليست كمثل الحرب الاولى خنادق وراء خنادق ورغم ذلك فقد اجتزتها مرارا ٠

ــ هذا صحيح ولكننى فعلت ذلك فى قطاع كنت أعرفه جيدا أما فى هذه المرة فأنا فى أماكن مجهولة وليست عندى أية فكرة عن الاماكن التى سأقابل فيها المتاعب · فليس هناك وجه للمقاومة ·

ــ اسمع ، اذا وقعت فى موقع ألمانى تستطيع أن تزعم أنك ضللت الطريق وأنت قادر تماما على أداء هذا الدور فخذ المسألة بقلب منشرح ! وهو بسيط في الواقع ! ومع ذلك ألا ترى أنهم سيرتابون فى تجـول ممرض فى الخط الاول ؟

ــ الحالة مرتبكة ولن يعجب أحد من كونك ضللت الطريق الى وحدتك والمرجح أنهم لن يستطيعوا أن يبينوا لك موقعها · وعندما تكون فى الجهة فسوف يسهل عليك أن تنتقل خلال الليل الى الجانب الآخر ·

ــ لـكى يطلق على بنى وطنى الرصـاص ! هل تعرف يا سـيدى أن الساعى الذى يقف على بابك أظهر لى كثيرا من الادب الذى ينم عن العطف بحيث أحسست أن وراء ذلك أمر خطير ولكننى لم أكن أظنه على هذا القدر من الخطورة !

ــ آه ! اذن فأنت حساس وتتأثر بالمظاهر الخارجية وأنا أعرف أن هذا الساعى فى غاية الحساسية ولابد من العمل على ألا يظهر عواطفه مستقبلا ! وهو ليس ساعى يقف على بابى كما تقول بل هو نوع من الاصـدقاء أى معاون ان شئت التعبير · وغدا عليك أن تعود الى معسكر سلاح الطيران وستجد ملابسك الجديدة وأوراقك في السيارة · وسيكون السائق على علم بالموضوع وهو الذى سيؤكد لك أن كل شىء على ما يرام · ولا شك أن هذه ستكون مهمتك الاخيرة فحظ سعيد وأتمنى لك عود سريع !

وكنت أود أن أقول أن الدلائل تشير الى أنها ستكون رحلتى الاخيرة فى الحياة ولكننى أمسكت نفسى فى الوقت المناسب · وماذا يفيدالمشاحنة طالما أننى أستطيع عدم السفر ؟

وغادرنا هوايت هول White Hall فى غداة اليوم التالى · وتبين أن السائق رفيق دمث وكثير البشاشة وفضلا عن ذلك كان خبـيرا فى الزى العسكرى الالمانى وكانت قد أدخلت تعديلات أخيرة على هذا الزى ولكنه أكد لى أن ملابسى بمنأى عن أى انتقاد ·

ووصلت الى المعسكر وأخطرنى القائد أن الطائرة ستنطلق حوالى الساعة ٢ر٣٠ وهي قاذفة قنابل من اللاتى ستشترك فى عملية كبيرة واستدعى القائد الطيار وقال له :

ـ عليك أن تنزل هذا الضابط بالمظلة فى نقطة يتم تحديدها بينكما ٠ وعليك أن تهبط قليلا لانه يجب انزاله فى منطقة محددة ٠ وممنوع ارتكاب أى خطأ فاذهبا الآن ٠

ولم يبد على رفيقى الاغتباط وقال :

ـ أتعشم أن تكون مخاطرتنا جديرة بما تأتى به من نتائج فسوف نسمع صفارات الانذار ولابد لى من الاهتمام بالطائرة والطاقم ٠

ـ لا تظن أننى أقوم بمهمتى من أجل النزهة ! فأنا أقل الناس اغتباطا بها ومع ذلك فان السلطات الموجهة لنشاطى ترى أن لهذه المخاطرة ما يبررها وليس علينا سوى الانحناء أمام الاوامر ٠

ـ أنت على حق ولكن الامر محاط بالاشواك ! وأين تريدنى أن أنزلك ؟

وفحصت الخريطه التى قدمها لى وقلت :

ـ على بعد أربعة أو خمسة كيلومترات من هذا الجانب من الراين وأفضل أن أكون فى ضواحى بون اذا أمكن وهناك تتوفر أماكن فسيحة وغابات يمكن الاختباء فيها ٠ ولكى يكون لديك هامش ٠ فلنجعل المكان بين فيسلنج Wesseling ومهلن Mehlen٠

ـ هذا عظيم وعندما تتلقى أمر القفز نفذه على الفور لان الثوان لها أهمية قصوى ٠

وأكدت له أننى سأنفذ هذه التعليمات اذا لم يكن الخوف قد شل حركتى تماما ٠ وعندما أدرك أن حالتى ليست مما أحسد عليه أصبح ودودا للغاية وقال :

ـ ما الذى جعلك تقدم على هذا النوع من المهام ؟

ـ لست أدرى على وجه التحديد • وهذه الاعمال لا بد لها من الذى يقوم بها ؟ وهناك الجانب المسلى فى المسألة •

ـ يسعدنى أن تقول هذا ! ولم أكن أعتقد ذلك ولكن طالما قلت ذلك فأنا أصدقك ! الى اللقاء فى هذا المساء •

وأخذت أجرب بعد ذلك الزى العسكرى تحت اشراف السـائق • ويبدو أنه ارتاح من المظهر العام ولم أجد أنا شخصيا أى عيب اللهم الا رائحة العفن • وكان هناك معطف ومخلاة تشتمل على الاشياء ذات الضرورة الاولى والتى أكملت ردائى • وشكرت السائق من كل قلبى •

ولم تعلق بذهنى فى الواقع أيه ذكريات من انطلاق الطـائرة بنـا أو الطيران • ولم يكن يشغل بالى مشكلة قفزى من الطائرة ليلا بالمظلة فقد استسلمت لهذا الخط القريب مثلما كنت مشغولا بعودتى الى خطوطنـا وما اذا كنت فى حالة أستطيع معها الرجوع • ومن السهل أن تقول وأنت جالس أمام مكتب فى لندن « خذ الامور وأنت مبتسما اذا ما ألقيت عليك أسئلة ؟ ولكننى سوف أصادف حقا حالة لا تسر أحد وأخيرا قطع أفكارى القاتمة صوت يقول :

ـ حظك جميل فالليل صاف ومع ذلك فهناك تنطلق أشياء من الارض وهذه مخاطرة لابد من خوضها ولآن اهبط وحظ سعيد •

وقفزت فى الفضاء •

ولم يقلقنى هذا الانتقال المفاجىء فى جوف الفضاء بل لقد أحسست بشىء من السرور حتى وجدت الانوار الكاشفة مسلطة على وكادت قذيفـة تصيبنى • وكان اطلاق المدافع المضادة للطائرات D C A بشدة ولكنهـا لم تكن قريبة جدا مع كونها أكثر المشاعر التى سيطرت على ذهنى وكنت متشائما خشية أن أجد على الارض لجنة لاستقبالى واستجوابى وساعتها لن ينفع « أخذ الامور بابتسام » كما يقال فى لندن لانه ليس من عـادة المرضين الالمان أن ينزلوا بالمظلات وهم لا ينزلون على الاقل من طائرات بريطانية ! فمثل هذه الطريقة تثير الشك ولا شك •

ومع ذلك لم تعد الانوار الكاشفة مسلطة على • ولا بد أننى أصبحت فوق القطاع المطلوب وبدأت الاحظ الاماكن المحيطة مسترشدا بالضـوء

الذى يبعثه نصف القمر • وشاهدت من المستوى الرأسى أرضا خلاء يحيط بها الشجر وأدركت أنه لو حدث أى تعقيد أو تأخير فسوف أسقط على الشجر •

وأخيرا تفاديت الاشجار ببضعة أمتار ولمست قدماى الارض وسرعان ما عملت على التخلص عن صديقتى المظلة التى أصبحت من الآن خطرة • وجعلت منها رابطة أخفيتها وسط أشجار صغيرة ولم أجد متسع من الوقت لاحكام ربطها لانه كان يبدو لى أن من الامور الاساسية الابتعاد عن هــذا المكان فى أسرع وقت ممكن ولم أكن أعرف على وجه التحديد المكان الذى هبطت فيه •

وتقدمت نحو اليسار فى هرولة وأنا أتتبع حافة الغابة ومحتميا فى ظلها • وبعد حوالى ثلثمائة متر التقطت أذناى أصواتا وشاهدت عن يمينى فى الخلف تحركا ولابد أنها لجنة الاستقبال جاءت تبحث عنى • ولم أكن أستسيغ أبدا القيام بدور الهارب ومن الافضل أن يتولى الانسان المطاردة بدلا من أن يكون هو الهارب من المطاردة • وظهر لى أن الذين يطاردوننى يكثر أو يقل انتشارهم ورائى ويتقدمون نحو الغابة • ولم أشاهد أحد أمامى وأحسست بأننى أتواجد على أقصى يمين خطهم •

ومكثت عدة دقائق خلف شجرة أتصنت وأســـترق السمع لوقع خطاهم ثم شاهدت أحدهم يخرج من الغابة ففعلت مثله واقتربت منــه وقلت :

ــ هل رأيت شيئا ؟

ــ كلا على الاطلاق ••

ــ ولا أنا وربما كان التحذير والانذار خطأ كما هى العادة •

ــ ربما ••

ــ ولا يبدو أن هذه الطائرة نزلت • وما الذى يجعل أحدهم ينزل ؟

ــ تماما ! ولكن الزملاء يتوهمون شيئا •

ــ آه ! ها هم يتجمعون • هيا بنا لنرى ما اذا كانوا يحتاجون الينا •

ولحقنا بالجماعة ذات التكوين الشاذ وكانفيها فلاحون وثلاثة أو أربعة جنود قد جاوزوا كثيرا سن حمل السلاح وكان فيهم صول عجوز كذلك وهو الذى يبدو أنه يدير العملية ٠

ولم يكن الجميع ينقصهم الحماس فحسب بل كان يسيطر عليهم الغم كذلك ٠ وأحسست بارتياح لعدم اكتشاف مظلتى الامر الذى يسهل المسألة كثيرا وكان منظر الباحثين لا يوحى بأنهم يستطيعون أن يعثروا على فيل فى مكتب تليفون ٠

وكان الصول يقاسى كما يبدو من برد شديد ٠ ولا شك أنه لم يكن من أولئك الطراز الذين يبعثون فى رجالهم ارادة النصر ٠ وعندما سأل الرجال حوله عما اذا كان أحدهم قد رأى شيئا وتلقى اجابات النفى قال :

ـ هلم نفتش هذا الحقل مرة أخرى واذا لم نعثر على شيء تستطيعون أن تعودوا الى بيوتكم ٠

وكان الحقل واسعا جدا ولم يجد الاقتراح ترحيبا وقال أحدهم :

ـ الافضل البحث عن نموس اذ ربما يكون قد اختبأ فى أحد أوكار الارانب ٠

وكدت أقول لهم انهم يضيعون وقتهم ولكننى أدركت بأن هذا ليس من حسن التصرف فى الظروف الراهنة ٠ وجعلت نفسى فى أقصى يمين الخط بالقرب من الشخص الذى تعرفت عليه أخيرا وعاودنا البحث ٠ وكان بوسعي أن أختفى ولكننى فضلت البقاء على أن أعرف من حديثهم المكان الذى أتواجد فيه نظرا لجهلى بالاتجاه الذى أتقدم فيه ٠ وكان من المخاطرة بمكان العثور على وأنا أتجول فى الفجر فى مدينة أو قرية ٠ وسرعان ما كنت بجوار صاحبى وبدأنا الحديث فقال :

ـ يا الهى ! البرد قارص ! وأود أن أشرب شيئا يبعث الدفء ٠

ـ وأنا كذلك ويأله من برد !

ـ عند عودتى الى القرية يستطيع صهرى أن يقدم لنا ذلك وكذلك ما يمكن التهامه ولكنه رجل بخيل ولا يمكن استخلاص شيء منه بغير

نقود وليس لدى مليما واحدا وانى أقضى فترة نقاهة لمدة أيام ولـــكنه يجعلنى أعمل مع ذلك نظير اقامتى • وهو الذى أقحمنى فى هذه المسألة !

ـ أستطيع أن أدفع شيئا لصهرك • وأنا أيضا أقضىفترة نقاهة ولدى بعض الماركات •

ـ عظيم ! وهو يعمل أى شىء فى نظير المال !

ووصلنا الى طرف الحقل وسرعان ما سمعنا صفيرا وقال صــديقى :

ـ ها قد انتهت المهمة ! نستطيع أن نعود الى بيوتنـا وليس الوقت مبكرا ! وعلى فكرة هل تقيم فى القرية ؟

ـ كلا فقد حضرت لاقابل صديق ولكننى أقحمت فى المسألة اقحاما ولابد لى من العودة الى بون فى النهار •

ـ سيكون الامر سهلا ومدينة بوبلسدورف Popyelsdorf ليست بعيدة جدا ولكن صهرى سيقودك ولا شك فى سيارته القديمة • وهــو يذهب الى هناك ثلاث مرات فى الاسبوع •

وهذه هى المعلومات التى كنت أريد الحصول عليها وقد أتتنى دون أن أطلبها وبذلك ارتفعت روحى المعنوية كثيرا •

وكانت القرية قريبة وهو يفسر سرعة ظهور جماعة البــــاحثين • ووصلنا الى مزرعة كبيرة تقع على مشارف الناحية واستقبلنا رجل ضخم ذو مظهر شرس ويبلغ من العمر حوالى ســتين عاما وربما كانت كلمــة « استقبال » أكثر من اللازم لانه اكتفى بالنظر الى وهو يسأل ماذا أصنع فى هذا المكان • وشرح له صاحبى المســألة وأضفت الى كلامه بأننى على استعداد لان أدفع ثمن الضيافة فطلب منى مبلغا مرتفعا دفعته على الفور وفى غداة اليوم التالى اغتسلت وحلقت وأعطانى قهوة وخبزا أسود وطلب منى كذلك اثنين مارك • واستأذنت من قريبه وصعدت العربة التى أقلتنا الى بون •

ووصلت الى بون فى ساعة مبكرة ولما كان الطقس بديعا قررت أن أذهب على الفور الى بويل لاقابل المدعو بيكر ولم أجد مشقة فى العثور

على المطعم • ودخلت وأخذت احدى الصحف المعلقة فى هذه القطعة الغريبة من الخشب حتى لا يأخذها الزبائن عند انصرافهم •

وكان المكان خاليا أو يكاد من الجرسونات واضطررت لان أضرب طويلا على المنضدة لكى يظهر شخص وأخيرا ظهر رجل فى صديرية ســـوداء وقميص لابد أنه كان نظيفا منذ وقت طويل • وكانت قامته مديدة تدل على آثار الوجبات الكثيرة التى يأكلها وكان كل شيء فيه نحيل : الانف والعيون الممدودة والفم والذقن الضيقة • وكانت شفتــاه تزداد ضـيقا بالشارب الدقيق بدرجة لا يمكن تصديقها وكان وجهه يتســم بالكآبة وطلبت قهوة وعندما ظهر ثانية سألته ما اذا كان يعرف أحدا باسم كارل بيكر قال :

ــ انه أنا ••

وحدجنى بنظرة مريبة وقال :

ــ هل أستطيع أن أسدى اليك خدمة •

ــ لقد حضرت لمسألة بسيطة •

ــ ما نوع المسألة ؟

ــ اننى مهتم بالمكتبات • ألا تستطيع أن تحضر لى مظروفا مثلا •

ــ هذا ممكن •

ــ ألا توجد نسخة منه معك ؟

ــ كلا ولابد من احضاره من بيتي وعلى أية حال فنحن لا نستطيع أن نتحدث هنا وسأكون حرا فى الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم •

وقادنى الى النافذة وأشار الى مقهى Weinstube ليس على مسافة خمسين مترا من الجانب الآخر للشارع •

ــ اذا كنت فى هذا المكان فى الثالثة والنصف فاننا نستطيع استئناف الحديث •

- حسنا ولا تنسى أن تحضر العينة ·

- اعتمد على ·

وانتهيت من احتساء القهوة ودفعت الحساب وخرجت · وكان لدى متسع من الوقت ورأيت من المناسب أن أتعرف على مكان اللقاء فدخلت المقهى وطلبت مشروبا وكان داخل المقهى أفضل من خارجه ولو من حيث النظافة على الاقل وكانت به مناضد خشبية ورسومات على الجدران · ويدل المقهى من رواده وهم من العمال على أنه مكان آمن لا يخشى منه خطر وعلى أية حال لم ألاحظ فيه تلك الشبهات التى تعج فى أمثال هذه المحال ·

وعدت الى بون وأخذت أتجول حتى حان وقت الميعاد فاتجهت الى المقهى وشاهدت بيكر وهو يعبر الشارع وعلى ذلك فهو يملك فضيلة المواظبة وتقابلنا عند باب المقهى وقادنى الى أحد أركانها ثم ذهب الى البار وطلب مشروبا · وكان صاحب المقهى يعامله على أنه من روادها فأحضر الكؤوس وبعد تناول الكؤوس كالعادة عملت على أن تنقضى المسألة بسرعة وقلت :

- هل أحضرت المظروف ·

- نعم ·

- هل أستطيع أن أراه ·

- فلنتحدث أولا عن الثمن · لقد طلبت ألفين وخمسمائة مارك ·

- لدى أمر بأن اسلمك ألفين مارك بمجرد أن أتأكد من أننى حصلت على المظروف الصحيح ولا أزيد ولا أقل وهذا هو ما وعد لك وما قبلته وأنت تعرف ذلك جيدا فلا تضيع وقتا فى الجدال ·

- وهل تعتقد أن الفى مارك تكفى لجميع المخاطرات التى خضتها ·

- ليست لدى أية فكرة على الاطلاق ولكن الذى أعرفه هو أننى يجب على أن أدفع لك هذا المبلغ عند استلام البضاعة ·

ـ واذا ذهبت لاوشى بك لـدى البوليس فهـل ستنـام فى فراش وثير ؟

ـ هل بلغت بك الحماقة درجة تجعلك تساوم معى ؟ والوشاية سلاح ذو حدين وأنا كذلك أستطيع أن أقوم بهذا الدور . وتشير كل الاحتمالات الى أنك ستدخل السجن بعد عشر دقائق من معرفة الجستابو نشـاطك وستعدم رميا بالرصاص بعـد أربع وعشرين سـاعة . وهؤلاء السـادة لا يستخدمون وسائل دمثة ولا ينتظرون ! واكثر من هذا ستضيع عليك ألفى مارك وليس من المؤكد أنهم سيكتشفون أمرى . وبالطبع اذا كنت من غواة الموت فلا شيء يقف أمامك اما اذا كنت غير ذلك فدع عنك هذه الالاعيب ولا تضيع وقتك .

ـ اعطنى ألفين ومائة وخمسين ماركا ولا تتحدث بعد ذلك !

ـ لن أزيد على المبلغ مليما واحدا وهـذا هـو ما قبلتـه وما سـوف تستلمه .

وقمت بدورى بالمناورة :

ـ اسمع يا بيكر لقد كنت أتوقع منك شيئا من هذا القبيل وأخذت احتياطى وكتبت خطابا الى البوليس أصف فيه تفاصيل نشاطى السرى وعليك أنت وحدك يتوقف ارسال هذا الخطات بالبريد أو تمزيقه : ألفين مارك والامان أو القبض والاعدام بالرصاص . أعطنى رأيك سريعا ! وأنا أعطيك مهلة خمس دقائق .

وذهبت الى منضدة البار لكى أملأ الكؤوس . وعنـدما عـدت كان صاحبنا بيكر يعض أنامله وكان يبدو أنه قـد وصـل الى قرار نهـائى وقـال :

ـ قبلت شروطك ولكن دعنى أذكر لك أننى عوملت بفظاظة .

ـ انها ليست شروطى ولكنها الشروط التى قبلتها فليس من حقك أن تشكو ولكن ما جدوى جدالنا الآن أعطنى المظروف ولو كان ما فيه صحيحا فسوف تستلم المبلغ على الفور .

ومد الى المظروف ففتحته • ووجدت فى أعلى يسار الوثيقة النجمة الحمراء ذات الخمسة أفرع وتظاهرت بأننى أقرأ الوثيقة وكانت سميكة حتى وصلت الى الصفحة الاخيرة حيث وجدت ثلاثة نقط حمراء دليل على أنها النسخة الثالثة • وهكذا كانت هى الوثيقة المطلوبة وعلى الفور سلمته المظروف الذى يحتوى على المبلغ وطلبت من بيكر أن يتحققمن المقدار وهو ما فعله بسرعة محمومة ثم قمت وأنا أقول له الى اللقاء ولم أود بعد ذلك أن أقضى لحظة واحدة مع هذا الشخص الخؤون • ووضع المظروف الذى يحتوى على المبلغ في جيبه وحدجنى بنظرة شذرة ولم يرد على تحيتى وكان وكان من الواضح أننا لا يمكن أن نفقد صداقة أيا كانت !

وعندما عدت الى بون انتهيت فى قرارة نفسى الى أنه لا يوجد ما يجعلنى أخشى صاحبنا بيكر فهو ليس من الطراز الذى يعرض نفسه للمخاطر حتى ولو للانتقام بسبب ضرر وهمى يعلم تماما أنه لم ينل منه أى سوء •

وأصبحت المشكلة الان هى كيفية الانتقال الى الجانب الآخر من الحدود • ولم أكن أعير المشكلة أى اهتمام حتى الان بسبب تتابع الاحداث ولكنها فجأة تجسدت أمام ناظرى وسيطرت على ذهنى فلو ذهبت الى السلطات العسكرية فى بون وفى كولونيا لمحاولة نقلى حتى أكس لاشابيل مثلا فسوف أتعرض لمواجهة أسئلة بصدد وحدتى ولن أستطيع الرد عليها والقول المأثور « خذ الامور ضاحكا » قول جميل ولكنه لا يسرى على هذه الحالة وبذلك استغرقت فى تأملاتى وكنت قد وصلت الى نهاية أقصى الكوبرى على الراين حينما شعرت بضربة على كتفى ومثل هذه الضربة تثير القلق حتى ولو كان الذى يشعر بها خالى البال ولم أكن ساعتها فى هذا الحال ومن أجل هذا تصلبت أعصابى فجأة ووقفت على أطراف أصابعى والتفت الى مصدر الضربة لاجد وجها مبتسما أعرفه ولم يكن وجه أحد رجال الجستابو كما توقعت بل وجه صديقى القديم فلان الذى أخرجته من السجن فى كولونيا منذ قرابة خمسة أعوام •

وكان يرتدى الملابس المدنية وكان يبدو فى غاية الانشراح وكانت بالنسبه لى هى أول مرة لا أراه عبوسا وقال :

ــ هالو ! يظهر أن أعصابك تعبة قليلا ألم تأخذ دواء الاعصاب فى الصباح •

ـ ما الذى يحملك على القيام بمثل هذه الالاعيب ؟ وانى أحمد الله على أننى لست ضعيف القلب !

ـ معذرة يا صديقي العجوز ولـكننى كنت أسـير خلفك ورغم أننى تعرفت على مشيتك الا أننى لم أتمكن على الفور من تحديد شخصيتك ثم عرفتك فجأة ولم أتمكن من مقاومة اغراء مفاجأتك ـ هل مكثت طويلا فى هذه النواحى ·

ـ كلا فقد وصـلت مسـاء أمس وانتهت مهمتى · والان أبحث عن وسيلة للعودة وليس هذا سهلا ! و (العجوز) يرى أنه يكفى التمويه أما أنا فلست شخصيا متأكدا من هذا · والذى أرتديه الان هو الذى تخيله ·

ـ هل تقول أنه ليست لديك خطة معدة للعودة ؟ ان هذا ليس من عادة صديقنا « العجوز » وانه لم يعد كما كان ·

وقررت أن أكون صريحا وبالتالى ذكرت له سبب حضورى وكيفيـة وصولى والنتيجة السعيدة لعمليتى وخشيتى من قيام بيكر بالعمل بفعـل سيء ·

ـ لا تخشى شيئا فان مثل هذا الوغـد لن يتجـاسر على المجـازعة بحياته ! وفى نظرى أنك لا تخشى شيئا من جانبه تعالى معى الى المنزل لنتحدث فى كل ذلك فنحن لا يمكن أن نبقى هنا وستكون فى قرار أمين ·

وعبرنا المدينة وسرنا فى طريق جودسبرج وتوقف أمام أحد المنازل ذات المظهر الجميل وفتح باب الحديقة · واستقبلتنا سيـدة عنـد المدخل وحيت صاحبى بقولها « صباح الخير يا كولونيل ! » وقدمنى لها على أننى صديق قديم · وكانت تشبه صاحبة الفندق الذى كنت أقيم فيه بكولونيا وسرعان ما تجاوبت معها وقالت :

ـ هل ترغب فى قهوة ·

ـ نعم ·

واحضرت القهوة بنفسها فى شقة صديقى فلان وجلسنـا بعـد ذلك وحدنا نتحدث ·

ـ انها تخاطبه بكلمة « كولونيل » اذا لم تكن أذناى مريضتان ٠

ـ تماما ! فأنا من الان شخصية كبيرة فى هذا القطاع أى نوع من كبار الكولونيلات فى هيئة أركان الحرب وقد استمر ذلك منذ عدة شهور! وقد آمنوا بى على أساس غطرستى وشدتى والرأى السائد هو أنه يحسن مداهنتى ٠ وأنا معروف فى جميع هيئات أركان الحرب واستطيع أن أحصل على جميع المعلومات العسكرية التى أريدها ومع ذلك فان حالتى ما زالت حرجة وأنا أزمع أن أنتقل الى الجانب الاخر قبل أن يفوت الاوان٠ وأنا أحس أنهم بدأوا يهتمون كثيرا بى ومن المستحسن الهروب والظروف لا تزال مواتية ٠

ـ اننى أنحنى اجلالا لان القيام بمثل هذا الدور خلال عدة شهور يحتاج الى شجاعة !

ـ ليس من الصعب كثيرا القيام بالدور بشرط أن تعرف كيف تموه حتى النهاية وأن تختار رعاياك بعناية ولكننى أقترب من النهاية وانى لاتساءل عما اذا كنت أغادر المكان معك ٠

ـ ليس لدى ما هو أحب من ذلك ! ولكن كيف سنجتاز الحدود ؟ ٠

لقد فكرنا خلال مدة من الوقت ٠ ولم أفكر شخصيا فى أى مشروع عندما قطع السكون بقوله فجأة :

ـ ولكن الامر بسيط للغاية ؟ ففى الصباح سأستولى على سيارة لهيئة أركان الحرب للذهاب الى المنطقة الامامية وستكون فى خدمتى بالامر بعد أن ننزع هذه الشارة للصليب الاحمر ٠ ولن يلقى عليك أحد أسئلة وأنت معى ٠ وسيكون السائق فى غاية التمام والشرعية مثل السيارة٠ونستطيع بقليل من الحظ أن نلحق بخطوطنا فى مساء الغد والى أن يحدث ذلك علينا أن نقضى ليلة ممتعة فما هو رأيك ٠

ـ عظيم ! وأنا موافق ولكننى لا أستطيع أن أفعل شيئا فى هذا الزى الملعون ٠ الا تستطيع أن تقرضنى زيا مدنيا ؟

فذهب ليفتح صوان الملابس ٠

ـ خذ ما شئت فان قامتي تكاد تماثل قامتك وستجد ما يناسبك ٠

وانطلقنا في حوالى الساعة ١٨ وكان صديقي يود أن نذهب الى فندق دريزن Dreesen في جودسبرج ولكنني عارضت ذلك وقلت له أنه من السهل التعرف على بسبب حضوري مؤتمر هتلر فقال :

ـ ياله من مزاج ! ولن يتعرف عليك أحد لانك لم تقم بزيارة هذا المكان منذ قرابة عشرين عاما ٠ وتستطيع أن تقول أن لك شقيق يشبهك قد توفى منذ زمن طويل ! وعلى أية حال لا يوجد مثل هذا الفندق الذى يمكن التمتع فيه ببعض الوقت وهذه المدينة يخيم عليها الحزن !

وقطعنا الخمسة كيلو مترات التى تفصلنا عن جودسبرج فى هدوء كنا نتبادل خلاله الاحاديث والنكات بدرجة لم أكن أعهدها فيه وقمت من جانبي فسردت عليه بعض تجاربى وما حدث مع ستام الذى وصفته له وصفا دقيقا فقال ٠

ـ أظن أننى قابلت الرجل ليس فى ايطاليا ولكن فى برلين منذ وقت ليس بالطويل ولا يمكن أن يماثله انسان حتى في هذا البلد التى تعج بالعصابات وأحس بأنه صادف فشلا فى مهنته وأنه كان غاضبا ولا يكن بموده لاصدقائه الايطاليين !

ـ اننى أفهمه ولكن الايطاليين كانوا يحسون بنفس الشعور نحو الالمان !

ـ ان هذا الرجل ليس من البشر بل هو وحش شرير وليس لديه أية ملكة للتفاهم ! وانت ترى أن مهنتنا تتطلب تقدير الامور والا فقد الانسان ملكة تقديرالقيم وغرق الى الاذان وأنا أجد فى كل حالة جانبها المسلى وجانبها الاخر واستطيع أن أراهن على أنك تشعر بنفس الشيء ٠

ـ هذا صحيح ! وكم شعرت بتسلية عندما أخرجتك من السجن فى كولونيا وكم تذوقت متمتعا بمنظر الرجل ذى الرأس الكبير الذى قابلته على حافة الغابة بعد هبوطى بالمظلة !

ـ آسف اذا كنت قد تصرفت معك بفظاظة عندما أخرجتني من السجن ولكن أعصابى كانت متعبة بسبب ما كنت أقاسيه من المعدة بسبب سوء

التغذية وأنا لم أكن مرحا ولكن صدقنى فأنا أدين لك بالكثير وكانت الامور وقتها تبدو فى نظرى فى غاية السواد ٠

ـ والان انقلبت الاحوال وأخشى أن يكون قد جاء دورك فى اخراجنا من هنا ٠ وليست لدى أية فكرة عن الوسيلة التى يمكن بها ذلك ٠

وفى دريسن كان الحاضرون كثير وليست كما فى وقت السلم ولكن كانت هناك أطعمة فى كثير من المقاعد وأوركسترا فى المنصة التى شاهدت عليها هتلر لآخر مرة يلفظ أصواتا مثل ايقاع الرقص ٠

وطلب صديقى أفضل المأكولات والنبيذ ٠ وكنت أفضل فى سنى أن لا يقاطعنى أحد خلال الاكل والشرب وأنا ضد العادة الحديثة التى تجعل الشخص يقوم من الاكل ليراقص سيدة ثم يعود ليجد الطعام الذى لا يستساغ وكان يمكن التهامه لو أكل قبل ذلك ببضعة دقائق ولكن صديقى لم يكن من هذا الرأى ٠ ومنذ البداية لمح فتاة فى نهاية الصالة مع رفيقها الشاب فذهب وانحنى أمامها وحصل على موافقة رفيقها وابتسامة الفتاة التى احتكرها بعد ذلك ٠ وشعرت بالشفقة على الشاب وبعد لحظة ذهبت لادعوه الى مائدتنا وجمع نفورنا من الرقص بين قلوبنا وسرعان ما التف الشبان حولنا ٠ وزادت حرارة المكان رويدا رويدا وكان صديقى هو السبب وأصبح روح الليله وانضم الينا كثير من الناس وكانوا ينظرون اليه باعجاب ٠

وانتهى الحفل فى حوالى منتصف الليل وكان لابد من أنهاء الحفل رغم أن البوليس كان يأخذ تعويضا جزيلا وعلى علم تام بعلاقات الصداقة القائمة بين الاخوان دريزن وبين هتلر٠ وانصرف الحاضرون وهم يضحكون ولم نجد صعوبة فى العثور على سيارة لكى تعود بنا الى بون ٠ وللاسف كان السائق عجوزا أكثر مما نعتقد وما زلت حتى اليوم أشعر بقشعريرة عندما أتذكر أحد اخوان دريزن وهو يقول لى :

ـ ليلة سعيدة يا سيدى وأظن أننى سبق أن شاهدتك ٠

ـ هذا قليل الاحتمال لاننى أمر فقط عبر هذا الاقليم ٠

ـ هذا غريب ٠ انك تذكرنى بشخص كان يتردد كثيرا على الفندق من قبل ٠

ـ لابد أنك تحسبنى شخصـا آخر وانت تشـاهد كل يوم مئـات الاشخاص !

وبعد عودتنا قلت لصديقى فلان :

ـ ألم أكن على حق فى مخاوفى فقد تعرف على هذا الدريزن الملعون ولو أنه لم يستطع أن يضع اسما على وجهى ! لقد أكدت لك أننى سأجازف اذا حضرت !

ـ لا توجل ! سوف نرحل غدا وقد قضينا ليلة ممتعة · هيا الى النوم لنكون على استعداد فى الغد · وسريرك يوجد خلف الباب القادم · ثم جيدا وكن مستعدا فى التاسعة صباحا !

وقد شرب صديقى ضعف الذى شربه أيا من الحاضرين ومع ذلك فلم تلعب الخمر فى رأسه ·

الباب الحادى والعشرون

وفى اليوم التالى ذهبت الى مكتب قائد الاسلحة بمذكرة من صديقى فلان ولم أجد كما توقعت أية صعوبة فى الحصول على سيارة وكان الجميع يظهرون الود • وكان يبدو أن هؤلاء القوم على استعداد لان يفعلوا أى شىء يأمرهم به صديقى •

وقال الصول :

ـ أكد الكولونيل أن السيارة ستكون أمام منزله الساعة ١٣ •

وعندما عدت كان صديقى يفرز أوراقا وضعها فى محفظة وكان يرتدى الزى العسكرى ويدل مظهره على نموذج الضابط البروسى حتى فى المنظار الموضوع على عينيه •

وتناولنا افطارنا وطلب منى أن أضع كثيرا من الشطائر فى حقيبتى :

ـ ستفيدنا هذه الشطائر •

وسألته ماذا سنفعل بعد أكس لاشابيل ولكنه لم يجبنى صراحة وقال :

ـ لست أدرى يا صديقى العجوز ولكن هذا يتوقف على الظروف زمهما يكن من شىء فلن يكون الشوط طويلا • آه ! لقد حانت ساعة حضور السيارة • هيا نذهب لنرى ما اذا كانت قد جاءت • ولا تنسى أن تعاملنى باحترام أمام السائق ! •

وكان من الواضح أنه يحب أن يتلذذ بالقيام بدوره • وعندما وصلت الى الشارع وجدت سيارة مرسيدس قوية تقف أمام الباب •

واتخذ صديقى فلان مظهرا رسميا وهاما • وأديت اليه التحية التى لم يرد عليها وفتحت له الباب •

وأمر السائق :

ـ الى اكس لاشابيل ! •

وبعد أن أديت التحية للمرة الثانية صعدت الى المقعد بجوار السائق تركا صديقى فى عظمته وحيدا فى المقعد الخلفى •

ولم ينبس ببنت شفه طيلة الرحلة • وكان صديقى أقل قدرة على أن ينزل عن مرتبته ليتبسط مع مرؤوسيه ولم يتجاسر السائق على أن يفتح فمه بكلمة الامر الذى جعلنى أقلده لعلنى أستطيع أن أحدثه بعد ذلك •

وعند الوصول الى القيادة العامة فى اكس لاشابيل طلب منا صديقى فلان أن ننتظر وأنه سيغيب لمدة نصف ساعة وربما أكثر وبعد انصرافه انطلق لسان السائق :

ـ ان هذا المخلوق هو الرعب بعينه • وهو يظهر التوحش لجميع الناس حتى لرؤسائه كما يقال • ولا شك أنه متصل بكبار الحزب • وكل الناس يخشونه • هل أنت ياوره •

ـ نعم وليست الوظيفة مهينة بل وهو متجاوب جدا لمن يعرفه عن كثب •

ـ هذه أول مرة اسمعها عنه ! وهذا حسن بالنسبة لك ! وفكر ثم بصق وقال :

ـ على أية حال هذه الحرب السخيفة لن تستمر طويلا • وكل الناس تؤمن بذلك •

ولن يكون ذلك فى القريب العاجل ! •

وأمئت على هذا الكلام برأسي ولكننى فى هذه اللحظة كنت مشغولا بمصيرى الخاص أكثر من انشغالى على مصير الحزب ٠

وخرج صديقى فلان بعد قليل ٠ وعندما كنا على انفراد قال :

ـ لقد وعدونى بسيارة تحملنا الى الشمال ولكن لابد من الاحتفاظ بهذه السيارة حتى تصل السيارة الاخرى ٠ ويستطيع السائق أن يعود الى بون ٠ وأنا أقول لك بصراحة أن الجو الذى صادفته لم يكن مشجعا ٠ وقد ضبطت نظرة أو نظرتين نحوى ٠٠٠ أننى لا أستطيع أن أصور لك تعبيرها ٠٠٠٠ سخرية خبيثة غادرة ٠ والاصح أن يقال أنهم ينتظرون اشارة واحدة بين لحظة وأخرى ٠

ـ وما الذى يحول دون أن نرحل على الفور مع هذه السيارة فقـد يعطينا بعض السبق ٠

ـ كلا فقد نثير الشبهات حولنا وقد عرضت على هيئة أركان الحرب المناطق التى أزمع زيارتها وأظن أنهم قاموا باخطارها بوصولى فاذا ما تلقوا أمر القبض فسوفَ يعطونه لجميع المراكز تليفونيا ولن تنفعنا المسافات ٠

ـ اذا كانت ظنونك صحيحة فنحن فى حالة عصبية وتكون فرص ارسال هذه الوثيقة الروسية التى أحملها الى لندن مكتنفة بالاخطار ٠

ـ اذا قبض علينا فانا أوافقك على أن مركزنا سيكون عصبيا ولكنك تستطيع أن تخرج من الورطة ولو لفترة معينة ٠ وهم كما أعلم لا يملكون شيئا ضدك بل وربما اقتنعوا بما تتظاهر به وتستطيع بمساعدة الوقت والحظ أن تغادر البلاد من طريق آخر ٠ وربما تستطيع أن تأخذ الامور ضاحكا ! ٠

ـ لا تهزأ بى ! ان أوراقى صحيحة تستطيع مواجهة أى مرتاب ولكننا أجهل كل شىء عن وحدتى وما بعد ذلك فاذا ما استجوبت فلن أصمد طويلا ٠ ولا يمكن التمويه على شىء أجهل أصله تماما ! ومن جهة أخرى كفانا كلمة « خذ الامور ضاحكا ! » فهى تماما مثل كلمة « افتح يا سمسم » المعروفة فى ألف ليلة وليلة ولتى نحاول أن نقولها أمام جميع الصعاب ! ٠

ــ اذا شئت نستطيع أن نعود الى بون فى سيارة المرسيدس وتختفى بعض الوقت • وتستطيع أن تختفى الى الابد وعلى أية حال فلن يكون أول من يهرب من الخدمة ! •

ــ كلا فاني سأظل معك اذا لم تجد فى ذلك غضاضة • والجماعة خير من الفرد وأنا أفضل تحمل المخاطر الآن بدلا من تحملها بعد ذلك •

وظهر أن ردى قد بعث فى نفسه السرور •

ــ حسنا ! وها هى السيارة الاخرى قد وصلت •

وفى الواقع وصلت سيارة وتوقفت أمام المبنى وذهب صديقى فلان وتحدث مع السائق • وبعد لحظة قال لى أن أصرف السيارة الاولى لنذهب الى بون • وعند عودتى جعلنى أصعد معه فى المقعد الخلفى وعلى الفور استأنفنا الحديث • فقلت :

ــ ألا ترى أن السائق قد يعجب من جلوسى بجوارك ؟ •

ــ لا يهمنى تفكيره ! اذ نستطيع أن نتحدث دون أن يسمعنا بفضل الحاجز • ولست أدرى أية تعليمات تلقاها ولكننا لن نذهب شمالا بأية حال فهذا انتحار •

ــ والى أين نذهب ؟ •

ــ بمجرد خروجنامن المدينة سأعطيه أوامر جديدة• وسنأخذ الطريق الموصل الى الغرب • وفى هذا القطاع لا يعلم الناس حتى الآن عن أمرنا شيئا وهم سيعرفون عندما يدرك الآخرون أننا لم نعد نتجه شمالا فاذا ما أدخلنا فى حسابنا حوادث الطريق فاننا نملك بضعة ساعات الامر الذى يوفر لنا سبقا عظيما •

ثم ضرب الحاجز الذى يفصل بينه وبين السائق فتوقف السائق وأمره صاحبى :

ــ عد وخذ الطريق الى الغرب •

وبدا الارتباك على الرجل ٠

ـ يا سيدى الكولونيل لدى أمر بقيادتك الى مونشيه ـ جلاوباش

ـ أنا أعرف ذلك ٠ وسنذهب اليها فيما بعد أما الآن فافعل ما أقوله

لك بسرعة ! فليس لدينا وقت نضيعه ! وتردد السائق مرة أخرى فقال صاحبى :

ـ هل هو عصيان للامر ؟ ٠

وكان صاحبى يقوم بدوره مع مرؤسيه خير قيام ٠ فهز السائق كتفه وكأنه يقول « مهما يكن من شيء فلا لوم على ! » ونفذ الامر ٠

وعدنا من حيث بدأنا وانطلقنا فى الطريق ٠ وفى هذا الوقت كان الليل قد أرخى سدوله ولم أكن أكترث لا بالوقت ولا بالمسافة وظل صديقى مثلى صامتا وكأنه مستغرق فى أفكاره فقد أصبح كل شيء يتوقف عليه من الآن ومرة أخرى دق على الحاجز وسأل السائق :

ـ كم المسافة بيننا وبين الموقع الرئيسى للآلاى ٠

ـ تريد أن تقول مائة ٠٠٠ يا سيدى الكولونيل (ولم أفهم الرقم ؟ ٠

ـ بالتأكيد ٠

ـ حوالى كيلو ٠ وليس مصرح للسيارات بالذهاب أبعد من ذلك ٠

ـ حسنا عندما نصل الى هناك ٠ قم بنصف دورة وانتظرنا فقد نقضى وقتا طويلا ٠

ـ سمعا وطاعة ٠

وأغلق صديقى الحاجز وقال لى :

ـ ستكون هذه آخر عقبة · واذا لم يخطروا بشأننا فسوف نذهب مع ضابط مساعد الى الموقع الرئيسى للكتيبة ومن هناك نأخذ ضابط آخر أو مساعد للسير قدما الى الامام ولابد أن نمر من خلال موقعين ·

ـ وبالطبع نتلقى نيران نفس رجالنا ·

ـ بالضبط وأنت دائما ترى الجانب النيرانى من الامور ! ومع ذلك فاذا سار كل شيء على ما يرام فتذكر أنه يلزم السير على الاقدام ابتداء من هنا فهل أنت فى حالة تمكنك من السير على قدميك خمسة كيلو مترات ·

ـ أستطيع أن أمشى خمسين كيلو مترا اذا كان هذا ضروريا ! وكل ما أطلبه هو أن أخرج من هذا البلد المقدس ! ·

ووصلنا الى الموقع الرئيسى · ودخل صديقى وانتظرت عند المدخل بينما استدارت السيارة انتظارا للعودة · ومضت خمسة عشر دقيقة · ولم أكن أعرف كيف ستنتهى مقابلته وأخذت السماء تمطر ولم يكن المطر شديدا ولكنه كان كافيا لكى تبتل ملابسى · وبدت الحيـاة فى نظرى سوداء ·

وأخيرا خرج صديقى ومعه ضابط شاب لاحظت بارتياح أنه لا ينظر الى الحياة بابتسام وذلك أنك حينما تشعر بالغم وترى شخصا مهموما فان منظره يخفف عنك بعض الشيء · أما صديقى فقد كان كما يبدو دائما مسيطرا على أعصابه وأدركت أن مناورته نجحت وأن أمامنا فرصة ·

وتقدمنا خلال ثلاثة كيلو مترات فى طريق الريف الموحل وزاد المطر من ابتلالنا · وأخيرا وصلنا الى مزرعة منعزلة اتضح أنها الموقع الرئيسى للكتيبة · ودخل صديقى والضابط واضطررت أن أنتظر فى الخارج ولكن جاء جندى وقال لى أن أنتظر فى الحجرة المخصصة للجنود « المراسلة » حيث أعطيت قهوة ساخنة وبعض الشطائر المزودة بالزبدة وقطعة لحم مشوية الامر الذى أعاد الهدوء الى نفسى ·

وبعد نصف ساعة استدعيت الى القاعة الرئيسية حيث وجدت صديقى وصف ضابط على استعداد لرحيل الى ما كنت أتمناه أن يكون آخر مرحلة· وتقدم صف الضابط وكان صديقى يحدثه بين آونة وأخرى ربما ليستعلم

عن القطاع ٠ ولم أكترث بحديثهما فقد تفحصت شخصيته « الياور » وعقلية هؤلاء الرجال البواســل الذين لا يهتمون الا بتلقى الاوامر دون القاء أسئلة ٠

وقضينا نصف ساعة لنجتاز كيلو متر ونصف حتى وصلنا الى القطاع الرئيسى للسرية أو القسم ٠ وهناك قام صديقى فلان بأروع ما فى دوره وكان فى الموقع لفتنانت كفء ولكنه لم يستطيع أن يقاوم شخصية صديقى الذى فرض نفسه وأثار اعجاب الضابط ثم طلب الخريطة وألقى عدة أسئلة عن استعدادات المواقع الامامية ورجالها وما لديهم من تعليمات وحصــل على اجابات سريعة ودقيقة ٠

ـ من هم الموجودون فى مواجهتنا ٠

ـ أمريكان يا سيدى الكولونيل ولكننا لا نعرف رقم الآلاى ٠

ـ ألم تبعثوا بداوريه لاكتشافها ٠

ـ نعم كل ليلة تقريبا وتوجد ثلثمائة متر تفصل بين الخطوط ٠

ـ حسنا سوف أقوم بتفتيش جماعة أو جماعتين لكى أتفقــد الامر بنفسى ٠ وأريد دليلا ؟ ٠

ـ هل تسمح بأن أرافقك ؟ ٠

ـ كلا فمكانك هنا ٠ وسأعود بعد ساعة ٠

وسرنا مع الدليل ٠ وكانت السماء تمطر دائما وأصبحت مبللا بالماء تماما وبعد اربعمائة متر وصلنا الى أحد المواقع الامامية وقال صف الضابط الذى يقود الموقع أن المسافة بين الخطوط المتعادية حوالى مائة متر وصرح ردا على سؤال بأنه لا يعلم أن أية داوريه خرجت على خلاف ما يقال وعند ذلك تولى صديقى القيادة وقال :

ـ ســأذهب لارى بنفسى وأخطر المواقع التى على اليمين والتى على اليسار وهم يخطرون المواقع الاخرى وفى خلال الساعة الآتية لا تلقى النيران الا فى حالة الهجوم ٠ ولا تلقوا صواريخ كاشفة ٠ هل فهمت ؟ ٠

ـ نعم يا سيدى الكولونيل ٠

وانطلق اثنان من المستكشفين ٠

ـ هل تريد أن أصاحبك يا سيدى الكولونيل ؟ اننى أعرف الارض جيدا ٠

ـ كلا فيكفينى الياور الذى يرافقنى وهو معتاد على ذلك ولا يحب أن يرى الكثير فى اعقابى ٠

ولست أدرى ماذا كان رأى صف الضابط فى هذه الطريقة غير المعتادة فلم يشاهد خلال الحرب غالبا أحد كولونيلات هيئة أركان الحرب يخوض فى ظلمات الليل فى الارض الحرام ! وكان ينطلق من ناحية ما كنا نحسبه الخطوط الامريكية صواريخ كاشفة مما يدل على عدم وجود داوريات ومع ذلك فلا يمكن التأكيد بشىء وخاصة بالنسبة للامريكان ٠

وتقدمنا ببطء وحذر الى المكان الذى لا تنطلق منه هذه الصواريخ ووصلنا نقطة اعتبرناها أعلى الخط الاول ان لم تكن وراءه وزحفنا الخمسين مترا الباقية وهى ليست طريقة جيدة للتقدم فهى فضلا عما نستلزمه من مجهود بدنى فانها تغطيك بالاوحال والقاذورات ٠ ولكى نحصل على مزيد من الامن استمررنا فى الزحف ثم اتجهنا يسارا لنصل الى أقرب موقع من الخلف ٠

ولم نجد أية صعوبة فى اكتشافه بسبب الصواريخ المضيئة التى كانت تنطلق منه ٠ ووصلنا الى جنود الموقع دون أن يحسوا بنا ٠ وقلت ٠

ـ هل من أحد يتحدث الانجليزية ٠

وأسفت على الفور لان اثنين صاحا فى وقت واحد « يا للسماء ! » وتحولا فجأة ليشهرا سلاحهما فى وجهى ـ ومضت ثانية وأنا فى أقصى حالات الانفعال لان الرجال الخائفين سرعان ما يضغطون على الزناد ومع ذلك فقد رفعت أنا وصديقى أيدينا فوق رؤوسنا وصرخت :

ـ لا تطلقوا ٠ فنحن ضباط بريطانيون وليست لدينا أسلحة ! ٠

ولحسن الحظ استمعوا الى ثم أخذ يستجوبنى مساعد ضابط ٠

ـ ماذا كنتما تصنعان هنا ؟ ٠

ـ لقد وصلنا من الجانب الآخر وهذا يفسر الزى الذى نرتديه ٠

ـ يفسر ماذا ؟ ٠

ـ يفسر تنكرنا فى هذه الملابس فى الزى العسكرى فنحن كنا نخشى أن نلفت الانظار بملابسنا البريطانية فى ألمانيا ولهذا ارتدينا هذه الملابس فهل تفهم ! ٠

ـ اننى لا أصدق أية أكذوبة من أكاذيبكما المقدسة ! ٠

وكيف وصلتم الى هنا دون أن يراكما أحد ؟ ٠

ـ بالزحف أولا ولعدم يقظة رجالك بالدرجة الكافيـة ٠ ولو كنت مكانك لامرتهما بالمزيد من اليقظة فكل الجيش الالمانى يستطيع أن يفعل مثلنا ! ٠

ويبدو أن هذه الكلمات جعلته يفكر قليلا وأخذ يمضغ اللبانة التى فى فمه بعصبية بهرتنى وقال :

ـ سوف أصادف مضايقات ٠

ـ لن يحدث ذلك اذا لعبت بأوراقك كما يجب ٠ ويكفى أن تقول أننا أصبحنا أسرى ونحن نؤيد وجهة نظرك والشىء الذى يهمنا هو أننا أصبحنا هنا ولا نريد أن نسبب مضايقات لاحد ٠

ـ حسنا يا سيدى وشكرا ٠

والتفت الى القناصة وقال :

ـ اسـمعوا أنكم أنتم الذين قبضتم على هذين الرجلين لا تنسـوا ذلك ! ٠

ثم التفت الينا وقال :

– والآن سأذهب بكما الى الكتيبة ولا أريد مشاكسات هيه ؟ وأنا سأسير خلفكما شاهرا السلاح ! ٠

وأكدنا له أن ليس في نيتنا القيام بأية مداعبات وسرنا يسبقنا جندى٠ وفى الموقع الرئيسى للكتيبة تم استجوابنا وفحصت أوراقنا الالمانية ٠ وسردنا قصتنا ولو بالقدر الضرورى وطلبنا تسلمنا الى تشكيلة بريطانية٠ وتمت عدة اتصالات تليفونية وبعد دخول دورة المياه وتناول طعام مناسب صعدنا فى سيارة جيب الى قيادة الفرقة وكنا فى كل لحظة نعامل معاملة طيبة ٠

وفى صباح اليوم التالى اغتسلنا واسترحنا وأكلنا ونقلنا الى بروكسل وسلمنا الى البريطانيين الذين أظهروا ارتيابا وكانوا على حق ووضعنا فى الحجز ٠

وقدم صديقى جميع البيانات الدالة على شخصيتنا وعندما وصلت التأكيدات تحول الجو الى بشاشة ومودة قلبية ٠ وفى صباح اليوم التالى قادتنا طائرة الى ولتشاير التى سافرت منها قبل ذلك بأيام وارتدينا الملابس العادية الامر الذى بعث فى نفسى راحة كبيرة ٠

ووصلنا الى لندن بالسيارة وكنا فى حالة غير عادية لان العملاء يعملون عادة على انفصال كل فى قطاعه ويجهل بعضهم البعض لاسباب معروفة ومع ذلك فقد شاءت المصادفة أن نجتمع أنا وصاحبى مرتين فى مناسبتين تبادلنا فيهما المعاونة ومن أجل هذا كان من العبث محاولة التظاهر بالاستخفاء فقال صاحبى :

– ليس ثمة ما يدعو لان نذهب الى وزارة الحربية وعلينا أن نذهب لمقابلة الرئيس « العجوز » فأنا أمقت الادارة ! ٠

ونزلنا الى هوايتهول وتقدمنا الى وجهتنا ونحن مشتبكى الايدى ولو من الناحية الادبية على الاقل ٠

وظهرت معالم الارتباك على الرجل الخدوم الذى يقف على باب «العجوز» عندما رآنا نحن الاثنين دون اخطار سابق وعلى خلاف المعتاد ٠ وقال :

ـ لست أدرى ما اذا كان الرئيس على موعد معكما ورد صديقى :

ـ أنت تعلم جيدا أننا لسنا على موعد معه أيها الالعبان العجوز ! فاذهب وأخطره بوجودنا وأننا نريد أن نراه • ولا تلعب معنا دور المشدوه فكلنا فى الهم شرق ! •

وابتسم الحارس وأعلن أنه سينقل رسالتنا • وأدخلنا على الفور تقريبا • وكان « العجوز » بقرب الموقد ولم يكن مبتسما وبدا عليه أقرب الى الاسف •

ـ ما الذى جعلكما تقتحمان بابى هكذا على خلاف جميع الاوامر ؟ انه يتعين على أن أقدمكما الى مجلس عسكرى ! •

ـ موافقان ولكنك ستجد صعوبة يا سيدى فى توجيه الاتهام وستكون بعد كل شىء أول من ينفى وجود علاقة معنا فكيف ستنجح فى اتهامنا ؟ •

ويبدو أن الحجة بهرته •

ـ لقد حضرتما كما أظن لكى تسلما الى الحساب ومن الآن لن تقوما برحلات ممتعة فى الخارج على نفقة الخزانة العامة •

وقلت :

ـ أنا شخصيا لا أود هذه الرحلات •وقد أديت آخر مجهود وتستطيع أن تشطب اسمى من قائمتك والغريب أنه لم يطلب منى ما اذا كانت مهمتى قد نجحت من عدمه • وأخرجت الوثيقة التى كنت أسعى اليها فى ألمانيا وقلت :

ـ هذه هى الوثيقة التى تنشدها كما أظن وربما كانت عسيرة القراءة ولكننى أطلب المعذرة •

ولم تظهر عليه الدهشة وقال :

ـ لقد كنت أسائل نفسى متى تخرجها • وجميع مظاهرك وملامحك تدل على نجاحك فى المهمة ولهذا لم أتسرع والآن أسردا على كيف تقابلتما

معا وطريقة مغادرتكما لالمانيا وأنا أعترف أننى كنت فى غاية القلق لاننى لم أستطع أن أعد لكما خطة الانسحاب ولكن كان من المستحيل عمل ذلك .

فسردت عليه ما جرى بين اللحظة التى ضرب فيها صديقى فلان كتفى وسط كوبرى بون واللحظة التى وصلنا فيها بين أظهر الامريكان . وقال :

ـ نعم . انهم رجال غير متبصرين والآن تستطيع أن تعود الى لودج مور لكي تعيش عيشة البؤساء فاذا ما وجدت الحياة مملة فاخطرنى بالطرق العادية أما اذا غيرت رأيك فان ذلك يدهشنى ! .

ـ وأنا كذلك .

واستأذنت منه فى الانصراف وخرجت .

الباب الاخير

الثـانى والعشرون

وفى خلال تصريح بأجازة فى وست أند اللندنية West end Londonien وكانت ساعة الزحام · ونزلت درجات سلم محطة مترو بيكاديللى سيركاس Picadilly Circus وتقدمت بجهد جهيد والناس تتـدافع بالمناكب والمرافق نحو رصيف خط باكرلو Bakerloo الذى يمر بمحطة واترلو Waterloo · وعندما وصلت الى وجهتى كان القطار على وشك أن يصل ولكن الزحام كان شديدا بدرجة جعلتنى أصمم على انتظار القطار التالى ·

وحسبت أن عربات القطار الاخيرة ربما كانت أقل ازدحاما فشققت طريقى نحو مؤخرة الرصيف ونجحت فى أن أقف على حافة الرصيف فى مقدمة الجمهور على أمل ألا أبتعد عن أحد أبواب عربات القطار لادلف منه الى الداخل بل وربما الحصول على مقعد وعندما اقترب القطار ازداد ضغط الناس بطريقــة آلية بينما أولئك الواقفين على حافة الافريز حاولوا أن يتقهقروا قليلا ·

والذى جرى بعد ذلك حدث بسرعة لا تحتفظ ذاكرتى الا بمعـالم مشوشة : وكان مكان السائق يبتعد عنى بعشرة أمتار والقطار يتقـدم بغاية السرعة وفجأة أحسست بدفعة عنيفة بين كتفى · وانطلقت مثل كرة المدفع بتأثير الدفعة ووفقا لشدتها وبحركة غريزية رفعت ذراعى لاحمى نفسى ولم تصادف ذراعى اليسرى سوى الفضاء أما زراعى اليمنى فقد اصطدمت بوحشية بمقدمة عربة القطار الامر الذى ألقانى بين سـيقان وأقدام الجماهير ·

ويظن البعض أنهم لولا تدخلوا لكانت اصابتى أفدح وسمعت كذلك صوتا أو صوتين ينددان بغباء بعض الاشخاص الذين لا يعرفون كيف ينتظرون حتى يقف القطـار · وكان من الظـاهر أن هؤلاء الاشـخاص لا يعرفون السبب الحقيقى لانكفائى بتأثير دفعة شديدة تعتبر فى الظاهر طائشة ! ·

وبعد فحص سريع ظهرت رضوض خفيفة فى عظمة الساق ولكننى بقيت مشدوها نتيجة الخوف • وحدث كل ذلك فى خلال ثانيتين أو ثلاث وسمعت بعد ذلك تدافع من حولى لم أعره أى اهتمام ثم ظهر رجل ضخم يرتدى معطف غير جديد وساعدنى على أن أقف على قدماى وقال :

ـ هل جرحت يا سيدى ؟ •

ـ كلا وعلى أية حال أظن أننى لم أصب بأى كسر •

ـ الحمد الله ! لقد فاجأتنا المباغتة ولولا ذلك لتدخلنا فى الوقت المناسب •

ـ وقادنى الى مقعد •

وسألت :

ـ اذن المسألة ليست حادث •

ـ كلا واستطيع أن أؤكد ذلك وليس الامر حادث ولكننا أمسكنا بالفاعل وقد كنا نراقبه منذ بضعة أيام ولكن نظرا لاننا لا نعرفك فلم نكن نستطيع أن نتكهن بأنك الشخص الذى يريده • هل تريد أن تحضر الى قسم البوليس للتعرف عليه ؟ •

وبعد قليل كنت أمام شخص يرتدى زى سلاح الطيران البريطانى وذو مظهر عادى ولم تقع عليه عيناى قبل ذلك • وكانت قامته متوسطة قصير وغليظ ومظهره قاتم وسار على المثل الذى يقول أن « السكوت من ذهب » ومع ذلك فان بعض الكلمات التى تفوه بها دلت على أنه ـ يتحدث اللهجة اللندنية وازداد عبوس وجهه كلما انهالت عليه الاسئلة وفى الحقيقة لم يكن أمامه ما يسر لانه كان فى مركز أكثر من الحرج والقيت عليه أمرا بالالمانية عسى أن يظهر عليه رد فعل بدرجة آلية ولكن وجهه لم يتغير • وربما كان يتوقع مثل هذا النوع من المفاجآت وعدت الى دارى تاركا اياه فى أيدى أمينة •

وقبل سفرى الى لودج مور فى نهاية الترخيص بالاجازة اتصل بى الرئيس « العجوز » تليفونيـــا وطلب منى أن أمر عليــه فى مكتبــه • وقال :

ـ أظن أنك تدرك الآن أنك محظوظ لانك ما زلت على قيد الحياة وربما تهتم بتحذيراتى مرة أخرى ! وكان من المفروض أن تكون الآن متوفيــا ومدفونا •

ـ بالتأكيد لقد نجوت باعجوبة ولا يمكنك أن تلومنى على المباغتة وسط مثل هذا الزحام المتدفق من كل جانب • ويقال أن الانسان فى أمان وسط الجمهور •

ـ لا تتحدث مثل الاغبياء ! الجمهور يعتبر أمان بالنسبة للسفاح كذلك ولو لم يكن هناك من يتتبعه عن كثب فلا شك أنه كان ســيفلت وما كان ليراه أحد • فامتنع عن الانخراط فى مثل هذا التزاحم مستقبلا ومع ذلك فليس من المحتمل أن تتكرر نفس العملية بنفس الطريقة • ومن حسن الحظ أن المترو يسير بسرعة جدا والا لكنت سقطت على بعد متر أو مترين أمام قافلة عربات السكة الحديد •

ـ وعلى فكرة يا سيدى على توصلتم الى التعرف على شخصيته •

ـ كلا ولكنه طفيلى ونكاد نكون على يقين من أنه ألمــانى يعيش منــذ وقت طويل جدا فى انجلترا وربما فى لندن • والاوراق التى وجدت معه والتى تثبت أنه يتبع سلاح الطيران البريطانى صحيحة ولكنها ليست له وقد أعلن عن ضياع هذه الاوراق قبل ذلك وذكرت الوحدة التى يزعم أنه ينتمى اليها أنها لا تعرفه • وما زال التحقيق جاريا ورغم أن ذلك يستغرق وقتا فسوف نعرف فى النهاية حقيقة شخصيته • وهو فى الاسف لا يعدو أن يكون من سقط المتاع ومع ذلك فمن المحتمل أن يقودنا الى شىء هام • وكل الدلائل تشير الى أنه يوجد وراء كل ذلك شخص من طراز هذا الستام كما كنت أتصور فاذا صح هذا التقدير فكم أتشوق الى رؤيتكما معا وجها لوجه ! ولكن ما زال هذا الاحتمال بعيدا •

ـ نعم لابد أن يكون منظرا ممتعا ذلك الذى يجمعنا فى مكان واحد ولكن بشرط أن يكون مقيد اليدين ! فهو لا يتورع عن الاقدام على أعنف الاعمال لاقل اثارة وأفضل لى أن أكون فى مكان مغلق مع غوريلا أهون من أن أكون معه ! اذ من الاسهل أن أروض الغوريلا باصبع موز أما ستام فليس من المعقول ترويضه ! ٠

ـ حسنا وعد الآن الى معسكرك ولا تنسى أن تفتح عينيك أكثر من ذى قبل ! ٠

ومضت مدة ثم استدعيت الى لندن بصدد حادث الشروع فى اغتيالى ولم أدهش عندما علمت بعد عدة أسابيع أن مقترف الجريمة قد دفع ثمن أعماله ليس بسبب الشروع فى اغتيالى فحسب بل بسبب عـدة أعمال أخرى ليست فى صالحه والتى لم أعرف عنها سوى نبذة صغيرة ولكن أقل هذه الاعمال تبرر اعدامه وتقرر بالاجماع أنه عاش بما فيه الكفاية وفعلا نفذ فيه حكم الاعدام ٠

أما بصدد ستام فلم يعثر على ما يدل على تواجده فى انجلترا أو أنه المسئول عن الحملة القصيرة ولكن العنيفة الموجهة ضد مخابراتنا ٠ وعلى أية حال لم يعثر له على أثر ٠ أما أنا شخصيا فانى أشك كثيرا فى أن يكون هو وراء هذا التنظيم ولو لمجرد شغفه بأن يحتل الصدارة وليس من طبعه الانزواء لتنظيم مثل هذه الاعمال خفية كما وأن وحشيته وتهوره يحولان دون قيامه بمثل ذلك الدور ٠

وسمعت منذ سنوات دون أن أتأكـد من صحة النبأ أن أحـد زعماء الجستابو السابقين الذين تشبه أوصافهم أوصاف ستام حكم عليه بالسجن مدة طويلة بسبب الوحشية التى اقترفها ضد مواطنيه وكان يتخذ اسما مستعارا وربما كان هو ستام الذى يتلذذ بالقسوة وربما كان أحد زملائه والتنظيم النازى لا ينقصه الكثير من هذا الطراز وما ينبغى أن أزيد حرفا فى هذا الصدد ٠

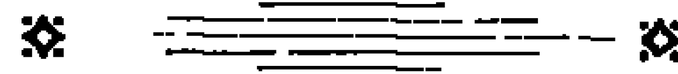
وبعد استسلام ألمانيا فى ربيع سنة ١٩٤٥ وانتهاء الحرب فى أوروبا لم يعد هناك مبرر لاقامتى فى لودج مور وفى الحقيقة كان العمل متوفرا أمامى وكان هناك الكثير الذى ينبغى عمله من أجل اعادة الآف الاسرى الى أوطانهم ولكن هذه المهمة لم تبعث فى نفسى أية رغبة ويوجد الكثير الذين هم أكفأ منى فى هذا الصدد وعلى استعداد لادائها ٠

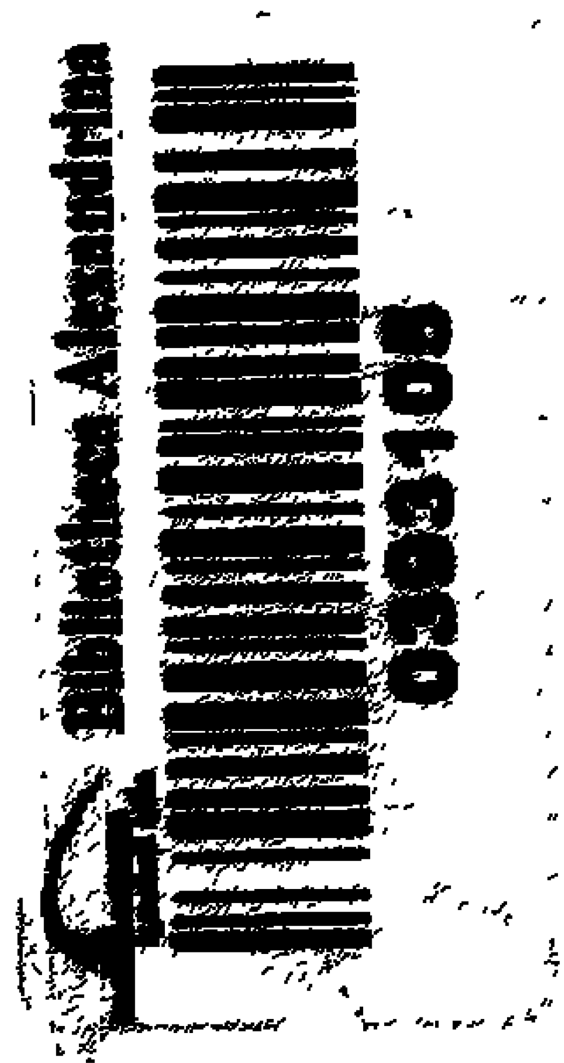
وعندما بدأ تسريح الرجال العسكريين لم أتردد فى الانخراط فى الحياة المدنية ٠

وفى ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٥ عدت الى الحياة المدنية بعد أن خدمت ستة سنوات فى الجيش وقضيت طيلة هذه المدة فى المخابرات طليقا من الحياة الروتينية والنظام الصارم الذى يجعل المعيشة على وتيرة واحدة تثير السأم وخاصة فى هيئة أركان حرب تشكيلة كبيرة ٠

وانى لاحس بعطف على أولئك الذين يضطرون بحكم المصير أو الظروف لان يسلكوا هذا النوع من المعيشة وأبعث باعجابى الى البعض ورثائى على الذين يقبعون فى كمائن ٠ أما أنا فأشعر بغبطة أن أتاح لى القدر طريقا غير تلك الطرق ٠

تم بحمد الله




Bibliotheca Alexandrina
0393108